

كليوباترا

المرأة الساحرة والملكة الداهية

كليوباترا .. المرأة الساحرة والملكة الداهية (رواية)

رايدر هجارد

ترجمة: شفيق أسعد فريد

الطبعة: ٢٠٢٣



العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر

هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

رايدر هجارد. – ترجمة: شفيق أسعد فريد – كليوباترا..المرأة الساحرة والملكة الداهية

– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢

٢٨٤ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٢ – ٨٦٦١٧ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٧٢٩٥ / ٢٠٢٣

رايدر هجارد

كليوباترا

المرأة الساحرة والملكة الداهية

رواية

ترجمة

شفيق أسعد فريد

مقدمة

عثر المنقبون حديثاً على مقبرة في منعزل من صحراء ليبيا المقفرة، الواقعة خلف مدينة أبيدوس ومعبدها، ذلك المعبد الذي يزعمون أنه المقر الأبدي لأزوريس المقدس.. وكان مما عثروا عليه في هذه المقبرة حزم من أوراق البردي سجلت فوقها حوادث هذا التاريخ.

والمقبرة فسيحة الأرجاء، ولا شيء فيها يجتذب الأنظار غير مدخلها العميق، الذي ينحدر رأسياً من المغارة المنحوتة في الصخر إلى قاعة التوابيت في جوف المغارة.. وأما المدخل فلا يقل عمقه عن تسعة وثمانين قدما.

وقد وجدوا ثلاثة توابيت فقط في الغرفة التي في نهاية هذا المدخل؛ من بينها أثنان عبث بهما العرب عند اكتشافهم المقبرة.. ومن المحتمل أن هذين التابوتين كانا يضمان رفاة الكاهن الأعظم (أمينمحعت)، وزوجه، وهما أبوا (هارماكيس) بطل هذه الرواية.

امتدت أيدي العرب النابشة إذن إلى رفاة (أمينمحعت) المقدسة.. كما امتدت إلى بقايا زوجه التي جاء ذكرها في الكتب على أنها «المرأة التي تسكنها روح هاتور»؛ ومثلوا بهما ومزقوا أعضاءهما شر ممزق، باحثين عن الكنوز الثمينة بين عظامهما.. ومن ثم باعوا تلك العظام لقاء قروش معدودات أصابوها من أول سائح جاهل التقوا به في طريقهم.

ولكن اتفق بعد ذلك بوقت قصير أن عبر طبيب –يعرفه كاتب هذه القصة– النيل إلى أبيدوس، واتصل بالرجال الذين نبشوا المقبرة، وانتهكوا

حرمة الموتى.. فباحوا له بسر المقبرة، وأنبأوه بأنه لا يزال هناك تابوت لم تمتد إليه أيديهم، ظناً منهم أنه تابوت رجل فقير لا يستحق اهتمامهم.وتحركت في نفس الطبيب غريزة حب الاستطلاع، وتلهف إلى رؤية ذلك القبر الذي لم تطأه أقدام السائحين بعد، فرشى العرب بالمال ليأخذوه إليه وهأنذا أسجل رسالة الطبيب إليّ في هذا الصدد:

«نمت تلم الليلة على مقربة من معبد (سيتي) وقبل أن ينبثق فجر اليوم التالي بدأت رحلتي، وكان يرافقني أعرابي خبيث أحول اسمه «علي»، أطلقت عليه اسم علي بابا – وهو الرجل الذي حصلت منه على الخاتم الذي أرسله إليك رفق رسالتي– ونفر من زملائه الأشداء، وما إن انقضت ساعة على شروق الشمس حتى أشرفنا على الوادي الذي يضم المقبرة، وهو مكان موحش تسلط الشمس عليه حرارتها الملتهبة طول النهار، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يلمس الصخور السمراء الضخمة المبعثرة في جميع الأرجاء، وأما الرمال فكانت تشوي الأقدام شيا.

وكان القيظ قد اشتد بحيث تعذر علينا السير راجلين، فامتطينا ظهور الحمير، ورحنا نضرب في بطن الوادي بين الرمال المحرقة والسماء التي ترسل من لهيبها شواظا دون أن تقع أبصارنا على شيء، اللهم إلا نسراً كان يحلق فوق رءوسنا، حتى بلغنا صخرة هائلة، ملساء السطح، ناعمه..

ووقف «علي» في تلك البقعة، وقال إن المقبرة في أسفل الصخرة؛ فترجلنا، وتقدمنا من الصخرة، حتى إذا بلغناها رأينا فجوة ضيقة لا تكاد

تكفي لزحف رجل واحد، ولا ريب أن هذه الفجوة كانت من صنع أبناء آوي، فقد كان مدخل المغارة وجزء منها مطمورين بالرمال.

وزحف «علي» على بطنه! وحذوت حذوه؛ وما هي إلا برهة حتى ألفيت نفسي في مكان رطب، تكتنفه ظلمة موحشة تلقي الذعر في النفوس، فأشعلنا مصابيحنا، وانتظرنا حتى وافانا أصحاب علي. ثم رحت أنظر حولي. فوجدتني في كهف لا يزيد حجمه عن غرفة كبيرة، نحتت في جوف الصخر وقد زينت جدرانه برسوم ونقوش دينية جميلة ترجع إلى عهد البطالسة؛ من بينها صورة لشيخ يبدو عليه سيماء الوقار، له لحية مرسلة، جالس فوق مقعد مقوس، وممسك بعصا في يده، فلم تساورني الريبة في أن الصورة صورة أمينمحعت نفسه.وأمام هذا الشيخ الوقور سار موكب من الكهنة، وهم يحملون تماثيل مقدسة.

وفي الركن الأيمن من المقبرة كان مدخل القاعة التي وضعت بها التوابيت وهو عبارة عن فجوة مربعة الشكل منحوتة في قلب الصخر.وكنا قد جلبنا معنا غصناً جافاً من شجر السنط، فمددناه فوق فوقة الحفرة، بعد أن ربطنا إليه حبلا متينا.وفي لحظة اختفى «علي» في جوف المقبرة.

وهززت الحبل، وسرعان ما صكت مسامعنا صيحات «علي» الخافتة، فأدركنا أنه بلغ جوف البئر بسلام.

وما هي إلا لحظات حتى ومض شعاع باهت من الضوء، صادراً من جوف البئر.كان علي قد أوقد الشموع التي أخذها معه، ولكنه بتصرفه المفاجيء أزعج مئات الخفافيش التي كانت تشاطر الموتى مثواها الأبدي

وأثارها، إذ لم تلبث أن بدأت تتسرب من الفجوة في سكون وهدوء.

وجذبنا الحبل إلى أعلى، وربطت أحد طرفيه حول وسطي واحتفظ أعواني بالطرف الآخر في أيديهم.. ومن ثم بدأت في الهبوط من الفجوة إلى أعماق تلك البئر السحيقة، ولكني لاقيت عناءاً عظيماً من مداعبات الخفافيش، بيد أنني لم أكترث للألم الذي نالني في غمرة اللهفة التي كانت تستولي على جميع مشاعري حينها.

وأخيراً وجدتني واقفاً بجانب (علي)، في ممر ضيق، وقد تعلقت بي الخفافيش، وتصبب العرق من جسمي غزيراً.. وأصيبت ركبتاي بتسلخ شديد..

وبعد قليل، لحق بنا رجل آخر.. وأما الباقون فإنهم آثروا الانتظار عند فوهة البئر.

وتقدمنا "علي" وحمل كل منا شمعة.وانطلقنا في دهليز طويل يرتفع إلى خمسة أقدام، وما لبث الدهليز أن اتسع أمامنا، حتى بلغنا غرفة التوابيت في النهاية.كانت غرفة مربعة الشكل.. خالية من النقوش والرسوم. أشد وحشة وانقباضا مما مر بي من الغرف والقاعات.

وقلبت الطرف حولي.. فوقع بصري على غطاءي التابوتين، وبقايا رفاة الكاهن العظيم وزوجه اللذين عبثت بهما أيدي العرب من قبل..وقد لاحظت أن النقوش المرسومة فوق الغطائين على غاية من الروعة والدقة، بيد أنني لم أستطع فك طلاسمها لجهلي باللغة الهيروغليفية.وحولت بصري إلى محتويات الصندوقين، فإذا بي أرى رأس رجل منفصل على الجسد، فتناولته؛

وأمعنت النظر إلى وجهه.وكان وجهاً جميلاً ينم عن النبل، وكرم الأصل، وأدركت من منظر الرأس أن شعره أزيل عقب الموت مباشرة..

ولم يغب عني أن الوجه وجه رجل طاعن في السن.. تلوح عليه سماء المهابة والوقار، فسرت في نفسي رعدة شديدة، وزادني ارتياعاً أن رأيت في هذين الكهفين الغائرين ظل نظرة مروعة، ولدت في نفسي الاعتقاد بالخرافات، فأسرعت بإعادة الرأس إلى مكانه، وأشحت عنه بوجهي إلى الصندوق الآخر..كانت بداخله جثة أخرى، وقد لف وجه صاحبها في أربطة وسبائك رقيقة من الذهب، فلم أجرؤ على حلها، فتركتها حيث هي.. وأشار " علي"إلى صندوق كبير، ملقى في زاوية الغرفة ومقلوباً فوق جانبه، ثم قال:

– هذه هي المومياء الأخرى.

فتقدمت من التابوت، وفحصته، فإذا هو مصنوع بدقة من خشب الأرز، ولكنه عار من النقوش والرسوم التي تمثل الآلهة..

وقال (علي):

– لا ريب أنهم دفنوه على عجل، فهو ملقى على جانبه من يا ترى..

أطلت التأمل إلى الصندوق، إلى أن أثار اهتمامي في النهاية.

كنت قد نفرت من رؤية أحداث الموتى ملقاة هكذا دون احترام، عندما وقع بصري على ما حل برفاة الزوجين المبجلين، وأردت ألا أمس التابوت الثالث، ولكن سرعان ما تملكني فضول شديد، فطرحت عني ذلك التردد وأقبلت على العمل بحماسة ولهفة.وكان " علي" قد جلب معه مطرقة خشبية. فأصلح وضع

التابوت، ثم بدأ عمله بتلك الحماسة والغيرة المألوفتين في نابشي القبور.

وقد دهشت حين تبينت أن هذا التابوت يختلف اختلافاً بيناً عن باقي التوابيت، فالمتبع في توابيت الموتى أنها تقفل بوساطة أربعة ألسنة من الخشب، اثنان منها في كل جانب؛ ولكن كان لهذا التابوت ثمانية ألسنة، أربعة في كل جانب. لا ريب أنهم أرادوا بذلك شدة المحافظة على جثة الميت.

وبعد قليل استطعنا أن نرفع الغطاء الثقيل، وكان سمكه نحو ثلاث بوصات وهناك، في جوف التابوت، وقع بصرنا على جثة مكفنة في طبقة من العقاقير المعطرة.

وحدق "علي" في الجثة مشدوها، كانت تختلف في الوضع عن غيرها، فقد جرت العادة أن تمدد الجثث على ظهورها، فإذا ما اكتشفت، تكون قد جفت وتصلبت، كأنها قطعة من الخشب. وأما هذه الجثة فإنها كانت ممددة على أحد الجانبين، والركبتان مثنيتان قليلاً، برغم الأقمشة التي لفت حولهما، والوجه قد غطى بطبقة من الذهب على عادة البطالسة؛ ولكن هذه الطبقة كانت قد تحللت، واستحالت إلى مسحوق تحت رأس الملفوف بالأربطة. وللوهلة الأولى أدركت أن هذه الجثة وضعت قسراً في التابوت قال علي:

– يا لها من مومياء مضحكة! لا ريب أن صاحب الجثة لم يكن قد مات عندما وضعت جثته في التابوت.

فأجبت:

– حديث خرافة! من سمع عن مومياء حية!!

– ورفعنا الجثة من التابوت، ونحن نكاد نختنق من الغبار المتطاير، فعثرنا على لقيتنا الأولى بين عقاقير التحنيط..

كانت حزمة من أوراق البردي، لفت بغير عناية في قطعة من النسيج، وألقيت عند قفل التابوت..

ورمق «علي» الحزمة بعينين يتجلي فيهما الجشع، ولكنني أسرعت والتقطتها قبل أن تمتد إليها يده، ودسستها في جيبي؛ فقد اتفقنا من قبل على أن أستولى على كل ما عسانا نعثر عليه..

وشرعنا في حل أربطة الجثة، وكانت أربطة عريضة متينة، لفت بكثرة حولها، ولكنها ربطت بإهمال وتراخ، مما يدل على أن العمل كله قد تم بسرعة ومشقة عظيمتين.

وكان فوق الجثة مباشرة شيء بارز ضخم ، فلما فككنا كل العصائب الملفوفة حول الرأس، عثرنا على حزمة أخرى من أوراق البردي موضوعة فوق الوجه.

ومددت يدي لألتقط الحزمة ولكني وجدتها ملتصقة به، فقد كانت الجثة كلها موضوعة في شبه كيس من الشمع، فانحنيت فوقها وتأملتها ملياً، وعندئذ أيقنت أن هذا الكيس ما هو إلا مواد التحنيط وقد استحالت إلى مادة أشبه بالغراء، وإنني لو انتزعت الحزمة قسراً لتمزقت الأوراق الخارجية. مع ذلك جازفت، وانتزعتها من مكانها، وضممتها إلى الحزمة الأولى في جيبي.

وأستأنفنا عملنا البغيض، بهدوء وسكون، فنزعنا شبه الكيس بعناية وحذر، وحينئذ برزت جثة رجل من جوفه.

وبين ركبتي الجثة عثرت على حزمة ثالثة من أوراق البردي، فأخذتها ووضعتها بدورها في جيبي، وأدنيت الشمعة من وجه الميت، وأمعنت النظر فيه، وعندئذ تجلى لي كيف مات هذا الرجل؟

لم يكن الجسم قد جف تماما، لأنه لم يوضع في النطرون مدة السبعين يوما المقررة للتحنيط، ولذا كانت قسمات الوجه واضحة بجلاء، وحسبي أن أقول إن النظرة التي كانت على وجه هذا التعس جعلتنا جميعاً نتراجع إلى الخلف مذعورين.

ولم يقع بصري على فتحة في الجنب الأيسر، وهي الفتحة التي يحدثها المحنطون، ليدخلوا عقاقير التحنيط من خلالها إلى جوف الجثة..

ومن النظرة الأولى إلى وجه الرجل عرفت أنه في منتصف العمر، رغم الشعيرات البيضاء التي توجد في رأسه.وكان الرجل متين البنيان، عريض المنكبين؛ ولكنني لم أجد من وقتي متسعا لفحص أعضائه جميعا فحصا دقيقا، فإنه لم تمض دقائق على فتح التابوت حتى أخذت الجثة غير المحنطة تتحلل بتأثير الهواء.

وبعد ست دقائق كانت قد تحللت تماما؛ ولم يبق منها غير خصلة من الشعر، والجمجمة، وكومة من عظام الهيكل الطويلة. وقد لاحظت أن عظمة إحدى الساقين مهشمة، ولكنها جبرت بغير إتقان، إذ كانت أقصر من أختها ببوصة.

وانتهى عملنا عند هذا الحد، والآن وقد زايلني الاضطراب، فقد أحسست أنني على قيد أنملة من الموت، بسبب ما عانيته من حرارة المكان المرتفعة، وما بذلته من مجهود جبار، والهواء الفاسد الذي استنشقته في هذه الغرفة المقفلة.

لقد سئمت الكتابة، فإن السفينة لا تستقر على سطح الماء، ولا تفتأ تهتز وتتمائل، ولا ريب أن رسالتي هذه ستصلك قبل أن أبلغ لندن بعشرة أيام على الأقل، وشد ما أتلهف على أن أنهي إليك ما لاقيته من متاعب وأهوال أثناء تلك الرحلة الطريفة، وحسبي أن أقول أن (علي بابا) وزملاءه الأشرار حاولوا بالإرهاب والتهديد أن أعطيهم أوراق البردي، ولكنني رفضت وانتصرت عليهم في النهاية..

سوف نفك الرموز والطلاسم المسجلة في اللفائف، وأكبر ظني أنها لا تحتوي على شيء غير عادي، بل لا تعدو أن تكون نسخة من «كتاب الموتى»، ولكن من المحتمل أن نعثر على شيء آخر خلال سطورها، والآن إلى اللقاء يا صديقي.

وصل صديقي إلى لندن في الموعد المحدد..

وفي اليوم التالي، زرنا عالما أخصائيا في اللغة الهيروغليفية، والديموطيقية وأطلعناه على اللفائف. ورحنا نرقبه في لهفه واهتمام، وهو يقلب أوراق البردي بين يديه، ويطيل النظر إلى رسومها من خلال عويناته الذهبية.

وأخيراً هتف:

– آه!! ليست هذه الأوراق نسخة من كتاب «أسرار الموتى» على كل حال! يا إلهي!! ما هذا؟! كلـ.. كليو.. كليوباترا.. نعم يا سيدي العزيزين. هي قصة رجل عاش في عصر كليوباترا.. ولا ريب.. فإني أرى اسم أنطونيوس بجانب اسمها؟! حسناً إن أمامي عملاً سيشغلني مدة ستة أشهر على الأقل؟!

وفي غمرة الفرح راح الرجل يثب فوق أرض الغرفة، ويصافحنا بين الحين والحين..

ثم استطرد:

– لابد لي من ترجمتها، وسننشرها على الملأ، وبحق أوزوريس الحي إنها ستطيش صواب كل مشتغل بالعلوم المصرية القديمة في أوربا من الحسد؟! يا لها من لقية!! ما أعظمها من كنز نفيس!!

والآن وقد ترجمت هذه الأوراق الهامة، وطبعت.. فعليكم بها اقرأوها، ها هي مبسوطة أمامكم، كأرض عذراء مجهولة، فامشوا في مناكبها، وجوسوا خلالها، بملء حريتكم ورغبتكم.

هو ذا هارما كيس يخاطبكم من قبره المنسي، وقد سقطت الحواجز الزمنية التي تفصلكم عنه، إنه يرسم أمام أعينكم صورة من الماضي السحيق ويميط عنها اللثام، واضحة لا مواربة فيها ولا خفاء.

إنه يريكم مصر في عهدين مختلفين، والأهرامات الصامتة تطل عليها منذ أجيال طويلة خلت، مصر في العصر اليوناني، والروماني، والبطليموسي، ثم مصر المنهوكة القوى في عهد الكهنة، وقد أرهقت المتاعب كاهلها، مصر التي تندب مجداً قديماً ضاع على مرور الزمن.

سيحدثكم كيف اشتعلت جذوة الولاء الدفين في أرض مصر قبل إخمادها، وكيف نافحت تلك العقيدة القديمة سيل التغيير العرم الذي فاض عليها، وأغرق آلهتها.

هنا.. في هذه الصفحات، ستعرفون مجد (إيزيس)، ذات الهيئات المتعددة، ومنفذة الأوامر، هنا ستقفون على ظل كليوباترا (الشعلة المتقدة) التي قرر جمالها الفتان، وسحرها الذي يسبي العقول وينفذ إلى الأفئدة، مصير أمبراطوريات، هنا ستقرأون كيف قتلت (شارميون) بسيف انتقامها؟

وهنا يحييكم هارماكيس المصري وهو على أبواب الأبدية، يحييكم يا من ستتبعون خطواته في الطريق الذي انتهى إلى مصرعه، وسيريكم في قصة حياته المؤسفة ما قد يكون قصة حياتكم أيضاً، وسيهتف من أعماق (مطهر الأرواح) المظلم حيث يقضي أيام توبته الطويلة، ويحدثكم بتاريخ سقوطه وانحداره، وخاتمة الرجل الذي ينسى ربه، وشرفه، ووطنه مهما كانت قسوة التجارب التي عاناها وتقلب عليها.

القسم الأول

الفصل الأول

نبوءة هاتور

أقسم بأرزوريس القائم في أبزثيس أنني لا أقول غير الحق، ولا شيء غير الحق.

أنا هارما كيس كاهن المعبد بالوراثة، ربيب سيتي المقدس، أحد فراعنة مصر الأقدمين، والقائم الآن في أحضان أوزوريس، والحاكم في أمنتي (مطهر الأرواح).

أنا هارما كيس! المقدس بالحق، صاحب التاج المزدوج بحق الدم الموروث وفرعون مصر العليا والسفلى؛ أنا هارما كيس، الذي ألقيت عني زهرة أملنا المتفتحة، وتنكبت طريق المجد، وتجاهلت صوت الآله، وأنصت إلى صوت امرأة.. أنا هارما كيس، الساقط الذي اجتمعت فيه كل النقائص والرذائل، كما تتجمع المياه في بئر في الصحراء، أنا الذي خنت بلادي.. وبتفريطي في السيادة الحاضرة فقدت السيادة الأبدية، فأهلكت نفسي، وأضعتها؛ أسجل الحقيقة بحق ذلك النائم في أبوثيس.

وإذ أسجل هذه السطور وراء الحقول الخصبة يخيل إلي أن النيل يجري دما أحمر، وأرى أمامي نور الشمس وقد سقط على التلال البعيدة، وعلى جدران معبد أبوثيس.

ما زال الكهنة يعملون داخل المعبد الذي لفظني، وما زالت القرابين تقدم للآلهة المقدسة، وجدران المعبد تردد صدى صلوات الشعب وأما أنا –رمز الخزي والعار– فأراقب من زنزانتي الموحشة داخل سجني، أعلامك

الخفاقة يا أوزوريس وهي ترفرف فوق جدران أبراجك العالية، وأسمع ترانيم المصلين، وموكبهم ينتقل من هيكل إلى هيكل.

يا أبوثيس، أبوثيس الضائعة! إن قلبي يتمزق حسرة من أجلك، سيأتي يوم تطمر فيه رمال الصحراء أماكنك السرية، لقد كُتب الدمار على آلهتك، يا أبوثيس، وستسخر أديان جديدة من كل ما هو مقدس فيك، وينتهك قواد الرومان حرمتك. وينادي أحدهم الآخر من وراء جدران حصونك، إنني أبكي، أبكي دموعاً من الدمن فإن خطيئتي هي التي جلبت كل هذه الشرور، وأنا وحدي الذي تقع عليّ تبعة كل عار ومذلة.

انظروا.. هأنذا أسجل قصتي.

ولدت أنا هارما كيس في أبوثيس، وكان أبي الراقد الآن في أحضان أوزوريس، الكاهن الأعظم لمعبد سيتي، ويوم ولدت ولدت كليوباترا ملكة مصر.

وقد مضيت أيام حداثتي في الحقول، أراقب أفراد الطبقة الدنيا وهم يؤدون أعمالهم، وأرتع وألعب بين كل بهو في المعابد العظيمة بملء حريتي، وكما يروقني؛ وأما أمي فلا أعلم عنها شيئا، فقد ماتت وأنا لا أزال أحبو على أربع، ولكنني سمعت من العجوز (اتوا) أن أمي قبيل موتها في عهد أولتيس الزمار، أحد ملوك البطالسة، تناولت ثعباناً من الذهب، وهو رمز الملكية في مصر، وكانت قد أخرجته من صندوق العاج، ووضعته فوق جبيني، وأما الذين رأوها وهي تفعل ذلك فقد أعتقدوا أن الآلهة سكنت قلبها، وخلبت لبها، فتنبأت في جنونها باليوم الذي سيزول فيه حكم المقدونيين ويعود فيه صولجان مصر إلى الأسرة الملكية الحقيقية.

ولكن عندما جاء أبي أمينمحعت الكاهن الأعظم، ورأى ما فعلت بي أمي، وهي تجود بأنفاسها الأخيرة، رفع يديه إلى السماء، وقدم فروض الطاعة للقوة غير المنظورة، شاكراً لها العلامة التي أرسلتها..

وفيما كان يبتهل إلى الآلهة، حلت روح النبوة في أمي في اللحظة الأخيرة فنهضت من فراشها وقد زايلها المرض، وخرت ساجدة ثلاثة أيام أمام المهد الذي كنت نائما فيه. والتاج الذهبي لا يزال يحلي جبيني.

ثم هتفت قائلة:

– السلام عليك يا ثمرة الأحشاء!! السلام لك أيها الطفل الملكي!! السلام لك يا من سيكون فرعون مصر!! السلام لك أيها الإله الذي سيطهر البلاد، يا سليل «نخت– نف» سليلة إيزيس.. كن دائماً طاهراً، وستحكم مصر، وتخلصها من العبودية، وتصبح راسخاً كالطود، لكن إذا استضعفت في ساعة التجربة فستحل عليك لعنة جميع آلهة مصر، ونقمة أجدادك الذين اعتلوا عرش مصر قبل عهد هوروس، وليكن الشقاء والبؤس نصيبك، ولينبذك أوزوريس بعد الموت، وتصدر قضاة (أمنتي) حكمها ضدك، وتنكل بك (ست وسخت) حتى يأتي اليوم الذي تطهر فيه من خطيئتك، ويعود الناس مرة أخرة إلى عبادة الآلهة في هياكل مصر، وتنكسر شوكة الباغي الظالم، وتظهر البلاد من حكم الأجنبي ويعود إليها الصفاء الذي كدرته في ساعة من ساعات ضعفك.

وإذ فرغت أمي من حديثها، زايلتها روح النبوة، وسقطت ميتة فوق مهدي، فاستيقظت صارخا.

وانتفض أبي أمينمحعت الكاهن الأعظم، وأستولى عليه خوف عظيم من جراء الكلمات التي نطقت بها روح هاثور على لسان أمي، تلك الكلمات التي تتضمن خيانة بطليموس..

وكان أبي يعلم أنه إذا بلغت هذه النبوءة مسامع الملك، فإنه ولا ريب سيبعث حراسه لقتل الطفل الذي قيلت عنه، فأغلق الأبواب، وأرغم جميع الذين سمعوا النبوءة على أن يقسموا بالرمز المقدس، وبالثالوث المقدس، ألا ينطقوا بكلمة مما سمعوا، أو يفضوا بشيء مما رأوا..

وكانت (اتوّا) العجوز بين الحاضرين، وهي مربية أمي، وكانت تحبها حباً جماً.. ولكن القسم لم يكن ليربط لسان المرأة في تلك الأيام، فسرعان ما أفشت سر النبوءة إلى ابنتها، وكانت مرضعتي عندها.

وعقبت (اتوّا) على ذكر النبوءة بقولها أن مثل هذا الطفل جدير بالإهتمام وحثت ابنتها على احترامي، بوصفي فرعون مصر المقبل، الذي سيطرد البطالسة.

وأُخذت الإبنة بهذا النبأ، ولم تستطع أن تكتمه عن زوجها الذي باح به لأحد أصدقائه من جواسيس بطليموس، وهذا أبلغه بدوره إلى الملك.

وقد أقام هذا النبأ فرعون وأقعده، وقض مضجعه.. ومع أنه كان يهزأ بآلهة المصريين كلما لعبت الخمر برأسه، ويقسم أنه لا يجثو لأي إله مهما كان شأنه، غير مجلس شيوخ روما، فإنه كان يشعر بذعر عظيم، كما علمت فيما بعد من أحد أطبائه، كلما انفرد بنفسه في الليل، ويصيح مناديا الأله العظيم (سيرابيس)، وغيره من الآلهة خشية أن يقتل وتسلم روحه إلى الجلادين..

أقول ما إن سمع بطليموس بالنبوءة، وعرف مصدرها، حتى اضطرب ظهراً لبطن، واستدعى نفرا من حراسه الأمناء، وأرسلهم في زورق إلى أعالي النيل؛ بعد أن أمرهم بالذهاب إلى أبوثيس، وقتل ابن أمينمحعت الكاهن الأعظم، على أن يأتوه بالرأس في سلة.

ولكن حدث أن كان زورق الحراس عميقا، ومياه النيل قليلة الغور فالتصق بقاع النهر، وغاص في الطين؛ فاستنجد الحراس ببعض الفلاحين ولكن الفلاحين أعرضوا عنهم ونأوا بجانبهم، عندما رأوا أنهم من يوناني الأسكندرية.

وصاح الحراس فيهم يستحثوهم، وزعموا أنهم موفدون من قبل فرعون لإتمام مهمة عاجلة، فلم يصدقهم الفلاحون، وعندئذ كاشفهم أحد الحراس، وكان جباناً رعديداً، بطبيعة المهمة، فذعر الفلاحون وأجابوهم إلى طلبهم.

وكان من بين هؤلاء الفلاحين رجل له صلة قربى بأمي، فما أن سمع هذه الأنباء المزعجة، حتى أطلق ساقيه للريح، ولم يكف عن الركض حتى بلغ المكان الذي كنت نائما فيه، وكان واقعا خارج السور الشمالي للهيكل العظيم.

واتفق أن كان أبي غائباً وقتئذ في المقابر التي إلى يسار الحصن، وكان حراس فرعون يسرعون في سيرهم، فأخبر الفلاح (اتوّا) بكل شيء وأنبأها أن الجنود قادمون لقتلي.

وسقط في يد الاثنين، ولم يدريا ما يفعلان، فلو أنهما حاولا إخفائي لما أنقذني ذلك من أيدي الحراس، فهم لا ريب سيبحثون عني في كل مكان حتى يعثروا عليّ.

ولاحت من الفلاح التفاتة إلى الباب، فرأى طفلا يلعب.. فصاح:

– طفل من هذا أيتها المرأة؟

– إنه حفيدي.. أخو الأمير هارما كيس في الرضاعة.. وهو ابن المرأة التي جرت علينا هذا البلاء.

فأشار الرجل إلى الطفل مرة أخرى.. وهتف:

– أيتها المرأة.. إنك تعرفين واجبك في هذه اللحظة الرهيبة فأناشدك بحق الاسم المقدس أن تقومي به!؟

فر لون المرأة، وجمدت في مكانها لا تتحرك.

ولكنها أقدمت على التضحية العظيمة، فأخذت الطفل، وغسلته! وألبسته ثوبا حريريا، ثم مددته في مهدي، أما أنا فإنها أخذتني ولوثت وجهي بالأوحال.. ونزعت جلبابي، وتركتني ألعب في الطين في فناء الهيكل وانطلق الفلاح لشأنه..

وبعد قليل أقبل جنود فرعون، فقدمت لهم العجوز (اتوّا) لبناً وعسلاً ثم سألتهم عما يريدون.

وإذا سألها أحد الحراس عما إذا كان الطفل النائم في المهد هو ابن أمينمحعت الكاهن الأعظم، راحت المرأة تسرد عليهم النبوءة بحذافيرها. وضحك الحراس ساخرين، وتقدم أحدهم من الطفل، وذبحه ذبح الشاة، ثم أخرج الحارس خاتم فرعون، وأراه العجوز، وأمرها ساخراً أن تنبيء الكاهن الأعظم بأن ابنه سيكون ملكاً بلا رأس!

وعند رحيلهم رآني أحدهم وأنا ألعب في الأوحال.. فهتف:

– هو ذا طفل آخر غير الأمير هارماكيس.

وبدا التردد على الحراس، وأخذوا يتشاورون في قتلي، ولكنهم انصرفوا في النهاية، وهم يحملون رأس أخي في الرضاعة.

وبعد وقت قصير، عادت أم الطفل المقتول من السوق، فلما رأت وزوجها ما حل بابنهما، خطر لهما أن يقتلا العجوز (أتوّا) ويسلماني لجنود فرعون، ولكن حدث أن جاء أبي في تلك الأثناء، وأطلع على الحقيقة فأمر باعتقال المرأة وزوجها في مكان مظلم من الهيكل، فلم يرهما أحد بعد ذلك.

وأشيع فيما بعد أن أمينمحعت الكاهن الأعظم تبناني بدلا من ابنه هارماكيس الذي قتله جنود فرعون.

الفصل الثاني

عصيان هارما كيس

لم يزعجنا بطليموس (الزمار) بعد ذلك، ولم يعد الكرة فيبعث بجنوده إلى أبوثيس للبحث عن الطفل الذي تنبأت زوجة أمينمجعت بأنه سيكون فرعون مصر، وطبيعي ألا يحاول ذلك بعد أن أتاه جنوده برأس الطفل –أخي في الرضاعة– وهو جالس في قصره، المصنوع من المرمر في الأسكندرية.

كان في هذه اللحظة ينفخ في مزماره، في جمع من نسائه، وقد انتفخت أوداجه بفعل خمر قبرص، فلما وقع بصره على رأس الطفل البريء، أمر جنديه أن يرفعه من شعره، ثم ضحك باشمئزاز، وخلع حذاءه، ولطم الطفل على وجهه، وأمر إحدى جواريه أن تتوجه فرعونا بأكليل من الورد، وركع أمامه وأخذ يسخر منه.

وكانت الجارية سليطة اللسان، فقالت لفرعون أنه أصاب بالسجود، لأن الطفل المقتول هو أحد الفراعنة، بل أعظمهم جميعا، واسمه (أوزوريس)، وعرشه (الموت). فانتفض بطليموس، وأمر بقتل الجارية، لتذهب إلى فرعونها الذي سمته، وتعبده.

وصرف الجاريات الأخريات. وكف عن النفخ في المزمار، وأقبل على الخمر يلتمس فيها النسيان.

ومضت أعوام، وتتابعت سنوات وأخذ أبي، والمعلمون، يلقنونني العلوم القديمة، والدراسات الدينية المتعلقة بالآله، حتى دخلت في طور الغلمان.

كنت جميل الطلعة، ذو شعر أسود، وعينين زرقاوين مثل زهرة اللوتس، أبيض البشرة كالمرمر، وقد زالت هذه المحاسن الآن، ولذا فأنا أذكرها دون خجل. وقد شببت عريض المنكبين، مفتول الساعدين، يهابني من يراني في أبوثيس، ولا يجرؤ أحدهم على منازلتي، بل لا أحسبني مبالغاً إذا قلت أنني كنت أفوقهم جميعاً في قذف المقلاع والرمح، وقد أغرمت باقتناص الأسود ولكن أبي نهاني عن ذلك خشية أن تتعرض حياتي الثمينة للخطر، فإذا ما استوضحته معنى قوله، عبس وقال أن الآلهة ستكشف لي عن الحقيقة في حينها..

وكان في أبوثيس شاب قتل مع آخرين أسداً انقض على قطيع أبيه، وكان هذا الشاب يحسدني لقوتي وجمال طلعتي، فراح يذيع عني أنني جبان، لا أصطاد غير الغزلان، وأبناء آوى.

واتفق أن كنت منصرفاً من حضرة أبي الكاهن الأعظم ذات يوم، فالتقيت بهذا الشاب. استوقفني وسخر مني، ثم قال إن الناس يتحدثون عن وجود أسد بين الأدغال والأحراش على ضفتي الترعة التي تمر بالهيكل على بعد ثلاثين فرسخا من أبوثيس، وسألني ساخراً أن أرافقه إن كنت على شيء من الشجاعة والإقدام، وأساعده على قتل الأسد؛ اللهم إلا أن آثرت أن أجلس بين النسوة ليمشطن شعري.

ثارت ثائرتي وكدت أنقض على الشاب، ولكني تمهلت، وقلت متحدياً:

– هلم معي بمفردك لنبحث عن الأسد، وعندئذ سنرى أينا أشد جبناً وأضعف قلباً.

فبدا عليه التردد، فقد جرت العادة أن يخرج الشبان جماعات لصيد الأسود، ورحت أسخر منه بدوري.وكأنما كبر عليه أن أعيره بجبنه وضعفه، إذ سرعان ما انطلق إلى منزله ثم عاد يحمل قوسه وسهامه، وسكيناً حاداً، وأما أنا فقد تقلدت رمحي الثقيل وكانت قصبته من خشب السنط، وفي طرفه رمانة من الفضة تحول دون إفلاته من اليد.وانطلقنا صامتين إلى عرين الأسد.

ووصلنا إلى غايتنا عند غروب الشمس، ورأينا آثار أقدام الأسد مطبوعة على الطين فوق الضفة، وكانت الآثار تتجه إلى الغاب، فقلت لرفيقي:

– هل تجد من نفسك الجرأة على أن تتقدمني أيها المتكبر، أم أفعل أنا؟

فتردد، وحينئذ هممت بالسير أمامه، فقال معترضاً:

– لا.. لا.. لا تكن مجنونا وإلا فتك بك، أنظر! سأطلق سهمي ليستيقظ إن كان نائماً.

وأطلق السهم.

لست أدري كيف أصاب الهدف. ولكن اتفق أن كان الأسد نائماً..

وحين أحس بالسهم ينغرس في لحمه، وثب من مكمنه! وانبثق من الغاب كما ينبثق البرق من جوف السحاب، واجهنا مكشراً عن أنيابه، والسهم يهتز في خاصرته. وزأر زئيراً مخيفاً، شعرنا على أثره كأن الأرض زلزلت من تحتنا، فصحت:

– سدد إليه سهما آخر قبل أن يفتك بنا.

ولكن الذعر كان قد شل حركة رفيقي، وخانته أعصابه، وسقط القوس

من يده. ولم يلبث أن صرخ صرخة داوية، وتراجع خطوة محاولاً أن يتوارى خلفي من الوحش الكاسر وتركني وحدي أمامه وجهاً لوجه. أدركت أنني هالك لا محالة، ولكنني لم أفكر في الهروب لعلمي بأن مثل هذه المحاولة مقضي عليها بالفشل.

وفي اللحظة التالية، وثب الأسد من فوق رأسي، دون أن يمسسني بسوء ثم انقض على رفيقي، ولطمه بمخلبه لطمة هشمت جمجمته.وسقط الشاب صريعا على الفور. ووقف الأسد مصعراً خده، وهو يختال فوق فريسته، ثم دوى زئيره يصم الآذان، فأيقنت أن لحظتي قد اقتربت، وأنني إن لم أبادر بعمل سريع، فسألاقي حتماً مصير رفيقي.وقبضت على الرمح بكل قوتي، وصرخت في وجه عدوي الشديد المراس ثم هجمت عليه.

وتحفز الأسد، ونهض على قائمتيه الخلفيتين، واستعد لملاقاتي.ولكنني عاجلته بطعنة نافذة قاتلة، ودفنت الرمح في حلقه، فأن أنيناً موجعاً، ووثب في الهواء على ارتفاع قامتين، وجعل يناضل بمخلبيه الأماميين ليتخلص من الرمح..

وأخيراً وهنت قواه لكثرة ما نزف من دمائه، ثم خار خوار الثور، وسقط جثة هامدة.وتنفست الصعداء ولكنني كنت أنتفض فزعا، بعد أن زالت أسباب الفزع.

وفجأة برزت (اتوّا) من بين الأشجار.

كانت قد انطلقت إلى شاطيء الترعة لتجمع بعض الأعشاب الطبية، فبلغ مسامعها صوت صراعي الرهيب، فجاءت تستطلع حقيقة الأمر.ولما

تحققت المرأة من أنني هارما كيس جثت أمامي، وحيتني، وراحت تحدثني وهي تطلق علي لقب (ملك)!

نعم نادتني باسم فرعون! منقذ مصر!

ولكني اعتقدت أن الرعب هو الذي أطلق لسانها بهذا الكلام، وقلت:

– وهل قتلي أسداً يعتبر عملا عظيما يستحق كل هذا الأطراء والتضخيم؟ في العالم كثيرون قتلوا أسوداً لا أسداً واحداً، ألم يقتل (أمنحتب) المقدس أكثر من مائة أسد؟ ألم يفعل غيره مثلما فعل وفعلت؟ لماذا تنطقين إذن بهذه الأسماء أيتها المرأة الحمقاء؟

كنت أبغي التظاهر بالاستخفاف بمثل العمل الذي أتممت، ولكن المرأة لم تكف عن تقديم فروض الولاء والتكريم، وجعلت تنادي بألقاب أرفع من أن تسجل.

وهتفت:

– يا سليل الملوك، لقد تنبأت أمك عن حكمة، ولا ريب أن الروح المقدس (نبث) كان يسكنها، أنظر إلى هذا الفأل الحسن يا مبعوث الآلهة! هذا الأسد المضرج بدمه، أنه يزأر بين جدران الكابيتول في روما، وهذا الرجل المقتول، إنه بطليموس، نسل الملاعين الذين اغتصبوا وادي النيل، ستذهب مع أهل لاحدوس المقدونيين لقتل الأسد الروماني، وسيولي الجبناء منهم فراراً، ويقتلهم الأسد الروماني، وأما أنت؟ الأسد وستحرر أرض خم (مصر) مرة أخرى، وتعيد إليها حريتها! نعم حريتها! فكن لطهارة نفسك حافظاً، وعلى نقائها حارساً، فهذا ما تطالبك به الآلهة يا سليل الملوك وأمل مصر، حذار من المرأة، فإنها أس البلايا، ومصدر الرزايا.

إنني إمرأة فقيرة شقية، صرعها الحزن والألم، وقد اقترفت جرماً عظيماً بإفشائي ما كان يجب أن يبقى طي الكتمان، ولكني وفيت الثمن، قطعة من ذات نفسي، وفديتك راضية مغتبطة، بيد أنني لا أزال أتمتع بحكمة قومي؛ لم تتخل الآلهة بعد، والجميع عندها سواسية، ولا تفضل الغني عن الفقير، فقد حدثتني الأم المقدسة (إيزيس) ليلة أمس، وأمرتني أن أجمع الأعشاب الطبية، وأشرح لك العلامات التي أراها، وهأنذا أكرر أن ما ذكرته لك سيحدث، فقط لو استطعت أن تحتمل وطأة التجربة الشديدة، اقترب مني يا سليل الملوك!

وقادتني إلى حافة الترعة، وكانت المياه عميقة رقراقة.

ثم قالت:

– أنظر إلى وجهك منعكساً على صفحة الماء، أليس هذا الجبين جديراً بلبس التاج المزدوج؟ ألا تتجلى في هاتين العينين الصافيتين عظمة الملوك؟ ألم يكوّن الخالق (بتاح) جسمك هذا ليلائم لباس الملوك.

واستحال صوتها حاداً رناناً.. واستطردت:

– لا .. لا.. لا تكن أحمق أيها الغلام، إن الخدش الذي أصابك من صراعك مع الأسد سام يا بني، أنه شيء مخيف، كلدغة الأفعى، ينبغي ألا يهمل وألا تقيح، ولكني أحطت بدواء التقيح فما فقدت عقلي عبثا، ودون مقابل فإن لكل شيء مقابله؛ ففي الجنون حكمة عظيمة، وفي الحكمة جنون عظيم! انظر! إن فرعون نفسه لا يستطيع أن يقول أين يبدأ أحدهما وينتهي الآخر، لا تحملق هكذا، دعني ألصق هذه الأعشاب فوق الجرح، لن تمضي ستة أيام حتى تبرأ منه تماماً.

وبحق النائم في فيلبي أو في أبوثيس أو في أبيدوس –كما يعتقد رؤساؤنا المبجلون الآن– أو في مكان آخر، أقول بحق أوزوريس ستبرأ من كل سقم وستكون طاهراً مثل قربان مقدم إلى (إيزيس) إذا تركتني أضع الأعشاب فوق الجرح.

وكان بعض الناس قد ألتفوا حولنا، والمرأة تبشرني بنبوءتها، فتحولت إليهم (اتوّا)، وقالت:

– لا شيء أيها السادة، كنت ألقي عليه تعويذة لأمهد السبيل لدوائي، انظروا! لا شيء هناك كالرقية، فإن لم تكونوا من المؤمنين بتأثيرها، فأتوني بزوجاتكم المصابات بالعقم، اجعلهن يلدن كما لو كن في الحادية والعشرين.. ذلك خير لهن من الإلتصاق بأعمدة هيكل أوزوريس.

وإذ سمعت أنا هارما كيس، كلمات العجوز، وضعت يدي فوق رأسي، كأني أرى رؤيا، ولكني لم ألبث رأيت رجلا أشيب بين المتمجهرين يراقبنا باهتمام، وقد علمت فيما بعد أنه من جواسيس بطليموس، بل لقد كان هو نفس الرجل الذي أفضى إلى بطليموس بسر النبوءة، وكاد يتسبب في قتلي وأنا في المهد.

وهنا أدركت سر تظاهر (اتوّا) بالجنون.

قال الجاسوس:

– إن رقيتك هذه عجيبة أيتها المرأة العجوز، إنك تكلمت عن فرعون والتاج المزدوج، وعن شخص كونه الخالق (بتاح)، أليس كذلك؟

– فأجابت المرأة:

– نعم.. نعم، هذا جزء من الرقية أيها الأحمق، أي شيء أحق بالقسم في هذه الأيام من فرعون السامي (الزمار)، أدعو الآلهة أن تحفظه، وتحفظ مزماره ليملأ هذه البلاد السعيدة بهجة وحبوراً، وأي شيء أعظم من التاج المزدوج الذي لبسه الاسكندر المقدوني؟ وبهذه المناسبة، أسألك يا سيدي هل استعادوا عباءته التي أخذها مترياديتس إلى قوص؟ ألم يكن بومبيوس آخر من ارتداها؟ تصور أن بومبيوس يرتدي عباءة الإسكندر كجرو في جلد أسد! وبمناسبة التحدث عن الأسود.. انظروا ما فعله هذا الغلام، إنه قتل أسداً برمحه، وانظروا إلى هذه الجثة، جثة الصبي الميت، لقد فتك به الأسد، واحسرتاه! إنه الآن راقد في أحضان أوزوريس، لقد كان منذ ساعة حياً يرزق مثلي ومثلكم! هلموا واحملوا إلى المحنطين، انظروا لقد أطلت في الحديث، والليل يغشى الكون، هلموا! ألا تحملون هذه الجثة، وجثة الأسد أيضاً؟ وأما أنت يا بني فضع هذه الأعشاب فوق الجرح حتى يندمل، ولا تشعر بشيء من الألم، أنني أعلم أمراً أو أثنين برغم جنوني، فأنت حفيدي! يا عزيزي، يا عزيزي، يسرني أن تبناك الكاهن الأعظم المقدس، عندما قضى فرعون –الذي أدعو أوزوريس أن يبجل اسمه– على ابنه، إنك جميل المحيا، ولا ريب عندي في أنه لو عاش هارماكيس لما استطاع أن يقتل أسداً كهذا.

فقال الجاسوس متذمراً، وقد انطلت عليه الحيلة:

– إنك تعلمين أشياء كثيرة، وتتحدثين بسرعة عظيمة، هو شاب باسل على كل حال، أصغوا إلي أيها الرجال، أحملوا هذه الجثة إلى ألوتيس، وليبق بعضكم ليعاونني في سلخ جلد الأسد.

واستطرد يحدثني:

– سنرسل إليك الجلد أيها الشاب، لا لأنك تستحقه، فإنه من الحماقة مهاجمة أسد ضار مثل هذا، والأحمق ينال جزاء حمقه، فحذار أن تهاجم قوياً ما لم تكن أقوى منه.

فعدت إلى المنزل، وقد أخذ مني العجب كل مأخذ.

الفصل الثالث

علامة الآلهة

لقد عانيت بعض الألم من الأعشاب التي وضعتها العجوز (اتوّا) فوق جرحي.. ولكن لم يلبث الألم أن زايلني بعد قليل، ولعمري كانت هذه الأعشاب سريعة المفعول قوية الأثر.. فما انقضى يومان حتى التأم الجرح، ولم يبق له أثر بعد بضعة أيام.

بيد أنني تذكرت أنني عصيت أمر الكاهن الأعظم أمينمحعت الذي كانوا يسمونه أبي، فقد كنت أجهل حتى ذاك اليوم أنه أبي في الجسد، إذ علموني أن ابنه قتل. وأنه تبناني حسب إرادة الآلهة، وأنشأني لكي أشغل مركزاً في الهيكل في الوقت المناسب، ولهذا خفت الرجل وكانت تروعني نوبات غضبه، ثم إنه كان لا ينطق إلا بالحكمة.

ومهما يكن كم أمر، فقد عولت على الذهاب، والإعتراف إليه بخطيئتي، واحتمال أية عقوبة يفرضها علي.

واجتزت الفناء الخارجي للمعبد، وأنا أحمل الرمح في يدي، والدماء تنزف من جرح صدري، إلى أن بلغت باب الغرفة التي يقطنها الكاهن الأعظم، وهي غرفة كبيرة أقيمت على جوانبها تماثيل الآلهة العظيمة، ويتسرب إليها نور الشمس من كوة في سقفها السميك، في حين كانت تضاء أثناء الليل بمصباح من البرونز يتدلى من السقف.

ونفذت إلى الغرفة بهدوء تام من بابها المفتوح، واجتزت الستائر الكثيفة،

ووقفت داخل الغرفة بقلب واجف.وكان المصباح موقداً، ورأيت على ضوئه الشيخ جالساً فوق مقعد من العاج والأبنوس، وأمامه منضده من الصخر، نثرت فوقة أوراق مكتوبة بكلمات غريبة عن «الحياة والموت»، ولكنه لم يكن يقرأ، فقد استسلم للنوم، وكانت لحيته البيضاء الطويلة تتدلى فوق المنضدة فأكسبته هيئة رجل فارقته الحياة.

وكان المصباح يرسل ضوءه الباهت على الشيخ، وأوراق البردي التي أمامه، وانعكس على الخاتم الذهبي الذي يزين أصبعه، والذي نقش عليه رمز «ذلك غير المرئي»، وفيما عدا ذلك كان الظلام يسود الغرفة.

كان الشيخ حليق الرأس، يرتدي ثيابا بيضاء، وإلى جانبه عصا الكهنوت المصنوعة من خشب الأرز، وقد بدت على جبينه دلائل القوة الجسمانية، وتجسمت المهابة والوقار في تقاطيع وجهه النبيل، وحاجبيه الأشيبين، وعينيه الغائرتين.

نظرت إليه وانتفضت، فقد كان يتمتع بما هو أكثر من المهابة المألوفة في البعض من الناس، ولا عجب، فإنه عاش أعواماً طوالاً مع الآلهة حتى تشبع بأفكارها المقدسة، وتضلع في أسرارها التي لا نكاد نفقه منها شيئاً.وفيما كنت أنعم النظر إلى وجهه، فتح الشيخ عينيه السوداوين، وبرغم أنه لم ينظر إلى ناحيتي، فإنه رآني وخاطبني بقوله:

– لماذا عصيت أمري يا بني؟ وكيف ذهبت لملاقاة الأسد بعد أن نهيتك عن مثل ذلك؟

– كيف علمت بذهابي يا أبي؟

– وكيف علمت؟! أليست هناك وسيلة للمعرفة غير الحواس؟! آه.. أيها الطفل الجاهل! ألم ترافقك روحي عندما وثب الأسد على رفيقك؟ ألم أضرعِ إلى الآلهة أن تحيط بك، وتحميك، وأن تسدد طعنتك التي صوبتها إلى حلق الأسد؟ لكن أخبرني كيف ذهبت إلى هناك يا بني؟

فأجبت:

– لقد سخر مني الشاب المتكبر فذهبت.

– نعم.. أعلم ذلك.. كما أعلم أن دم الشباب يجري في عروقك، وحماسته تتدفق في نواحيك، ولذا فقد صفحت عنك يا هارماكيس، لكن أصغ إلي، وافهم كلماتي جيداً، لقد أرسل هذا الشاب لإغرائك، أرسل لتجربة قوتك، فانظر لقد أتضح أنك أضعف مما تُوقع أن تكون عليه قوتك، ولذلك أُجلت ساعتك، فلو أنك قد أظهرت في هذا النزال من القوة ما هو جدير بك، لكشفت لك عن الطريق، وحسرت إلى حين النقاب عن كل سر، ولكنك فشلت فارجيء موعدك.

فقلت:

– لست أفقه ما تقول يا أبي.

– ماذا قالت لك العجوز (اتوّا) بجانب الترعة يا بني؟

فكاشفته بما قالته العجوز، فقال:

– وهل صدقتها يا هارماكيس؟

فأجبت:

– لا، كيف يمكن أن أصدق هذه القصص؟ لا ريب أنها مجنونة، إن الجميع يعلمون ذلك.

وللمرة الأولى حول الشيخ عينيه إلي، ثم وقف في الظل، وهتف:

– يا بني! يا بني! إنك مخطيء، فهي ليست مجنونة، لقد نطقت المرأة بالصدق، إنها لم تتكلم بلسانها، إن (اتوّا) مقدسة، والآن أصغ إلي فسأكاشفك بالمهمة التي ألقتها الآلهة على عاتقك، والويل لك إذا جعلت من ضعفك حائلا بينك وتحقيق هذه المهمة!! أصغ إلى، إنك لست غريبا تبنيتك وأدخلتك إلى منزلي، وإنما أنت ابني الحقيقي أنقذتك هذه المرأة من براثن الموت، ومع ذلك فأنت أعظم من أن تكون إنساناً عادياً يا هارما كيس، إن دم ملوك مصر يجري في عروقي، وعروقك، وأنا وأنت الشخصان الباقيان على قيد الحياة من سلالة (نخت– نف) فرعون مصر الذي طرده (أخوص) الفارسي من مصر.

لقد جاء الفرس، ثم ذهبوا، وجاء من بعدهم المقدونيون، وها قد انقضى على مجيئتهم أكثر من ثلثمائة عام اغتصبوا خلالها التاج المزدوج.. ودنسوا أرض (خم)، وأفسدوا عبادة آلهتها، والآن أ غ إلى قولي هذا واستوعبه جيدا يا بني، لقد مات الملك بنوس ديونيسس، أوليتس الزمار، ولم يعمل الخصى توثينوس – وهو نفس الخصي الذي جاء هنا من قبل ليقطع رأسك– بوصية مولاه، فنصب الصبي بطليموس على العرش، وقد فرت أخته كليوباترا، الفتاة الساحرة، إلى سوريا لهذا السبب، فإذا لم يخطيء زعمي، فأنها ستؤلف هناك جيشا تهاجم به أخاها بطليموس، فإن وصية أبيها تقضي بأن تشاطر أخاها العرش.

ولكن لا تنس يا بني أن النسر الروماني سيحلق عاليا في الجو، ينتظر وقد فتح مخالبه الفرصة لينقض على الكبش المصري السمين، ويمزقه أربا، ثم لا تنس أيضاً أن المصريين قد سئموا الحكم الأجنبي الظالم، وأنهم يبغضون ذكرى الفرس، وعافت نفوسهم تسميتهم في أسواق الاسكندرية (برجال مقدونيا)، وصفوة القول أن البلاد تئن من أقصاها إلى أقصاها تحت نيران اليونان، وظل الرومان..

ألم نضطهد؟ ألم يذبح أولادنا؟ وتسلب أموالنا لتملأ جيوب الغاصبين من المقدونيين؟ ألم ينتهكوا حرمة معابدنا؟ ألم يستخفوا بجلال الآلهة الأبدية، واستعاضوا عن اسم المعبود الأعظم باسم (سيرابيس)، وهزأوا من كنهه (غير المرئي)؟ ألم تجأر مصر في طلب الحرية؟ وستظل تجأر عبثا؟ لا.. لا .. يا بني، أنك طريق الخلاص والحرية، إنك يا بني خليفتي بحق الوراثة، وأنا رجل على حافة القبر، ولذا فقد أصدرت الأوامر التي تخولها لي حقوقي، وها هو اسمك يذكر الآن همساً في كثير من الهياكل كل من (آبو) إلى (آنو)، والكهنة والناس يقسمون يمين الولاء والطاعة؟ يقسمون بالرمز المقدس أن يشدوا أزرك، ويقفوا من ورائك يوم يعلن اسمك، ولكن لم يحن الوقت الملائم بعد، فأنت لا تزال غصناً رطباً لا تتحمل مثل هذه الزوابع العاتية، لقد اختبرتك اليوم فتبين لي عجزك.

إن الذي يريد خدمة الآلهة يا هارماكيس يجب ألا يؤثر فيه التعبير، ولا أية شهوة جسدية، أن مهمتك عظيمة يا بني فضع ذلك نصب عينيك وإلا فشلت، وحلت عليك لعنتي، ولعنة مصر، ولعنة آلهة مصر المحطمة!

ولا تنس يا بني أنه حتى الآلهة –وهي أبدية لا تفنى– تعتمد أحيانا على الرجل الذي تختاره لتنفيذ مآربها، كما يعتمد المقاتل على سيفه، وويل للسيف الذي يتحطم ساعة القتال، إنه يُلقى جانباً ليأكله الصدأ، أو ربما وضع في النار لينصهر!!

لتجعل قلبك طاهراً، سامياً، قوياً، فإن نصيبك ليس نصيباً عادياً، وليس جزاؤك جزاء أي رجل حي، انتصر يا هارما كيس، تفز بالمجد والسيادة، هنا وفيما بعد! وأما إذا فشلت فالويل والحزن هما من نصيبك!

سكت الشيخ، وأحنى رأسه، ثم استطرد بعد هنيهة:

– غداً سأعطيك هذه الرسائل، وستركب النيل، وتمر بمدينة ممفيس ذات الأسوار البيضاء إلى (آنو)، وهناك تقضي بضعة أعوام، لتزداد معرفة بحكمتنا القديمة تحت ظلال تلك الأهرامات السرية التي ستكون أيضاً كاهنها الأعظم بالوراثة؛ وأما أنا فسأبقى هنا، وأراقب.. فإن ساعتي لم تحن بعد، وسأنسج بمساعدة الآلهة شبكة الموت التي ستقتنص أنت بواسطتها ذبابة مقدونيا وتقضي عليها. إقترب مني يا بني، وتعال قبلني فوق جبيني لأنك أملي، ورجاء مصر الوحيد.

فتقدمت منه وأنا أنتقض، وقبلته فوق جبينه وهتفت:

– لتحل علي كل هذه اللعنات وأكثر منها إن أنا لم أحقق رجاءك يا أبي!

فصاح:

– لا.. إنه ليس رجائي، بل رجاء الآلهة التي أنفذ مشيئتها، والآن اذهب يا بني! وتأهب للنزال الطويل، لا تخش ضراً يصيبك لأنك بمنجاة من كل شر، ومن كل أذى ينالك من الخارج، لأن عدوك الوحيد هو نفسك، لقد تكلمت.

فانصرفت من حضرته بقلب مثقل، وكان الليل ساكنا وأفنية المعبد خالية. فعبرتها مسرعاً حتى وصلت إلى مدخل البرج عند الباب الخارجي، وإذ كنت أنشد الوحدة والعزلة والتقرب إلى السماء، ارتقيت الدرج، حتى وصلت إلى السطح، فأسندت صدري إلى الحاجز، وأرسلت بصري إلى الفضاء اللانهائي.

ورحت أفكر وغمغمت بصوت خافت:

– هل سأحكم حقا هذه الأراضي التي يغمرها ضوء القمر، وأحمي أعمدة هذه الهياكل المقدسة؟ وأعلي شأن آلهتها؟ وأطرد البطالسة، وأحرر مصر من الحكم الأجنبي؟! إن دم أولئك الملوك العظام الذين يترقبون يوم الحشر من قبورهم في طيبة، يجري في عروقي.

وأخذتني نشوة الفرح وأنا أتمثل المستقبل الباهر الذي ينتظرني.

هتفت:

– يا آمون، رب الأرباب، والموجود منذ الأزل، إله الحق، الإله القديم الباقي إلى انتهاء الدهر، أنصت إلي.

إذا كانت الآلهة اختارتني حقاً لتنفيذ مشيئتها، فلتريني الدليل، وليكن

ذلك في التو، أبسطي يديك نحوي أيتها الآلهة، أنصتي إليّ، وأصغى إلى توسلاتي، ثم جثوت على ركبتي، ورفعت عيني إلى السماء، غشيت وجه القمر سحابة، فأظلمت الدنيا، وزاد السكون من حولي رهبة ووحشة، وعندئذ أحسست كأن روحي قد بلغت الحلقوم، ووقف شعر رأسي، ثم لم ألبث أن شعرت بالبرج يهتز تحت قدمي، وهبت ريح صرصر عالية.

وسمعت صوتا خافتا يهتف من أعماقي قائلا:

– أنظر.. ها هو الدليل، هدىء من فزعك، وتجلد يا هارما كيس وفيما كان الصوت يتكلم، شعرت بيد باردة تلمس يدي، وتركت شيئا فيها.

وانجلت السحابة في تلك اللحظة، وبرز القمر، وخفت حدة الريح، وعاد الكون إلى سكونه وهدوئه الشامل.

وعلى ضوء القمر، رأيت في يدي زهرة من زهر اللوتس المقدس، على وشك أن يتفتح، وقد تصاعد منها أريج عاطر.

وفجأة أفلتت الزهرة من يدي، واختفت في جوف الليل، وتركتني فريسة القلق والحيرة.

الفصل الرابع

رحيل هارما كيس

وفي فجر اليوم التالي، أيقظني أحد كهنة المعهد، وطلب إلي أن أتاهب للرحيل. إذ كانت حالة النيل تسمح بالسفر إلى آنو- رع، (هليوبوليس الآن)، برفقة نفر من كهنة (بتاح) في ممفيس، كانوا قد جاءوا إلى أبوثيس ليدفنوا أحد عظمائهم في القبر الذي أعد له بجوار مدفن أوزوريس المقدس. فإذا كان المساء ودعت أبي، وتسلمت منه الرسائل، ثم انطلقنا إلى شاطئ النهر وركبنا الزوارق.

وما إن أمر الربان بحارته برفع المرساة، حتى جاءت العجوز (اتوّا) على عجل، وكانت تحمل في يدها سلة مملوءة بالأعشاب الطبية..

وحيتني المرأة مودعة، وألقت ورائي (صندلا)، كي يلازمني حسن الحظ، وقد احتفظت بهذا الصندل عدة سنوات.

وقضينا ستة أيام مسافرين، ولكن ما أن غابت تلك المناظر المألوفة عن ناظري، حتى وجدت أني وحيد بين قوم غرباء عني، لا تكاد تربطني بهم أية علاقة، فكدت أبكي لولا الحياء.

وفي صباح اليوم السابع وصلنا إلى ممفيس ذات الأسوار البيضاء، وقضيت ثلاثة أيام في الإستراحة من تعب السفر، ولم يدخر كهنة هيكل (بتاح) وسعاً في إرضائي وتكريمي، حتى سرى عني بعض الشيء.

وفي خلال فترة الراحة قمت مع رفاقي الكهنة بجولة في المدينة، ورافقني اثنان منهم في زيارة سرية للمعبود (أبيس) المقدس، وهو المعبود بتاح الذي عاش بين الناس على هيئة عجل أسود اللون، على جبينه مربع أبيض، وعلى ظهره علامة بيضاء مثل النسر، وتحت لسانه شبه جعران، وفي ذيله شعرات مزدوجة، في حين تدلت من بين قرنيه لوحة من الذهب الخالص.

نفذت إلى مقصورة المعبود، وقدمت إليه فروض الطاعة، بينا وقف الكاهن الأعظم، والكاهنان اللذان رافقاني يرقبونني بإهتمام ولهفة.

ولما فرغت من صلاتي، ونطقت بالكلمات التي لُقنتها من قبل؛ ركع المعبود وتمدد أمامي، فتقدم الكاهن الأعظم ورفيقاه مني، وكانوا من عظماء مصر العليا كما علمت فيما بعد، وقد ارتسمت على وجوههم علامات الدهشة والعجب، وقدموا إليّ فروض الإحترام، دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة لما رأوا من فأل حسن.

وفي اليوم الرابع أقبل بعض كهنة (آنو)، ليأخذونني إلى خالي (سيتا)، الكاهن الأعظم لمعبد (آنو)، فودعت كهنة ممفيس ثم عبرنا النهر، وامتطينا ظهور الحمير، وقضينا ثلثي النهار ونحن نجتاز قرى صغيرة تبدو عليها مظاهر الفقر.

وللمرة الأولى في حياتي رأيت الأهرامات العظيمة الواقعة خلف تمثال المعبود (هورمخو)، وأبا الهول الذي يطلق عليه اليونانيون اسم (هارما كيس)؛ وهياكل الأم المقدسة (أيزيس)، وملكة (ممنونيا)؛ والإله (أوزوريس)، سيد (روزاتو)؛ تلك المعابد التي يخولني حق الوراثة أن أكون كاهنها الأعظم مع معبد (منقرع) المقدس.

أُخذت من روعة هذه المعابد، واستهوتني عظمتها وأحجارها البيضاء والجرانيت الحمراء،التي تنعكس عليها أشعة الشمس، ولم أكن إلى تلك اللحظة أعرف شيئا عن الكنوز المدفونة في الهرم الثالث، ويا ليتني لم أعرفها أبداً.

واصلنا السير إلى أن ظهرت مدينة (آنو)، وهي المدينة الثانية بعد ممفيس من حيث المساحة والفخامة، وكانت مشيدة فوق مرتفع من الأرض وأمامها بحيرات يأتيها الماء من النهر بواسطة قناة، ويليها هيكل الآلة (رع).

وترجلنا أمام البرج، والتقينا في الرواق برجل ضئيل الجسم، تلوح عليه سيماء النبل، حليق الرأس، له عينان سوداوان متألقتان.

وما أن وقع بصره علينا، حتى صاح بصوت قوي لا يتفق مع ضآلة حجمه:

– قفوا! قفوا! أنا سيبا الذي يُنطق الآلهة!

فقلت:

– وأنا هارماكيس بن أمينمحعت الكاهن الأعظم بالوراثة، وحاكم مدينة أبوثيس المقدسة.. أنني أحمل إليك رسائل يا سيبا..

فقال، وهو يرمقني بنظرة فاحصة.

– أدخل، أدخل يا بني.

وتناول يدي وقادني إلى غرفته في الردهة الداخلية، وصفق الباب خلفنا، ثم شرع يقرأ الرسائل التي حملتها إليه.

وأخيراً رفع رأسه وعانقني، وهتف:

– على الرحب والسعة يا بني، أهلا بابن أختي، وأمل مصر!! ها هي صلواتي إلى الآلهة لم تذهب سدي، فعشت لأرى وجهك، وألقنك خلاصة حكمتي التي قد لا تتوفر لأحد ممن يقيمون في مصر، هم قليلون أولئك الذين يجوز أن ألقنهم علومي، وأما أنت فصاحب المستقبل الباهر، أنت الذي إختارتك الآلهة لسماع حكمتها.

ثم عانقني مرة أخرى، وطلب إلي أن أذهب لأغتسل، وأتناول الطعام وقال أنه سيحدثني غداً حديثاً مستفاضاً.وقد بر بوعده، فحدثني طويلاً، وكاشفني بأمور عدة، لو شئت تسجيلها لما وجدت في مصر كلها من أوراق البردي ما يحقق رغبتي.ولكن ذلك لا يحول دون ذكر طرف من حياتي خلال السنوات المقبلة، وهأنذا أقرر بعضه؛ فأقول:

كنت أنهض مبكراً، وأحضر الصلاة التي تقام في الهيكل، ثم أمضي بياض النهار في الدراسة والإطلاع، فتعلمت الدين، وفروضه، ومعانيه، وأصل الآلهة، والعالم الأعلى، ووقفت على أسرار الأجرام السماوية، وحركاتها، وتعلمت السحر، وتفسير الأحلام، والتقرب من الآلهة، ولغة الرموز وأسرارها الخارجية والداخلية، والقوانين الأبدية للفضيلة والرذيلة، وعرفت سر الأهرامات –ويا ليتني ما عرفتها– وأطلعت على تواريخ الماضي، وأعمال الملوك القدماء من أيام خوروس، وتدربت على أساليب السياسة والحكم، وعلوم الأرض، وتاريخ اليونان والرومان، واتقنت لغتيهما.

خمسة أعوام طوال قضيتها عفيف الذيل، طاهر القلب، لم أرتكب خلالها

شراً في نظر إله أو بشر، أجد وأعمل للوقوف على كل شيء، وأعد نفسي للمهمة الشاقة التي تنتظرني.

وكان أبي يبعث إلي برسالتين في كل عام، فأرد عليه متسائلاً: ألم يحن الوقت بعد لإنتهاء دراستي؟!

وأخيراً ضقت ذرعا بالوحدة، ولما كنت بلغت الرجولة، وصرت عالماً، فقد تاقت نفسي إلى حياة الرجال.

وكثيراً ما ساءلت نفسي: ألا يجوز أن تكون كل تلك الأحاديث التي أسمعها، والنبوءات التي ترددت عن أمور ستحدث، حلماً تمثلته عقول قوم تغلبت أهواؤهم على عقولهم؟ صحيح أن الدم الملكي يجري في عروقي، فقد أطلعني خالي سيبا على تاريخ سري منقوش فوق حجر من الصوان يثبت ذلك، لكن ماذا أفيد منه ومملكتي مربوطة في قيود الإستعباد؟ لقد انقضت أجيال طويلة على هذا الوطن المنكوب وهو يضعف تحت النيران الأجنبية فهل يمكن أن يتحقق ذلك الحلم السعيد، وتتحرر مصر مرة أخرى؟

وهنا تذكرت صلاتي فوق البرج في أبوثيس، والعلامة التي رأيتها.. فانتابني العجب، وتساءلت: أتراني كنت أحلم؟!

وذات ليلة، سئمت نفسي الدرس والإطلاع، فخرجت إلى حديقة الهيكل المقدس لأروح عن نفسي، وفيما كنت مستغرقاً في تأملاتي، التقيت بخالي سيبا وهو يسير خلال الحديقة متفكراً أيضاً.

وابتدرني بقوله:

– مهلاً يا هارماكيس! مالي أراك حزينا مبتئسا؟ هل أضجرتك المعضلة التي كنا ندرسها معا؟

فأجبت:

– يا خالي.. إنني ضجر حقا، ولكن ليس من المعضلة! فقد كانت سهلة الهضم.. إن قلبي مثقل، لأنني سئمت الحياة بين جدران هذه المعابد، وضقت ذرعا بأثقال العلوم المتراكمة فوق عاتقي، لا فائدة من اختزان قوة لا يمكن استخدامها.

– آه.. إنك قليل الصبر يا هارماكيس، وتلك حال الشباب الطائش، ستذوق طعم القتال وستعرض نفسك لأخطار المعارك والحروب؛ أليس لهذا تريد الرحيل يا هارماكيس؟ حسنا.. لك ما تشاء، فقد جاءت ساعتك، لقد لقنتك كل ما أعلم، وأظن أن التلميذ فاق معلمه.

وسكت.. وجفف الدموع التي انسابت من عينيه.

فقلت مسروراً:

– وإلى أين سأذهب يا خالي؟ أأعود إلى أبوثيس لأبدأ في تلقي أسرار الآلهة؟

– نعم.. ستعود إلى أبوثيس، ومنها إلى الإسكندرية، ثم إلى عرش أجدادك يا هارماكيس؛ أصغ إلي، إن الموقف يتلخص في الوقت الحاضر فيما يلي: إنك تعلم كيف أن كليوباترا –الملكة– فرت إلى سوريا عندما خالف الخصي الخبيث (بوثينوس) وصية أبيها أوليتس، ونصب أخاها بطليموس ملكاً على مصر.

وتعلم كذلك كيف عادت كليوباترا، مثل ملكة حقيقية، على رأس جيش عرمرم، وعسكرت في بالزيوم؛ وكيف أبحر قيصر إلى الإسكندرية على رأس فصيلة ضعيفة قادما من فارساليا، في أثر بومبيوس الذي عثر عليه مقتولاً، إذ كان قد قتله القائد أشيلاس ولوكيوس سبتيموس قائد القوات الرومانية بمصر.

وتعلم أيضاً كيف انزعج السكندريون لقدومه، وأرادوا البطش برؤساء جنوده.. وقد اعتقل قيصر الملك الصغير بطليموس وأخته أرسنوي، ثم أمر بتسريح جيش كليوباترا، وجيش بطليموس، تحت قيادة أكلاس، اللذان كانا يعسكران في بلزيوم (طينة) وجها لوجه، فأجاب القائد أكلاس على هذا النداء بأن زحف على جيش قيصر، وحاصره في الإسكندرية، وظلت الأحوال غامضة بعد ذلك، ولا أحد يعلم من الذي سيفوز بحكم مصر، ولكن كليوباترا ألقت الزهر، وأقدمت على عمل ينطوي على الجرأة والإستخفاف، فقد تركت جيشها في (طينة)، وتسللت إلى الاسكندرية عند الغسق، ولم يكن يرافقها غير (أبولو دورس) الصقلي، الذي طواها بحزمة من السجاجيد المصنوعة في سوريا، وأرسلها هدية إلى قيصر.

وإذ فتحت الهدية أمام المهدى إليه، برزت من جوفه أجمل فتاة على ظهر البسيطة، نعم وأغزرهن علماً وحكمة، فهام بها قيصر العظيم، ولم تستطع معرفته وتجاربه الطويلة أن تحميه من سحرها، فكاد يفقد حياته وسيادته التي ظفر به بعد مئات من المعارك بجهله، وطيشه.

فقاطعته:

– يا للأحمق!! يا للأحمق!! إنك تدعوه عظيماً، ولكن كيف يكون الرجل عظيماً إذا لم يقوى على التخلص من إغراء المرأة؟ قيصر.. الرجل الذي يتوقف مصير العالم على كلمة تنطق بها شفتاه! قيصر الذي تكفي كلمة واحدة منه لتسيير الجيوش الجرارة، وتغيير مصائر الشعوب! قيصر البطل، الرجل الوقور البعيد النظر! أقول أيسقط قيصر هذا مثل تفاحة ناضجة في حجر فتاة غادرة؟ إذا كان ذلك كذلك، فما أحط منبت هذا القيصر، وما أحقره من مخلوق ضعيف!!

فأطال سيبا النظر فى وجهي، ثم هز رأسه نفياً، وأجاب:

– لا تتعجل في الحكم يا هارما كيس، ولا تتكلم بمثل هذا التفاخر، ألا تعلم أن في كل درع موطناً للضعف، والويل لمن يحتمي بدرع ينفذ منه السف؟! إن المرأة على ضعفها أعظم قوة على الأرض، تأتي على أشكال متعددة، وتطرق أبواباً كثيرة، إنها سريعة، صبورة، تملك قيادة عواطفها بعكس الرجل.

إن لها عين القائد، فوجب أن يكون القلب كالحصن المنيع حتى لا تجد منفذاً لها إليه، فإذا كان الدم يجري حاراً في عروقك، فإن قبلة من قبلاتها تحيله ثلجاً، وإذا كنت طموحا إلى العلا فإنها تفتح مغاليق قلبك وترشدك إلى سبيل المجد والظفر.

إذا كنت متعباً مكدوداً، فإن لك في صدرها راحة، وهناء.. فإذا سقطت، رفعتك، وصورت لعينيك المخدوعتين الفشل نصراً وفوزاً، نعم يا هارما كيس، في استطاعة المرأة أن تفعل هذا، وأكثر منه؛ ولا عجب فالطبيعة

تقاتل دائماً في صفها، فالمرأة إذن سيدة العالم، وعظيم ولا ريب ذلك الرجل الذي يستطيع أن يتحدى سيطرة المرأة.

فانفجرت ضاحكاً، وهتفت:

– إنك تتكلم بحماسة يا خالي سيبا، حتى ليخيل إلي أنك لم تسلم من نار الحب، حسنا.. أنا لا أخشى المرأة وشباكها، ولا أعلم شيئاً عنها ولا أريد أن أعلم، وما زلت أصر على أن قيصر هذا كان مأفوناً أحمق، ولو كنت في موقفه، لقذفت بحزمة السجاجيد من فوق درج القصر إلى الطين والأوحال لينطفيء سعير هواها.

فصاح خالي:

– لا.. صه صه!! من الخطأ أن تتحدث هكذا، فلتحفظك الآلهة من كل شر، ولتبق لك هذه القوة التي تزهو بها، أيها الرجل، إنك لا زلت جاهلاً رغم علمك وحكمتك، إن العالم الذي يجب أن تختلط به ليس هيكلاً مثل هيكل إيزيس المقدسة، فأتوسل إلى الآلهة أن تحفظ لقلبك برودته، لكي تكون رجلاً عظيماً سعيداً، تنقذ مصر من الإستعباد.

والآن دعني استأنف سرد قصتي.

قد رأيت يا هارما كيس كيف احتلت المرأة مركزها حتى في مثل هذه القصة الخطيرة، سقط قيصر في حبائل كليوباترا إذن، فأطلق سراح أخيها بطليموس الصغير، ولكنه لم يلبث أن انقلب على القيصر وخانه.. فاجتاح قيصر ومترياديس معسكر بطليموس واضطروه إلى الفرار إلى النيل في زورق لم يلبث أن غرق لكثرة اللاجئين إليه، وهكذا لاقى بطليموس التعس مصرعه.

وانتهت الحرب عند ذلك؛ وبرغم أن قيصر أولد كليوباترا ولدا أسماه قيصرون فقد نصب قيصر كليوباترا ملكة على مصر، يشاطرها أخوها بطليموس الأصغر الحكم، على أن يكون زوجها اسمياً، ثم رحل إلى روما وقد حمل معه الأميرة إرسينوي الفاتنة، وهي مكبلة بالأصفاد والأغلال، بيد أن قيصر لم يلبث أن مات مقتولاً كما عاش يشرب من الدم، وإذا جاز لي أن أعتمد على الأنباء التي بلغتني، فقد قتلت كليوباترا أخاها وزوجها بالسم، ونصبت قيصرون الصغير شريكاً لها على العرش الذي تحتفظ به بمساعدة الرومانيين، وبمعاونة سيكتوس بومبيوس، وهو الذي احتل مركز قيصر في قلبها.

ولكن البلاد تغلي كالبركان، تتحفز للثورة في وجه كليوباترا، وفي كل قرية من قرى مصر يتحدث الأطفال عن مخلص مصر، وهو أنت يا هارما كيس.

لقد أذنت الساعة، فعد إلى أبوثيس، وتعلم أسرار الآلهة النهائي، وقابل الذين سيوجهون العاصفة عند هبوبها.

وعندئذ يجب أن تعمل يا هارما كيس، لتطهر البلاد من الرومان، واليونان، وأجلس على عرش أجدادك، وكن ملك الشعب، فما لغير هذه الغاية خلقت أيها الأمير.

الفصل الخامس

تحذير أمينمحعت

ودعت خالي سيبا في صباح اليوم التالي، وكررت عائداً إلى أبوثيس غادرتها غلاماً، وعدت إليها يافعاً، فارع الجسم، غزير العلم، موفور الحكمة. وفيما كنت اخترق الحقول في طريقي إلى الهيكل، التف الكهنة وأهل القرية من حولي، وراحوا يحيونني باحترام وتبجيل. وانطلقت إلى غرفة أبي، فوجدته جالساً أمام المنضدة، وقد فعلت السنون فعلها في بنيته.

وجثوت أمامه، ولثمت يده، فباركني وقال:

– ارفع وجهك يا بني، ودع عيني الضعيفتين تتأمل وجهك، لأستشف خباياك. ففعلت.. وأنعم النظر في وجهي فاحصاً مدققاً.

وأخيراً قال:

– لقد قرأت خفاياك، وأيقنت أنك طاهر القلب، راجح العقل، ولعمري لم يخب ظني فيك، أواه! كانت سنوات موحشة، ولكني أحسنت صنعاً بإرسالك إلى هناك، حدثني الآن عما مر بك لأن رسائلك لم تشف غليلي.. إنك لا تعلم يا بني مدى لهفة الأب على الوقوف على أنباء الإبن.

فحدثته وأفضت في الحديث حتى ساعة متأخرة من الليل، وفي النهاية طلب أبي مني أن أتأهب لتلقي تلك الأسرار الأخيرة التي يجب أن يحيط بها كل من اختارته الآلهة.

وقضيت الشهور الثلاثة التالية في التأهب، حسب التعاليم المقدسة، فلم أتذوق خلال تلك المدة شيئاً من اللحم، واحتجبت داخل الهيكل، وانصرفت إلى دراسة أسرار الضحايا العظيمة، وغضب (الأم المقدسة).. وكنت أصلي بحرارة أمام المذبح، حتى خيل إلي أنني زهدت الحياة، ولم أعد أنظر إليها نظرة المتشبث بها المتعلق بأذيالها.

وكنت متجهاً بأفكاري وخواطري إلى قبة السماء، حيث الأفلاك تجري فتجذب وراءها مصائر البشر، وحيث يجلس القديسون على عروشهم الملتهبة، وهم يرقبون عجلة القدر، وهي تدور وتنتقل من عالم إلى آخر.

إيه أيتها الساعات التي قضيتها في التأمل والتفكير المقدس، والتي ما أن ذقت حلاوتها مرة حتى رغبت أن تدوم أبد الدهر، وأنت أيها الجسد الفاني الذي تقذف بنا مساوئك إلى قرارة الهاوية، بودي لو تحللت منك وخلعتك عني، وأطلقت روحي حرة تسعى إلى أوزوريس!

ومرت أشهر التجربة سراعاً، واقترب اليوم المقدس الذي اتحدت فيه جسماً وروحاً بالأم (إيزيس)، ولا أحسب أني قضيت من قبل ليلة تلهفت بها على طلوع الفجر، كما قضيت تلك الليلة، ولا أخال محباً أحس بالشوق للقاء عروسه كما أحسست أنا للقاء وجهك الجميل يا إيزيس! وحتى الآن بعد أن حنثت بعهدك، ونأيت عني، لا تزال روحي تهفو إليك، ولكن ما دمت قد سمحت بكشف النقاب، وذكر أمور وحوادث لم يشر إليهما أحد منذ ابتداء الخليقة فسأسرد قصتي، وآتي على وصف ذلك الصباح المقدس.

أقيمت الحفلات الرائعة سبعة أيام سوياً، فاحتفل بأم الإله أوزوريس،

ورتلت أغنية أحزان الأم إيزيس، واحتفل بذكرى مجيء الطفل المقدس هوروس، الإبن المنتقم، ابن الإله، وقد احتفل بهذه المناسبات طبقاً للتعاليم الدينية القديمة، كانت الزوارق تتهادى فوق سطح البحيرة المقدسة وجلد الكهنة أنفسهم بالسياط أمام هياكلهم، وحملت الأصنام والتماثيل في الشوارع ليلاً.

وحين غابت شمس اليوم السابع وراء الأفق، احتشدت جماهير غفيرة لترنم أغنية أحزان الأم إيزيس، وكيف ثأرت من الشر.

خرجنا من المعبد صامتين، وانطلقنا في طرقات المدينة وكان أبي أمينمحعت يتصدر الموكب، وهو يرتدي ثياب الكهنة، ويتوكأ على عصاه المصنوعة من خشب الأرز، وقد سرت في أثره وحيداً في رداء من الكتان، يتبعني الكهنة بثيابهم البيضاء، وقد رفعوا تماثيل الآلهة والأعلام تخفق فوق الرؤوس، ومن بعدهم جملة الزورق المقدس، ثم المترنمون؛ بينا امتدت صفوف الشعب إلى مدى لا تأتي العين على آخره وجميعهم يرتدون ثياب الحداد على موت أوزوريس.

اجتزنا شوارع المدينة صامتين، حتى وصلنا إلى الهيكل. ولم يكد أبي يطأ البرج الخارجي بقدميه، حتى شرعت امرأة ترتل بصوت عذب حنون (الأغنية المقدسة).

وكانت جموع الشعب ترد على المرأة بين الفنية فيما يشبه النشيد وكان لصوتهم وقع محزن في نفسي، حتى كدت أبكي.

وعقبت المرأة فأنشدت أغنية قيام أوزوريس من الموت، وهي أغنية الأمل والفوز.

وبعد أن فرغت من غنائها، أخذ قرص الشمس يختفي وراء الأفق، وانتهت الحفلة عند ذلك.

وفيما يتعلق بي كانت تلك هي البداية، فبمجرد انتهاء هذا الحفل سجلت انضمامي إلى زمرة الكهنة، فغادرت فناء الهيكل، واغتسلت وارتديت ثياباً بيضاء من الكتان، وطبقاً للطقوس الدينية، دخلت إلى مقصورة داخلية، ولكنها ليست أقصى المقصورات، وقدمت القرابين المعتادة على المذبح، ورفعت يدي إلى السماء، وشرعت أبتهل خاشعاً، واستجمع أطراف شجاعتي في إنتظار ساعة التجربة العصيبة.

ومرت ساعات ثم فتح الباب، ونفذ أبي إلى الغرفة بثيابه الناصعة البياض، وبرفقته كاهن المعبودة (إيزيس).

وانبعثت واقفاً.وتقدمت منهما بكل خضوع، فرفع كاهن إيزيس مصباحه إلى وجهي، وسأل:

– أمستعد أنت أيها المختار لمشاهدة جلال المعبودة وجهاً لوجه؟

فأجبت:

– نعم قدني إليها.

فأردف الكاهن بصوت رهيب:

– فكر في الأمر ملياً، فليس هو بالهين اليسير، فإن كنت قد اعتزمت أن تبلغ أمنيتك الأخيرة، فأعلم يا هارما كيس، يا سليل الملوك، أن التعاليم تقضي عليك بأن تموت الليلة بالجسد هنيهة، لتعطي بذلك الفرصة لروحك

كي تتطلع إلى المسائل الروحية، فإن مت، ثم وجد بين طيات قلبك أي دنس أو رياء، فالويل لك يا هارماكيس، لأن الحياة لا تعود إليك حينئذ ويتلاشى جسدك؛ فهلا أنبأتني الآن هل أنت طاهر، نقي من التفكير في الخطيئة، وفي المرأة البشرية.

فأجبت:

– نعم.. خذني إليها.

فقال الكاهن:

– حسنا، سننطلق من هنا وحدنا أيها الكاهن النبيل أمينمحعت.

فقال أبي:

– الوداع يا بني، كن ثابتا، وعالج التجربة بعزم قوي وإيمان راسخ لكي تنجح وتنتصر، إن من يرعى الحق والصدق في حكم الشعوب يجب أن يتسامى أولا فوق البشر! ولا بد أن يضع رضى الآلهة نصب عينيه، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة للوقوف على الأسرار المقدسة، ولكن كن على حذر، فإن الآلهة تطالب من يجرؤ على الدخول في دائرتها المقدسة بالشيء الكثير، وإذا حاد عن طريقها أنزلت به أشد القصاص، فبقدر ما يصيب الإنسان من مجدها وفخارها، يكون مبلغ إذلاله وتأديبه، فليكن قلبك ثابتا إذن يا هارماكيس الملكي!! والآن إذا كان قد استقر منك العزم، فاذهب إلى حيث لا يسمح لي بمرافقتك، وإلى اللقاء!

وقفت هنيهة مثقل القلب، حائراً، ولكن كانت تسيطر على رغبة قوية

في الإجتماع بالآلهة، وكنت أعلم أنني طاهر الذيل، نقي القلب، وألا شيء يحول دون أن أحقق رغبتي في الإجتماع بهم.

فصحت:

– تقدمني أيها الكاهن المقدس وسأتبعك.

وانطلقنا.

الفصل السادس

مدينة الموتى

انطلقنا صامتين إلى مقصورة إيزيس، وكانت خالية معتمة إلا من ضوء باهت كان ينبعث من مصباح صغير، وينعكس على الجدران المنحوتة، حيث نصبت مئات من تماثيل الأم (إيزيس)، وهي ترضع الطفل المقدس.

وأغلق الكاهن الأبواب بالمزاليج، ثم قال:

– هأنذا أسألك للمرة الثانية، هل أنت مستعد يا هارما كيس؟

فأجبت:

– وللمرة الثانية أقول أنني على تمام الإستعداد.

فلم يتكلم ثانية، وإنما رفع يديه إلى أعلى، ثم قادني إلى (الهيكل المقدس) وبحركة سريعة أطفأ المصباح، ثم هتف بصوت خيل إلى أنه أجوف وسط هذا المكان الرهيب:

– انظر أمامك يا هارما كيس.

فنظرت، ولكني لم أميز شيئاً، بيد أنني سمعت صوتاً ينبعث من الكوة حيث وضع رمز الآلهة المقدس الذي لم يره إلا القليلون.

وإذ كنت أصغى لهذا الصوت خائفاً، رأيت أطراف الرمز، وقد رسم بخطوط من نار في ذلك الظلام الحالك، وكان معلقاً فوق رأسي وينبعث منه رنين. وحدث أن تحول الرمز، فرأيت وجه الأم إيزيس بوضوح! محفور على

أحد جانبيه، وكان يرمز إلى الولادة الأبدية في حين حفر على الجانب الآخر وجه أختها المقدسة (نفتيس)، وكان يرمز إلى انتهاء كل حي إلى الموت.

وتحول الرمز ببطء، وهو يتأرجح في الهواء. كما لو كان راقصاً سحرياً يدور فوقي في الفضاء، ولكن لم يلبث الضوء أن اختفى وتلاشى الصوت. وفجأة أضيء أحد جوانب الغرفة، فرأيت وسط النور الأبيض صوراً تتوالى وتترى.

رأيت النيل القديم ينساب وسط الصحاري إلى البحر، والطيور البرية تحلق فوق مياهه، ووحوشاً غريبة الهيئة تلقي بنفسها في الماء، وتغوص فيه، وكانت الشمس تنحدر نحو الأفق وراء صحراء ليبيا، فصبغت المياه بلون الدم، والجبال الشاهقة تتسامى إلى السماء، فأدركت أنني أرى العالم كما كان قبل بدء الخليقة، وسرت إلى نفسي رهبة، ودهشة.

واختفت هذه الصورة، وحلت محلها أخرى، فرأيت شاطئ سيجور (النيل) مرة أخرى وقد اكتظ بالخلائق، وهم في صورة أقرب إلى القردة منهم لبني الإنسان، وهم يتشاحنون! ويفتك بعضهم ببعض، بينا كانت الطيور البرية تفر خوفاً من النار التي أشعلها الأعداء في الأكواخ المصنوعة من الغاب، بعد أن سلبوا ما بها، وسرقوا محتوياتها، وقتلوا الأطفال وهشموا رءوسهم بالصخر، وبرغم أني لم أسمع صوتاً يدلني على حقيقة ما أرى، فقد أيقنت أنني أرى حال الإنسان منذ آلاف السنين عندما دب على الأرض في بدء الخليقة.

وللمرة الثانية اختفت الصورة، وظهرت مكانها أخرى، فرأيت شاطئي

(سيجور) وقد شيدت على أرضهما مدن جميلة، يجتاز أبوابها رجال ونساء وهم يروحون ويعودون في أراضٍ خضراء، ولكني لم أر حراساً، أو جيوشاً أو أسلحة حرب وقتال، فقد كانت الحكمة والرخاء والسلام تسود البشر.

وإذ كنت مستغرقاً في مشاهداتي وتأملاتي برز شيخ من أبواب المعبد يرتدي حلة من المهابة والوقار، تتوقد مثل شعلة من اللهب، تتقدمه وتسير في إثره نغمات الموسيقى، إلى أن جلس على عرش من العاج وضع في السوق مقابل النهر، فلما غابت الشمس وراء الأفق، نادى في الناس يدعوهم للصلاة، فصلوا جماعة، وسجدوا إجلالاً وتعظيماً، فأدركت أن هذه الصورة تمثل حكم الآلهة على الأرض، وذلك قبل حكم مينا بوقت طويل.

تغير شكل الرؤيا، فبقيت المدينة الجميلة على حالها، ولكن أبدل أهلها بقوم ترتسم على وجوههم أمارات الجشع والشر، يبغضون قيود الأعمال الشريفة، وينغمسون في الشر، وجاء المساء فجلس الشيخ على عرشه، ونادى الناس للصلاة، ولكن أحداً منهم لم يلب النداء، فيطأطيء الرأس إجلالا وتعظيما.

وصاحوا قائلين:

– لقد كرهناك، نريد ملك الشر!! اذبحوه! اذبحوه! وأطلقوا الشر من عقاله!

فنهض الشيخ الوقور عن عرشه، وراح يحملق في الأشرار بعينين حزينتين!

ثم هتف:

– إنكم لا تفقهون ما تقولون، لكن ما أردتم سيكون لكم! وأقسم بذاتي أنني إذا مت، فلن تجدوا سبل الخيرسهلة يسيرة.

وفيما كان يتكلم، رأيت شيطاناً رجيماً يثب فوق الشيخ وهو يسبه ويلعنه ثم ذبحه، ومزقه أرباً، وارتقى العرش بين تهليل الجماهير وصيحات استحسانها.

بيد أن ذلك لم يطل أمده، فقد هبط من السماء شبح مقنع على أجنحة من الظل، وأخذ الشبح يجمع أشلاء الشيخ المتناثرة، وهو يبكي وينوح، ولم يلبث الشبح (وكانت امرأة) أن رفعت يديها وبكت، وبينما هي تبكي وثب من جانبها محارب مسلح له وجه رع (الشمس) وقت الظهيرة، وحمل هذا المحارب على المارد الذي اغتصب العرش، وصرخ في وجهه، ومن ثم اشتبكا في نضال رهيب، إلى أن صعدا معاً إلى السماء.

وأعقبت هذه الصورة صور أخرى، فرأيت ممالك، وشعوباً في أزياء متباينة، ويتكلمون لغات مختلفة، رأيتهم يمرون أمامي أفواجاً أفواجاً، يحبون، ويبغضون، ويقاتلون، ويقضون، وكان القليلون منهم سعداء، بينما انطبعت على وجوه البعض علامات الحزن والشقاء، ولكن كانت تلوح على وجوه غالبيتهم سيماء الصبر، والتجلد.

وبينما كانت هذه الصور تتتابع أمام عيني من جيل إلى جيل كان (المنتقم) ينافح إله الشر في أرجاء الفضاء، وكانت الحرب بينهما سجالاً، ولم يتح لي أن أعلم كيف أنتهى النضال بينهما.

وأخيراً أدركت أن ما رأيته أن هو إلا الرؤيا المقدسة للنضال بين قوتي الخير والشر.

رأيت كيف خلق الإنسان مفطوراً على الشر، وكيف أشفق عليه الذين في السماء ومدوا إليه أيديهم ليطهروا قلبه منه ويقيلوا عثراته! ويتمموا عليه نعمة السعادة، بيد أنه ذلك لم يلبث أن عاد إلطريق الرذيلة، وعندئذ تقدمت روح الخير الجليلة التي تدعوها أوزوريس، والتي لها أسماء متعددة وتطوعت لمكافحة شرور الإنسان الذي أسقطها عن عرشها.

– هل فهمت يا هارماكيس معنى هذه الأشياء التي أرادت الآلهة أن تطلعك عليها؟

– نعم فهمت.. هل انتهت الطقوس الدينية عند ذلك؟

– كلا إنها إنما بدأت.. وأما ما سيأتي بعد.. فعليك أن تبلغه وحدك! سأتركك الآن على أن أعود إليك عند الفجر، ولكني أرى أن أحذرك مرة أخرى، فليكن معلوماً أن ما ستراه عيناك لا يراه أحد ثم يعيش، لم أر في حياتي غير ثلاثة أقدموا على مواجهة هذه الساعة الرهيبة، ولكني لم أجد غير واحد منهم بقى على قيد الحياة عندما عدت إليه في الفجر.. وأما أنا فلم أجد في نفسي الجرأة على اقتحام هذا السبيل لأنه أعظم من أن تطأه قدما رجل مثلي.

فقلت:

– ليكن، إن نفسي متعطشة للعلم والمعرفة، وسأجازف.

فوضع الكاهن يده فوق رأسي، وباركني ثم انصرف. وشعرت أنني وحيد في الحرم المقدس مع (الأشياء) لا تمت إلى هذا العالم بصلة.. وساد السكون، سكون رائع، ومظلم كالظلمة التي تكتنفني.

وتكلمت، فعاد في جوانب المكان صدى كلماتي، وكان له وقع مروع لا يمكن احتماله.

وتساءلت: ترى ماذا سأرى؟ وهل سأموت، حتى في هذه الليلة التي أتمتع فيها بقوة الشباب، وفتوته؟ ما أروع عبارات التحذير والإنذار التي سمعتها!!

وانتابني الفزع، حتى لم أتمالك من التفكير في الهرب.. الهرب؟! ولكن إلى أين!! إن أبواب الهيكل موصدة، وليس في استطاعتي أن أجد منفذاً آخر للخارج، إنني الآن وحيد مع القوة الخفية التي ناديتها، ولكن قلبي كان طاهراً، عفيفاً، فلماذا أخاف؟! سأواجه الرعب الذي ينتظرني.. ولو هلكت.

وفجأة بدأ الهواء يهب، وحملقت في وجهي أعين متألقة، وهز نفسي همس غريب، وفي أحشاء الظلام كانت هناك أعمدة من نور، أخذت تتغير وتتبدل وتتحرك من هنا ومن هناك، وترسم رموزا غريبة لم أستطع حلها أو فهم كنهها.

وزادت سرعة الضوء، وتجمعت الرموز وتكومت ثم تلاشت، ولم تلبث أن ظهرت مرة أخرى، ودارت بسرعة أعظم من سرعتها الأولى، فلم أستطع أن أتتبعها، وعندئذ خيل إلي أنني أسبح في بحر من المجد، متلاطم الأمواج كالمحيط، فكنت ارتفع عاليا فوق اللجة ثم لا ألبث أن أهبط.

وأخيراً، بدأت الأنوار تخبو في مهب الهواء العنيف.

ثم وجدت نفسي في النهاية أشبه بكرة من نار، أو نجم في سماء ليل مظلم حالك. وفجأة ارتفع دوى موسيقى مفزعة تنبعث من مكان سحيق وسط

الظلام، وأخذ هذا الدوى يقترب رويداً رويداً، ويزداد وضوحاً وارتفاعاً، إلى أن اكتنفني من كل جانب وولد الذعر في قلبي، وسحرني أيضا.

وكما جاءت تلك الأصوات المروعة، لم تلبث أن أخذت في الإبتعاد حتى تلاشت تماماً، وتلتها أصوات أخرى متباينة فلبعضها رنين الجلاجل، وللبعض الآخر صوت الأبواق النحاسية، وبين هذه وتلك كنت أسمع نغمات حلوة فوق نغمات البشر، وقرع طبول يدوي كالرعد.

ثم تلاشت هذه الأصوات أيضا، وساد صمت مروع.

وبدأت قواي تخور، وشعرت بالحياة تفارقني، والموت يدنو مني في شكل سكون ووحشة، وأحسست ببرودة مخدرة تمشى في أوصالي.

ولكني كنت متمتعاً بقواي العقلية، فرحت أفكر. أدركت أنني أقترب وشيكاً من الحد الفاصل بين الموت والحياة، ولكن ما أرهب مثل هذا الإقتراب!

جاهدت لكي أصلي، ولكني فشلت، فما كان هناك وقت للصلاة، ولم ألبث أن شعرت بإطمئنان فكري، وانقشع عني الخوف والذعر، واستولى عليّ نعاس لا قرار له.

كنت أموت! أموت! ولا شيء غير ذلك!

بل كنت ميتا!

ثم حدث انقلاب، عادت إليّ الحياة، ولكن شتان بين الحياة الجديدة، والحياة التي ولت.

ووثبت واقفاً في ظلام المعبد، ولكن الظلام لم يحجب ما في جوفه عني، بل خيل كأن نوراً ساطعاً يغمر الغرفة، وما كان هناك نور.

وقفت، ولكن لم أكن أنا الواقف، وإنما هو كياني الروحي، فقد كنت أرى جثتي مرمية تحت قدمي، وكانت متصلبة، ترتسم على وجهها أمارات هدوء مروع. وأمعنت النظر إلى جثتي في ذهول، وتعجب.

وفجأة، وجدتني محمولاً على أجنحة من اللهب، اندفعت بي بسرعة البرق الخاطف، وانطلقت في أجواء فارغة إلى مسافات بعيدة، ثم هوت بي في النهاية إلى قرار سحيق، وظلت تهوى وتهوى آلافا من الأميال، حتى استقرت أخيراً في مكان غير محدود مضاء بنور لا يتغير، به هياكل، وقصور ومساكن لا يحلم بها البشر، وكانت جميعها مشيدة من اللهب، والظلمة، ترتفع مسلاتها في الفضاء إلى مدى بعيد، وتمتد أفنيتها إلى مسافات شائعة.

وبينا أنا محلق في الفضاء أخذت معالم الدنيا تتغير باستمرار، فكان اللهب يستحيل إلى ظلام، والظلام إلى ألسنة من نار، وكان بريق البلور ولمعان اللآلئ يلمع ويسطع هنا وهناك وسط البهاء الذي كان يكتنف مدينة الموتى، ثم رأيت أشجاراً لحفيف أوراقها صوت أشبه بنغمات الموسيقى، وهواء تشبه نسماته صوت الفناء.

وتمثلت أمامي أشكال غامضة غريبة، متغيرة، اندفعت نحوي، ثم رفعتني، وهبطت، حتى خيل إلي أنني استقر في أرض أخرى.

وصاح صوت عظيم:

– من جاء ؟

فأجابت الأشكال التي كانت دائمة التغير:

– أنه هارما كيس، هارما كيس الذي استدعى من الأرض ليشاهد وجه –التي كانت وكائنة وستكون– هارما كيس، ابن الأرض!

فصاح الصوت البغيض:

– افتحوا الأبواب، وأغلقوا شفتيه لئلا يعكر صوته موسيقى السماء الشجية، وأغمضوا عينيه لئلا يرى ما لا تجوز رؤيته، ودعوا هارما كيس الذي استدعى من الأرض يسير في السبيل المؤدي إلى المكان الذي لا يتغير، تقدم يابن الأرض، ولكن انظر أولا لكي تعرف المسافة التي ارتفعتها فوق الأرض.

فأطعت، ونظرت، فإذا بي أرى ظلاماً، يلمع في سمائه نجم صغير. ومست أذناي وعيناي وشفتاي فخيم عليّ السكون والظلام، فلا صوت يصل إلى مسمعي، ولا شيء تنعكس صورته فوق عيني..

وفتحت الأبواب، ودخلت مدينة الموتى.

ودفعت إلى الداخل دفعاً، فانطلقت على غير هدى، وأخيراً وقفت على قدمي، وصاح الصوت مرة أخرى.

– ارفعوا نقاب الظلمة عن عينيه، وأطلقوا لسانه، وافتحوا أذنيه لكي يتمكن هارما كيس ابن الأرض من أن يرى ويسمع ويفهم، ويقدم فروض العبادة في معبد –التي كانت وكائنة وستكون– فمست شفتاي وعيناي وأذناي مرة أخرى، فذهبت الغشاوة عن عيني، وعادت إلى حاسة السمع، وانطلق لساني.

ورأيتني واقفا في قاعة من الرخام الأسود، وكانت عظيمة الإرتفاع حتى لم أستطع أن أرى قباب سقفها برغم ضوئها الوردي، وكانت نغمات الموسيقى تتردد في جوانبها، بينا اصطفت على جانبيها أرواح من اللهب ذات أجنحة، بهرت عيني فلم أستطع النظر إليها.. وكان أمامي مذبح صغير مربع الشكل خال.

وصاح الصوت:

– يا أيتها التي كانت وكائنة وستكون، يا ذات الأسماء المتعددة، والتي لا اسم لها، يا رسول الإله.

إن هارماكيس المصري الذي استدعى من الأرض استجابة لرغبتك ينتظر الآن أمام مذبحك، بأذنين واعيتين وعينين مبصرتين، وقلب مفتوح.. اسمعي واهبطي!

وتلاشى صوت المتكلم، وساد الصمت.

ومن أحشاء السكون ارتفع صوت كهدير موج البحر، ثم تلاشى أيضاً، وعلى أثر ذلك رفعت يدي عن عيني، ولا أدري بأية قوة فعلت ذلك ونظرت فرأيت سحابة معتمة معلقة فوق المذبح، وكان يخرج منها ويدخل فيها ثعبان من نار.

وخرت الأرواح المنيرة ساجدة فوق أرض الغرفة، وشرعت تترنم وتبتهل، ولكني لم أفقه معنى ما تقول، وبعد هنيهة هبطت السحابة المعتمة واستقرت فوق المذبح، وتمدد الثعبان ولمس جبيني بلسانه المتشعب، ثم اختفى.

وسمعت صوتا يتكلم من جوف السحابة بلهجة رقيقة هادئة:

– انصرفوا أيها الخدم! دعوني مع ابني الذي استدعيته.. فتركت الأرواح الغرفة، كأسهم من نار تتطاير في الفضاء.

واستطرد الصوت:

– لا تذعر يا هارماكيس، فأنا التي تعرفونني في مصر باسم إيزيس، ولكن لا تحاول أن تعرف أسمائي الأخرى لأنها فوق مستوى إدراكك، أنا كل شيء، وروحي هي الحياة، وجسمي هو الطبيعة، أنا ضحكة الطفل وحب العذراء، وقبلة الأم، أنا ابنة "غير المرئي" وخادمته، وهو الإله والقانون، والقدر، وأما أنا فلست قانوناً، ولا قدراً، ولكنك تسمع صوتي إذا عصفت الريح، أو زمجر البحر.. وترى صورتي إذا نظرت إلى صفحة السماء المزينة بالنجوم، وإذا تفتح الزهر رأيت ابتسامتي، فالطبيعة لا تأويني، والذي أمر بأن تخلق أمر بأن أخلق أيضا.. فلا تخف رغم ما بيننا من فوارق، فإن رابطة الحياة المشتركة تربطنا معا..

فأطرقت.. وارتج عقلي، وقد عقل الرعب لساني..

وأردف الصوت:

– لقد تفانيت في خدمتي يا بني، وتقت إلى رؤيتي هنا في (أمنتي)، ولم تدخر وسعاً في تحقيق هذه الرغبة، وجازفت بإطلاق روحك من جسدك قبل الساعة المعينة فنعم الولاء، لقد استدعيتك إلي لكي أبادلك الحديث، كما حدثتني تلك الليلة فوق برج الهيكل في أبوثيس، أتذكر زهرة اللوتس التي وضعتها في يدك؟ إنها الدليل الذي كنت تطلبه، وقد قدمته إليك لأن دمك من دم الملوك، أبنائي الذين خدموني على مر الأجيال، نعم يا بني، سترتقي

ذاك العرش الملكي العظيم، وتعيد فروضي الدينية النقية، وتطهر هياكلي من الرجس والرياء، اللهم إلا أن فشلت في مهمتك العظيمة، وعندئذ لا يكون لروح إيزيس في مصر إلا مجرد الذكرى.

وكف الصوت عن الكلام.. فاستجمت قواي. وسألت:

– وهل سيكون نصيبي الفشل أيتها الأم المقدسة ؟

– لا تسألني عما لا يجوز أن أكاشفك به، قد يكون في وسعي أن أقرأ ما سيصيبك، وقد لا تسرني قراءته، وما فوزك وفشلك إلا مرجعهما إليك وحدك، وكيفما تكن أعمالك يكن مجدك أو عارك، إنني لا آبه كثيراً للنتائج، لأنني لست إلا منفذة لما هو مسجل، ومقدور، ولكني لن أتخلى عنك يا بني، فقد وهبتك حبي، ولا أستطيع أن أسترد ما وهبت، فاعلم إذن أنه بقدر فوزك سيكون جزاؤك، وأما إذا فشلت فسوف تكون العقوبة بنسبة الفشل، ولكن أعلم أيضاً أن العار والآلام لا تدوم، لأنه مهما كان الإنحراف عن الطريق السوي فإنه يوجد مع الشعور بالندم طريق شائك يمكن العودة منه، فلا تدخر جهداً فى تجنب سلوك هذا الطريق.

يا بني، إنك أحببتني وأنت تهيم في وادي الخيال الذي يفقد الناس أنفسهم فيه على الأرض، وأنا أيضاً أحبك، وأتطلع إلى ذلك اليوم الذي ستأتي فيه وتسكن في نوري مباركاً، أقول أنني لأجل هذا كله سأطلعك على الكلمة التي استدعى بها من المنتهى، والتي يستطيع أن يلجأ إليها ذاك الذي قابلني وجهاً لوجه ونظر إلى وجه إيزيس وإلى عيني الرسول دون أن يموت، كلما ألمت به شدة.

أنظر!!

وتلاشى الصوت الساحر، وتبدلت السحابة التي كانت تحلق فوق المذبح تدريجياًن إلى أن أبيضت ولمعت، واستحالت في النهاية إلى شكل امرأة ترتدي ثياباً، ثم زحف الثعبان من قلبها وأحاط برأسها على هيئة تاج.

وفجأة، نادى صوت بالكلمة الرهيبة فانفجرت الأبخرة، وانقشعت ورأيت بعيني رأسي ذلك "الجلال" الذي ترتعد فرائصي لمجرد ذكراه، ولكني لست في حل من تسجيل ما رأيت، فقد حُذرت من ذلك تحذيراً قاطعاً.

رأيت إذن ما لا يمكن أن يتصوره عقل بشر.

ولم يكد يتردد صدى "الكلمة" وتنطبع تلك الرؤيا على صفحة قلبي حتى خارت قواي، وسقطت أمام ذلك البهاء، وعندئذ خيل كأن الغرفة الكبرى قد انشقعت. وتهدمت واستحالت إلى شهب لامعة أحاطت بي.

ولم أع بعد ذلك.

الفصل السابع

تتويج هارما كيس

وعندما أفقت، ألفيت نفسي ممدداً على الأرض، في مقصورة إيزيس في مدينة أبوثيس، ورأيت الكاهن الشيخ واقفا بجانبي، وهو يحمل مصباحاً في يده.. ويمعن النظر في وجهي. وما إن فتحت عيني.. حتى هتف:

– لقد ولدت من جديد، فشكراً للآلهة على نعمها، انهض أيها الملك هارما كيس، لا.. لا تحدثني بشيء عما وقع لك، قم أيها المحبوب من الأم المقدسة، تقدم.. فقد اجتزت النار.. واطلعت على ما وراء الظلام.. تقدم أيها المبعوث من جديد!

فنهضت.. وانطلقت إلى غرفتي بخطى ثقيلة، وقد تبلبلت أفكاري واضطربت خواطري.

وتمددت فوق فراشي متعباً، مكدوداً، ولم ألبث أن استولى على سبات عميق، لم تتخلله رؤى مزعجة، ولا شبه مزعجة. وقد قضيت فترة من الزمن في عبادة الأم إيزيس، ودراسة الأشكال الخارجية للأسرار التي بيدي الآن مفتاحها، وتعلمت الأساليب السياسية، وكان كثيرون ممن يؤازرون حركة ارتقائي عرش مصر يفدون سراً لزيارتي من جميع الأنحاء، ويتحدثون إلي عن كراهية الشعب لكليوباترا الملكة.

ومضت ثلاثة شهور.

واجتمع مندوبو مصر العليا والسفلى للمناداة بي ملكا على عرش الفراعنة. وكان من المتفق عليه سلفا أن تقام الحفلة سراً، في معبد أبوثيس.

جاء نواب الشعب إذن من كل حدب وصوب، متنكرين في شتى الأزياء فكان بعضهم في ثياب كهنوتية، والبعض كحجاج إلى (المقدس)، والبعض في زي شحاذين، وكانوا في مجموعهم سبعة وعشرين نائباً.

ومع القادمين جاء خالي سيبا متنكراً في ثياب طبيب متجول، ولكني عرفته بمجرد أن سمعت صوته الجهوري ، وإذ لاقيته على ضفة الترعة، وناديته باسمه، صاح مأخوذاً.

– عفا الله عنك، ألا يستطيع الإنسان أن يتنكر ساعة واحدة؟ لقد بذلت جهداً عظيما في تغيير هيئتي، ومع ذلك فقد عرفتني لأول وهلة !!

وضمني إلى صدره باشتياق.. وأراد أن يرافقني إلى أبوثيس، ولكنني ذكرته بالدور الذي يلعبه، وكيف أنه لا يجب أن ينسى دقة موقفه حيال جواسيس الملكة كليوباترا الخطرين.

والتأم عقد الجميع.

كان الوقت ليلاً.، فأغلقت أبواب المعبد، ولم يسمح لأحد البقاء داخله غير السبعة والعشرين نائباً، وأبي أمينمحعت الكاهن الأعظم، والكاهن العجوز الذي رافقني إلى مقصورة إيزيس، والعجوز (اتوّا)، إذ كان عليها حسب العادات المتبعة أن تدهنني بالزيت، وخمسة كهنة آخرين أقسموا ذلك القسم الذي لا ينقض أن يكتموا السر.

كنت أجلس وحدي في الدهليز حيث نقشت أسماء ستة وسبعين ملكاً من الملوك الأقدمين الذين حكموا قبل سيتي المقدس، في حين اجتمع النواب في الغرفة الثانية من الهيكل القديم.

وبعد قليل، أقبل أبي أمينمحعت، وكان يحمل مصباحاً، ثم قادني من يدي إلى القاعة الكبرى. كانت الغرفة ضيقة الضوء، والنواب يجلسون فوق مقاعد صخرية ينتظرون قدومي، وأمام الهياكل السبعة، وضع عرش مرتفع، التف حوله الكهنة وهم يحملون الصور المقدسة والأعلام.

ولم أكد أطأ المكان المقدس بقدومي، حتى انبعث الرؤساء وقوفاً، وأحنوا رؤوسهم إجلالاً وتعظيماً.

وذهب بي أبي إلى العرش، وأمرني بصوت منخفض أن أقف أمامه، وتحول إلى المجتمعين.. وقال:

– أيها الأعيان والكهنة والأمراء، يا أبناء مصر القديمة، وأشراف مصر العليا والسفلى الذين لبوا ندائي، أصغوا إليّ، أقدم إليكم الأمير هارماكيس وارث عرش الفراعنة الأقدمين، وسليلهم بحق النسب والدم، أنه كاهن إيزيس المقدسة، والواقف على أسرارها العظيمة، والكاهن الوراثي للأهرامات القريبة من ممفيس، فهل يساور أحدكم الشك في صحة نسبه؟

فانبعث خالي سيبا واقفاً وقال:

– لم نجد شيئا يخالف ما قلت في السجلات التاريخية، ولا ريب أن نسبه لا غبار عليه.

فتابع أبي:

– هل فيكم من يرتاب في أن الأمير هارماكيس انضم إلى الأم إيزيس بموافقة الآلهة، وأن الطريق قد فتح له إلى أوزوريس، وسمح له بأن يكون الكاهن الأعظم للأهرامات المجاورة لمفيس وهياكل الأهرامات؟

فنهض الكاهن العجوز الذي رافقني إلى مقصورة المعبودة إيزيس.. وقال:

– لا.. ليس فينا من يرتاب في ذلك أمينمحعت.. إنني أعرف كل شيء عن ذلك حق المعرفة.

فقال أبي:

– إذن فقد توفرت الشروط في الأمير هارماكيس، سليل (تخت– نف) لتتقدم العجوز (اتوّا)، ولتحدثكم عن النبوءة التي فاهت بها زوجتي عن هذا الأمير عندما حضرتها الوفاة.

فبرزت المرأة من ظلال الأعمدة، وأعادت على مسامع الحاضرين النبوءة التي نطقت بها أمي قبيل وفاتها.وإذ فرغت العجوز من سرد قصتها، نهض خالي سيبا مرة أخرى، وقال:

– أيها الأمير هارماكيس، لقد اجتمعنا هنا لكي ننادي بك ملكاً على مصر العليا والسفلى، بعد أن تنازل لك أبوك المقدس أمينمحعت عن جميع حقوقه، وبعد.. إننا لم نجتمع هنا بتلك الروعة والفخامة اللتين كان يجب إظهارهما في هذه المناسبة، فإن ما نفعله الآن يجب أن يبقى طي الكتمان وإلا

فقدنا أرواحنا، وضاعت قضيتنا التي نقدسها أكثر من أرواحنا ولكننا –مع ذلك– قمنا بواجب التكريم، وراعينا التعاليم الدينية القديمة بقدر المستطاع، ففكر في الأمر أيها الأمير، فإذا وافقت على عملنا، اصعد إلى عرشك يا فرعون وأقسم اليمين.

لقد عانت مصر الأمرين تحت حكم اليونانيين، وكم انتفضت جزعاً وفزعاً عند رؤية خراب الرومان، وكم تدنست آلهتها القديمة.. ولكن ها هي ذي ساعة الخلاص والحرية قد حانت..

أن عشرين الفا من الرجال المخلصين قد أقسموا لك يمين الطاعة والولاء وهم على ساتعداد لأن يهبوا كرجال عند أول كلمة تصدر من فمك، ليقضوا على الأغريق، ويقيموا لك عرشا فوق اشلائهم وجثثهم.. عرشا أثبت أساسا من أهرامات مصر القديمة، يصد عنها جموع الرومان. ويدفعها دائما إلى الخلف.. أما أشارتك فستكون قتل تلك البغي كليوباترا.. وهو أول عمل ينبغي أن تقوم به يا هارما كيس طبقا للخطة التي ترسم لك. قوبلت هذه الكلمات الحماسية بعاصفة من التهليل والاستحسان. فصحت:

– كفى! كفى! أبكم حاجة إلى شحذ عزيمتي بهذه الكلمات؟! وهل يرتاب أحدكم في أنني أرغب ببذل ألف حياة على مذبح تحرير مصر؟

فهتف خالي سيبا:

– أحسنت! أحسنت! رافق هذه المرأة (اتوّا)، لكي تطهر يديك قبل أن تمس الرموز المقدسة.. وتدهن جبينك بالزيت قبل أن يوضع فوقه التاج..

فانطلقت برفقة (اتوّا) إلى غرفة منعزلة، حيث أفرغت المرأة ماء نقياً

على يدي من وعاء من الذهب.. وكانت تصلي.. ثم غمست قطعة من القماش الرقيق في الزيت، ودهنت به جبيني وقالت:

– أيها الأمير السعيد، الذي خلق للمجد والسعادة والحب.

فقلت وقد ضايقني كلامها:

– صه! صه! لا تقولي أنني سعيد حتى تعلمي نهايتي، ولا تذكري شيئاً عن الحب لأنه من الحب تتولد الآلام والأحزان، وأما أنا فأسلك سبيلاً آخر أعظم شأنا من هذا الذي عنه تتحدثين.

– نعم.. نعم.. هذا ما تقول، ولكن السرور يأتي مع الحب، فلا تستخف بالحب يا مليكي لأنه هو الذي جاء بك إلى هذا المكان، وما أصدق السكندريين حيث يقولون «إن الأوزة الطائرة تسخر من التمساح ولكن التمساح هو الذي يسخر منها وهي نائمة فوق سطح الماء»، وما كانت النساء إلا تماسيح جميلة.. والرجال يعبدون "التماسيح" في "مدينة التماسيح"، بيد أنهم يعبدون المرأة في جميع بقاع العالم، والآن لقد تطهرت من كل رجس يا سيد التاج المزدوج.. فاذهب!!

فتركت الغرفة وكلمات المرأة الحمقاء تدوي في أذني، ولا ريب أنها كانت كلمات تنطوي على الحكمة، وحسن التبصر بالأمور.

ولما دخلت على النواب هبوا وقوفاً إجلالاً وتعظيماً، وأحنوا رؤوسهم أمامي احتراماً، ودنا أبي مني ووضع في يدي تمثالاً من ذهب يمثل الإلهة (ما) إلهة الحق، وتماثيل ذهبية أخرى للمعبود (أمون– رع) والمعبود (موت)، والمعبود (خونس)، ثم قال بصوت متزن رزين:

– هل تقسم بجلال (أمون– رع) و(موت) و(خونس)؟

– نعم أقسم..

– وهل تقسم، وأنت تذكر المصير المخيف الذي ينتظرك إذا فشلت، أن تحكم مصر حسب قوانينها القديمة، وأن تحافظ على عبادة آلهتها، وأن تحكم بالعدل، وألا تخون بلادك! وألا تتحالف مع الرومان أو الإغريق.

– نعم أقسم.

– هذا حسن، إذن ارتق العرش حتى أنادي بإسمك "فرعونا" أمام هؤلاء الرعايا المخلصين.

فأطعت.. وتقدم أبي، ووضع الثعبان الملكي على جبيني، وتاج مصر المزدوج فوق رأسي، والعباءة الملكية على منكبي، ثم سلمني صولجان الملك، والسوط.

ثم بدأ الجميع يقسمون يمين الولاء بين يدي، كل واحد بدوره. وتقدم أبي، واقسم بدوره يمين الإخلاص، ثم تناول يدي وقادني في صدر موكب رهيب إلى الهياكل السبعة، وطاف بي في أرجائها، وأنا أقدم القرابين في كل منها، وأحرق البخور وأبتهل بوصفي كاهناً، ثم قدمت القرابين على مذبح "أوزوريس" و"آمون– رع" و"بتاع" حتى بلغت في النهاية إلى مذبح غرفة الملك.

وهنا قدموا إلى القرابين بوصفي فرعون مصر المقدس.. ثم انصرفوا لشأنهم وخلفوني منهوك القوى، ولكنني ملك!!

(إلى هنا انتهى ما جاء في الملف الأول من أوراق البردي.. وهو أصغرها).

القسم الثاني

سقوط هارما كيس

الفصل الأول

هارما كيس في الأسكندرية

حان وقت العمل.. لقد رُسمت كاهناً أعظم، وتوجت فرعوناً، ومع أن الشعب كان لا يزال يجهلني، أو فقط يعرف أنني كاهن إيزيس، فقد كان هناك ألوف من الناس ينحنون لي احتراماً بوصفي فرعون مصر.وأذنت الساعة أخيراً، وكنت أتحرق شوقا للقضاء على الأجنبي، وتحرير مصر من العبودية، وارتقاء العرض الذي آل إليّ بالوراثة، وتطهير هياكل آلهتي.

أمعنت النظر إلى هيئتي في المرآة، فرأيت النصر مسطراً فوق جبيني، والمستقبل يمهد لي سبيل السيادة والعظمة.

ووقفت أمام تمثال أمي إيزيس وناجيتها، ثم انفردت بنفسي في غرفتي، ورسمت الخطة لبناء هياكل جديدة، وسن تشريعات تعود على شعبي باليسر والرخاء. وقد حتمت علي فروض الكهنوت، أن أطلق لحيتي، وواجبات الملك أن أتدرب على الحركات العسكرية المختلفة، واستعمال الأسلحة، كما تضلعت في العلوم القديمة -لأسباب ستأتي فيما بعد- وقراءة النجوم.

وكانت الخطة التي تم الإتفاق عليها تتلخص فيما يلي:

اعتزل خالي سيبا العمل في هيكل (آنو) مؤقتاً، بدعوى اعتلال صحته، ورحل إلى الإسكندرية للحصول على الشفاء على حد قوله، وليشاهد عجائب المتحف العظيم، ومجد بلاط كليوباترا.

وقد تم الاتفاق على أن الحق به في الاسكندرية حيث كانت تحاك خيوط المؤامرة.

ومضت فترة من الزمن، وجاءتني دعوة خالي المترقبة، فتأهبت للرحيل، وذهبت لوداع أبي، فوجدته جالسا في غرفته، كما رأيته يوم زجرني لذهابي لصيد الأسد.

وإذ دخلت عليهن نهض عن مقعده، وأراد أن يركع أمامي، وهو يقول:

– السلام لفرعون!

فقبضت على يده وقلت:

– أبي هذا لا يجوز!

فقال:

– لا.. بل يجوز جداً فأنا الآن أجثو أمام مليكي، ولكن على رسلك.. هل نويت الرحيل يا بني؟ لتحل عليك بركتي، ولتهبني الآلهة القوة حتى أراك جالسا على عرشك، لقد حاولت وأفرغت تجارب السنين، وعصارة العلوم التي أحطت بها في الوقوف على ما كتب لك في مستقبل أيامك ولكني برغم ذلك كله لم أفز بطائل، ولست أكتمك بأني أحس ألما في بعض الأحايين، وأرى لزاما عليّ أن أنبهك إلى أن الطريق وعر شائك، محفوف بالأخطار والمهالك، وسيأتي الخطر في شكل (امرأة)!! لقد علمت ذلك منذ أمد بعيد وهذا ما حفزني على دعوتك لعبادة (إيزيس) المقدسة، التي تأمر عابديها أن يجعلوا بينهم وبينها سداً لا يتخطوه إليها، إلى أن يحين الوقت الذي تراه

ملائماً لتخفيف القيد، آه يا بني، وددت لو أنك كنت أقل جمالاً منك الآن، فأخوف ما أخاف أن يكون جمالك هذا حجر عثرة في طريقك، حذار يا بني من فاتنات الإسكندرية خشية أن تتسلل إحداهن كالدودة إلى قلبك، وتنتهك حرمة أسراره.

فعبست وأجبت:

– لا تخش شيئاً يا أبي، فإن لي من واجبي ما يصرفني عن التفكير في الثغور الباسمة والعيون الفتاكة.

– حسنا.. الوادع إذن يا بني، وأضرع إلى الآلهة ألا نلتقي ثانية إلا في تلك الساعة السعيدة التي انطلق فيها من أبوثيس في رهط من كهنة مصر العليا لنقدم لك فروض الولاء والإحترام، وأنت جالس على عرشك..

فعانقته ثم انصرفت.

وفي الليلة العاشرة لرحيلنا، وصلنا إلى مدينة الإسكندرية، تلك المدينة العظيمة ذات الألف مصباح، التي يعلوها ويكسف نورها ذلك المنار الأبيض، أحدى عجائب الدنيا، وهو فنار ينبعث من قمته ضوء مثل ضوء الشمس فوق مياه الميناء لهداية السفن في الليل.ونزلت إلى البر، ووقفت وأنا في حيرة من أمري، أقلب الطرف حولي وأنصت بدهشة إلى مختلف اللغات واللهجات التي كان يتحدث بها أهلها.

وبينما كنت واقفا اقترب مني شاب، وضع يده على عاتقي ثم سألني:

– هل أنت الأمير هارما كيس القادم من أبوثيس؟

فأجبت:

- نعم..

فمال فوق أذني، ونطق بالكلمة السرية، ثم أومأ إلى عبدين، وأمرهما بأن يحملا أمتعتي من السفينة.

وعاد العبدان بعد هنيهة، فانطلقنا جميعاً نحو شاطئ الميناء العظيم، ثم انعطفنا إلى اليمين، واستأنفنا السير في طريق واضح، مرصوف بالجرانيت، وعلى جانبيه منازل فخمة لم أر لها مثيلاً..

ووصلنا إلى حي هادىء من المدينة، ولم يلبث أن وقف رفيقي أمام منزل مشيد بالطوب الأبيض.. فعبرنا بابه الخارجي إلى ردهة صغيرة، ثم دخلنا غرفة مضاءة بمصباح وكان يجلس فيها خالي سيبا..

واستقبلني خالي مسروراً، وكاد يرقص من الطرب..

وبعد العشاء جلسنا نتجاذب أطراف الحديث، فأنبأني خالي أن كل شيء يسير في الطريق المرسوم له، وأن رجال البلاط لم يوجسوا خفية حتى الآن، وقال إن الملكة كليوباترا سمعت بمجيء كاهن معبد (آنو) إلى الاسكندرية، فأرسلت تستدعيه إليها، وأمطرته بوابل من أسئلتها، لا عن الدسائس.. فهي لم تكن تعلم عنها شيئاً، وإنما عن الإشاعة التي تطايرت عن وجود كنز مخبأ في الهرم الأكبر المجاور لمدينة (آنو).

كانت كليوباترا امرأة مبذرة مسرفة، لا تكف عن طلب المال، فخطر لها أن تفتح الهرم الأكبر وتضع يدها على الكنز.

وقد ضحك خالي سيبا من قولها، وأخبرها أن الهرم الأكبر هو مدفن الملك خوفو المقدس، وأنه لا يعرف شيئاً عن أسراره؛ فغضبت كليوباترا من جوابه، وأقسمت أن تهدم الهرم من أساسه، كي تكشف عما في جوفه من أسرار، فضحك سيبا مرة أخرى، وردد على مسامعها القول المأثور: «إن الجبال تعمر أكثر من الملوك»، فأبتسمت وسرتها سرعة بديهته وأذنت له بالإنصراف.

وأضاف خالي بأنه ستتاح لي فرصة رؤية كليوباترا هذه في اليوم التالي، وهو يوم ميلادها! كما كان يوم ميلادي أيضا.. وأنها سترتدي ثياب إيزيس المقدسة، وتغادر قصرها في موكب رسمي، إلى (السرابيوم) لتقدم ذبيحة في معبد اللإله الكاذب الجالس في الهيكل، ثم قال أنه يجب أن ترسم الخطة التي تمهد لي سبيل الدخول على الملكة بعد ذلك.

ولكنني كنت متعباً مكدوداً، فاتفقنا على تأجيل الحديث في ذلك إلى الوقت المناسب، ومن ثم قمت إلى مخدعي، وتمددت على الفراش أنشد النوم، ولكنه لم يطرق جفني إلا غراراً بسبب غرابة المكان، وجلبة الشوارع.

وقد استيقظت من نومي قبيل الفجر، وصعدت إلى سطح المنزل، وقلبت الطرف حولي في مدينة الإسكندرية العظيمة، وقد بدت في ثوب أرجواني أشبه بثياب الملوك.وابتهلت إلى الأم إيزيس المقدسة، ثم هبطت إلى غرفة خالي، فاستقبلني سائلاً:

– ما رأيك في مدينة الإسكندرية ؟

– إنها تشبه إحدى مدن الآلهة.

فصاح بحدة:

– نعم.. إنها مدينة الآلهة الجهنمية، بؤرة الفساد، ومنبع الظلم، مدينة الأديان الكاذبة التي تؤمن بها قلوب فاسدة، بودي لو دكت من أساسها وألقيت ثروتها في أعماق البحر، وكم أتمنى من صميم قلبي أن ينعق البوم بين أطلالها! لا تجعل أيها الأمير هارماكيس جمال الاسكندرية يخدر أعصابك، أو يصرفك عن واجبك النبيل، فهي مقبرة كل إيمان، وحذار أن تستهويك خلاعة نسائها، أو جمالهن، واجعل نصب عينيك، حين تأتي الساعة، أن تضع عرشك بين أسوار مدينة ممفيس البيضاء تشبهاً بأجدادك الفراعنة العظام.

فلذت بالصمت، وما كان في استطاعتي أن أجيب وأنا أعلم أن ما قاله هو عين الصواب.

وأفطرنا ثم أخبرني خالي أن الوقت قد حان للخروج لشهود موكب كليوباترا، وهي في طريقها إلى معبد (سرابيس).

وكان خالي قد استأجر مقعداً خشبياً عند باب (كانواب)، واستطعنا أن نصل إليه بعد مشقات وطول عناء، وكان المقعد مظللاً بقماشٍ أرجواني، فجلسنا وانتظرنا طويلاً.

وأخيراً جاء الجنود ليفسحوا الطريق للموكب، وهم في ثياب الرومان ويلبسون الدروع، ومن بعدهم أقبل الرسل، وطلبوا إلى الشعب أن يلزم الصمت لأن كليوباترا على وشك الوصول.

وبدت طلائع الموكب على بعد، وأقبل ألف جندي من الصقليين يتبعهم ألف من جنود تراقيه، وألف من المقدونيين، ومثلهم من الغاليين وكل فريق منهم

يرتدي ملابس بلاده الرسمية، وفي أعقاب هؤلاء جاء خمسمائة فارس، يرتدون وجيادهم دروعاً، وعلى أثرهم فوج من الغلمان والجواري وهم يرفلون في حللٍ فاخرة، ويضعون التيجان الذهبية على رؤوسهم، ويحملون التماثيل التي ترمز إلى الليل والنهار والصباح والظهر والسماء والأرض، ومن بعدهم أقبلت طائفة من فاتنات النساء كن ينثرن الزهور، ويسكبن الروائح العطرية على جانبي الطريق.

وهنا. تعالت أصوات الجماهير صائحة: «كليوباترا! كليوباترا!».

فانحنيت إلى الأمام، وحبست أنفاسي، لأرى تلك التي بلغت بها الجرأة أن ترتدي ثياب الأم إيزيس المقدسة، ولكن الزحام كان شديداً، فلم أستطع أن أرى شيئاً، ولم أجد مفراً من أن أضحي بمكاني ونهضت واقفاً ودفعت بمنكبي الجماهير حتى بلغت الصف الأمامي.

وأقبلت في تلك اللحظة مجموعة من زنوج النوبة، يحملون في أيديهم هراوات غليظة، وحملوا على المتفرجين بقوة، وكان أغلظهم قلباً زنجي مارد، لم يتورع عن استعمال هراوته بكل وحشية وقساوة.

واتفق أن كانت امرأة مصرية تقف بجواري، وهي تحمل طفلها على ذراعها، فهوى الجبار بهراوته فوق رأسها، فانكفأت على وجهها بين صرخات الاستياء من الجمهور.ساءني هذا المنظر، وثار الدم في عروقي ولم أتمالك شعوري، فرفعت الهراوة التي كنت أحملها في يدي وهويت بها بكل قوتي بين منكبي الزنجي فانفجر الدم من جسمه، ولوث ثيابه.

وصرخ الزنجي من شدة الألم، وتحول إليّ وشرر الغضب يتطاير من عينيه، ثم انقض عليّ كوحش كاسر أحيط به، فارتد الجمهور إلى الخلف.

ولم أتمهل أو أتريث وعاجلته بلطمة من قبضتي بين عينيه! فتمايل وترنح، وهلل الناس ابتهاجا بفوزي، فقد كان الزنجي مشهوراً بقوة الشكيمة، وشدة المراس.

وسب الجبار وشتم ثم استجمع قواه، وهجم عليّ بهراوته مرة أخرى، وسدد إليّ ضربة قاتلة، ولكنني تفاديتها ببراعة، فارتطمت هراوته بالأرض وتهشمت وتناثرت أجزاؤها.

وهلل المتفرجون، واشتدت سخريتهم، فزاد ذلك في غضب الزنجي فانقض علي للمرة الثالثة وقد أعماه الحقد عن كل شيء، فصرخت في وجهه صرخة داوية، وأطبقت على عنقه وتعلقت به.

ولم يجد الرجل سبيلاً إلى التخلص مني سوى أن يلقي بنفسه فوق الأرض بيد أنني ازددت تشبثا بعنقه، حتى خارت قواه، فوضعت ركبتي فوق صدره وضغطت بكل قوتي حتى كدت أزهق روحه، لولا أن هب خالي سيبا وبعض المتفرجين لنجدته، فرفعوني عنه.

وكانت مركبة كليوباترا قد وصلت في تلك اللحظة، تتقدمها الفيلة وتسير خلفها الأسود، فانبعثت واقفاً على قدمي.ونظرت إلى المركبة، وأنا ألهث إعياءاً، وقد أصبت بجروح عديدة في جسمي، وتلوثت ثيابي البيضاء بدم الزنجي، فرأيت كليوباترا لأول مرة، وهي في مركبتها المصنوعة من خالص الذهب، يجرها جوادان ناصعا البياض.

كانت تتوسط المركبة، وعلى جانبيها جاريتان حسناوتان، في ثياب يونانية وهما تروحان لمولاتهما بمراوح مرصعة باللآلىء، وقد وضعت كليوباترا

على رأسها غطاء إيزيس، وهو ذو قرنين من ذهب بينهما قرص القمر المستدير، ورمز عرش أوزوريس، وقد التف حوله الثعبان الذهبي الملكي، وتحت هذا الغطاء القلنسوة الذهبية، والجناحان الزرقاوان، المطعمان بالميناء، ورأس العقاب بعينيه المتلألئتين، وأما جدائل شعرها الطويل فكانت تتماوج من تحت تاجها حتى قدميها، وحول عنقها المستدير (طوق) من الذهب مرصع بالجواهر، وحول ذراعيها ومعصميها أساور من ذهب مرصعة بالياقوت والمرجان، وتحمل في إحدى يديها صليب الحياة المقدس المصنوع من البلور، وفي الأخرى صولجان الملك الذهبي.

كانت عارية الصدر، وأما ثوبها فكان يلمع كالصدف، وقد نثرت عليه اللآلئ النادرة، وتحت هذا الثوب قميص مذهب أخفيّ جزء منه بوشاح من الحرير المنقوش يتدلى إلى نعليها، وقد ربطا بللآلئ كبيرة.

ورفعت عيني إلى وجهها، ذلك الوجه الذي أسر قيصر، وجر المصائب على مصر، وقدر عليه أن يقدم صولجان العالم لأكتافيوس.

وأمعنت النظر إلى تقاطيع الوجه الإغريقي الساحر، إلى الذقن المستديرة، والشفتين الرقيقتين، والأنف الدقيق، والأذنين الصغيرتين، والجبين العريض، والشعر الأسود اللامع، والحاجبين المقوسين، والأهداب الطويلة المقوسة، والقوام الممشوق، والعينين المتألقتين، اللتين يخيل إلى الناظر إليهما أنهما تحجبان تحت جفنيهما أسراراً.

كانت شعلة متوقدة، لا مثيل لها بين النساء، ولا أخالني بالرغم من هذا الوصف الدقيق قد أتيت على كل ما كانت عليه من جمال وجلال، وحتى

تلك اللحظة فقط أدركت أن قوة جاذبيتها وجمالها ليست كامنة في ملامحها الفتاكة، بل في ذلك المجد الذي يحيط بها ويتجلى من خلال هيكلها.

لقد جمعت كليوباترا كل سحر منح للمرأة، كما وهبت عقلاً راجحاً، وحكمة عظيمة، ولكنها كانت موفورة الدهاء والخبث لا تخشى شيئاً ولا تقيم وزناً لشريعة أو قانون، فاتخذت من الممالك والبلدان مسارح لأجا لهوها وعبثها، وروت حقل رغباتها وأهوائها بدماء الرجال الزكية، وهي تبتسم.

تركزت كل هذه الرغبات والأهواء في صدرها، فأبرزت إلى العالم تلك المرأة الجياشة العواطف، الملتهبة الحواس، التي سميت كليوباترا ، فلم يتمكن رجل من استمالتها أو قهرها، وما كان أشق على المرء حين يراها أن ينساها أو يسلوها.

لقد كونتها الطبيعة عظيمة كالصاعقة، قوية السحر كلمعان البرق، فتاكة كالوباء، ومع كل هذا كان لها قلب ينبض بالحرارة والحياة.

إلتقت عيناي بعينيها لحظة عندما انحنت في مقعدها إلى الأمام لترى مصدر الجلبة، كانت عيناها شبه مغلقتين باديء ذي بدء، ولكنهما لم تلبثا أن استيقظتا، وخيل كأن صفاءهما قد تعكر، كما يتعكر صفاء البحر إذا اضطربت مياهه، فانبعثت من عينيها نظرة غضب صارم، لم يلبث أن استحال إلى دهشة شديدة حين وقع بصرها على النوبي الجبار، وهو ممدد فوق الأرض، يخور كالثور.

والتفتت كليوباترا إلى حراسها، وألقت عليهم بعض الأوامر، فاقبلوا نحوي، وقادوني إليها، فحبس الجميع أنفاسهم وهم يتوقعون هلاكي.

ووقفت أمامها معقود الساعدين فوق صدري، ولا شك أنني أخذت بهذا الجمال، ولكنني أحسست بالبغض يطغى على كل مشاعري، نعم نقمت عليها لجرأتها على ارتداء ثياب إيزيس، واغتصابها عرشي، وتبذيرها أموال وطني وثروته في شراء المركبات الذهبية، والروائح العطرية.ورمقتني كليوباترا بنظرة فاحصة.. ثم قالت في صوت متزن باللغة المصرية التي تعلمتها من دون ملوك الإغريق:

– من أنت؟ وماذا تكون أيها المصري؟ وكيف تجرأت على ضرب عبدي أثناء سيري خلال مدينتي!

فأجبتها في ثبات:

– أنا هارما كيس، هارما كيس الفلكي، ربيب الكاهن الأعظم لمعبد أبوثيس، وحاكم المدينة، جئت إلى هنا سعيا وراء عمل، وقد ضربت عبدك أيتها الملكة لأنه اعتدى على تلك المرأة لغير ما سبب، ولك أن تسألي من شهدوا قسوته يا ملكة مصر.

فقالت بصوت هاديء:

– هارما كيس؟! لهذا الاسم وقع عظيم في السميع، كما أن لمنظرك وقع عظيم في النفس.

وطلبت إلى جندي رأي الحادث أن يقص عليها ما حدث ففعل، ومن ثم تحولت كليوباترا إلى الجارية التي كانت تروح لها، وتحدثت إليها، وكانت فتاة ذات شعر مجعد، وعينين سوداوين، وجمال ملحوظ.

وأجابتها الجارية على سؤالها، فأمرت كليوباترا أن يأتوها بالزنجي، فجيء به، ومعه المرأة التي ضربها.

وقالت كليوباترا بصوتها الهادئ الرزين:

– أيها النذل! كيف سولت لك نفسك أن تعتدي على امرأة ضعيفة، وماذا تقول أيها الجبان في موقفك المزري من هذا الشاب الذي ألقى عليك درسا من جنس عملك؟ أنظر!! سألقنك بدوري درساً لا تنساه، أيها الحراس ابتروا يده اليمنى.

واعتدلت في مجلسها، وبدا الفتور على سحنتها..

وانقض الجنود على الزنجي، فاعتقلوه، وبتروا يده اليمنى بالسيف، ثم حملوه بعيداً وهو يئن ويتوجع.

واستأنف الموكب سيره بعد ذلك، وقد لاحظت أن حاملة المروحة التفتت نحوي وابتسمت، ثم أحنت رأسها دليلاً على الرضا، فحرت في تأويل هذه الإشارة، ولم أدر ما تريد.

وهتف لي الشعب، وقال بعضهم أنني سأحتل منصب الفلكي في قصر الملكة عما قريب، ولكن سرعان ما جذبني خالي سيبا من ذراعي، وراح يؤنبني على تهوري واندفاعي، بيد أننا لم نكد ندخل إلى غرفته حتى عانقني جذلاً، وهنأني بانتصاري على المارد الجبار.

الفصل الثاني

غضة سيبا



وفي أثناء تناولنا العشاء في الليلة عينها، طرق باب المنزل، ولما فتح نفذت منه فتاة تتشح برداء طويل، يشملها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، فلا يكاد الإنسان يتميز ملامح وجهها. نهض خالي لاستقبال القادمة، فنطقت الفتاة بالكلمة السرية، وقالت بصوت عذب حنون:

– لقد جئت يا أبي، رغم ما لاقيت من عناء في الإفلات من الحفلة التي يقيمونها الآن في القصر، ولكنني قلت للملكة أنني أشعر بصداع، فأذنت لي بالإنصراف.

فقال سيبا:

– حسناً اخلعي رداءك فأنت هنا في أمان.

فخلعت الفتاة رداءها بضجر، فإذا بي وجهاً لوجه أمام الفتاة التي كانت تروح لكليوباترا في المركبة، وهي حسناء الوجه، ترتدي ثياب الإغريق الأنيقة، معتدلة القوام، بينما كانت جدائل شعرها معصوبة برباط من ذهب، وأما وجنتاها فكانتا متوردتين كالزهرة.

وعبس خالي عندما وقع بصره على ثيابها.. وسألها بخشونة:

– لماذا جئت في هذه الثياب يا شارميون؟ ألا تلائمك ثياب أمهاتك؟ ليس هذا وقت إظهار المحاسن النسوية، ولا مكانه، إنك لم تأت إلى هنا للتسلط بل للإذعان.

فأجابت الفتاة بصوت رقيق:

– لا.. لا تغضب يا أبي، ربما تعلم أن التي أخدمها لا تميل إلى لباسنا المصري، لأنه قديم على حد قولها، وارتدائي إياه يثير حولي الظنون والريب، ثم جئت على جناح السرعة فلم أستطع استبدال ثيابي.

وفيما كانت الفتاة تتحدث، لاحظت أنها تراقبني خلسة من خلال أهدابها الطويلة.

وقال خالي بصرامة، وهو يطيل النظر إليّ:

– حسناً.. حسناً.. ولكن اذكري أبداً قسمك أيتها الفتاة، والقضية التي وهبت نفسك لخدمتها، وليكن معلوماً إنك إن نكثت عهدنا فسيحل بك انتقامنا، وانتقام الآلهة!!

وارتفع صوته حتى بلغ مرتبة الصراخ، واستطرد:

– إنك خلقت وأنشئت لهذه المهمة يا شارميون، ولأجل هذا الهدف تعلمت، ووضعت في المكان الذي تشغلينه الآن، فاستميلي تلك البغي الفاجرة التي تتظاهرين بخدمتها، وحذار أن تدعي أبهة القصر وفخامته يصرفانك عن واجبك المقدس، أو يفسدان نقاء قلبك.

واتقدت عيناه، وخيل لي كأن جسمه الضئيل قد نما بجلال وعظمة، وتقدم من الفتاة ورفع إصبعه في وجهها متوعداً، ثم أردف:

– شارميون.. اعلمي أنني تساورني الريبة في أمرك أحيانا، ومنذ ليلتين رأيتك في منامي واقفة في صحراء تضحكين، ثم رفعت يدك إلى السماء،

فسقطت منها قطرات من الدم، غطت أرض مصر، فمن أين هذا الحلم أيتها الفتاة وما معناه؟ ليس لدي ما آخذه عليك في الوقت الحاضر، ولكن حذار، وإلا قطعت أوصالك هذه التي تعجبين بها، ومثلت بجسدك برغم حبي لك، وانتمائك إليّ دماً ولحماً.

وكف عن الكلام، وخمدت ثورة غضبه، ولكنني أدركت لأول مرة مدى حماسة هذا الرجل النحيل، ومبلغ توقد ذهنه! وتشبثه بالغرض الذي يسعى إليه.

وأما الفتاة فقد انكمشت مذعورة، ثم غطت وجهها بيديها، وانتحبت.

ثم قالت:

– لا.. لا تتكلم هكذا يا أبي، إذ أي شيء فعلت حتى استحققت غضبك؟ لست أري شيئاً عن حلمك هذا، لكن.. ألم أنفذ كل شيء طبقاً لرغباتك! ألم أحافظ على القسم الرهيب؟ ألم ألعب دور الجاسوسة، وأطلعك على كل شيء؟ ألم أستمل قلب الملكة إلي، حتى باتت تحبني، ولا تمسك عني شيئا، كما استملت قلوب حاشيتها؟ فلم التهديد، والوعيد؟!

وانتحبت مرة أخرى، فزادها البكاء جمالاً وملاحة.

فقال خالي:

– كفى.. كفى، لقد قبلت ما قلت، فكوني على حذر، ولا تأتي إلينا مرة أخرى بهذه الثياب الخليعة الماجنة، انظري أيتها الفتاة، هو ذا ابن عمك، ومليكك.

فكفت الفتاة عن البكاء، وجففت عينيها، وطأطأت رأسها أمامي ثم قالت:

– أكبر ظني أنك ابن عمي المحبوب الأمير هارماكيس.

فقلت وقد اصطبغت وجنتاي بحمرة الخجل، فما حدثت فتاة لها مثل هذا الجمال الساحر من قبل:

– نعم يا ابنة عمي، هل كنت أنت رفيقة كليوباترا اليوم في المركبة؟ فلمعت عيناها ببريق الغبطة، وتلاعبت على شفتيها ابتسامة عذبة، وأجابت:

– نعم، كانت شجاعة منك أن تقدم على مقاتلة ذلك الوحش الضاري، وقد شاهدت المعركة، ومع أنني لم أكن أعرفك، فقد أشفقت على بطل مثلك أن يصيبه أذى، فأوعزت إلى كليوباترا أن تأمر حراسها ببتر يده، ولو قد علمت حقيقة نسبك لأوعزت إليها بقتله.

وابتسمت.. فتدخل خالي في الحديث قائلا:

– كفى.. كفى، إن وقتنا لا يتسع لمثل هذا الحديث، فقصي ما لديك من أنباء يا شارميون، وانصرفي.

فتبدل حال الفتاة، ووضعت يديها فوق صدرها، وقالت:

– ليصغ فرعون إلى جاريته، إنني ابنة عم فرعون شقيق أبيك، الذي مات منذ أمد بعيد، فدم ملوك مصر إذن يجري في عروقي، وأنا أيضا ممن يعتنقون الدين القديم، ويمقتون هؤلاء اليونانيين، ولا غاية لي أعظم من أن أراك جالسا على عرش أجدادك، وقد نبذت مكانتي السامية، وقبلت أن

أكون خادمة لكليوباترا، رغبة مني في تحقيق الغرض السامي الذي وهبت له نفسي، واستطعت أن أمهد لك الطريق الذي يؤدي إلى العرش.

تقضي المؤامرة المدبرة بأن تدخل القصر في الوقت المناسب لتقف على طرقاته وأسراره، وأن تكون لك الرئاسة على الخصيان والقواد، وقد تمكنت من إغراء البعض واستمالتهم إليّ، فإذا ما أعددنا التدابير الخارجية وحان الوقت، قتلت كليوباترا، ثم انتهزت فرصة الإضطراب الذي سيسود القصر وقتئذ، وفتحت الأبواب بمساعدتي، فيدخل إليه أنصارنا ومؤازرونا، ويفتكون بالجنود الموالين لها، ومن ثم تستولي على (بروشيم) فإذا تم ذلك بنجاح سقطت الإسكندرية كلها.

وفي ذات الوقت يهب الذين أقسموا لك يمين الولاء في جميع أنحاء مصر، ليخنقوا كل ما من شأنه أن يتعارض مع هذا الولاء، ولن تمضي عشرة أيام على قتل كليوباترا حتى تصبح فرعون مصر.

تلك هي الخطة التي استقر الرأي عليها، والتي لا أدخر وسعاً في تنفيذها على الوجه الأكمل.

دهشت أيما دهشة، نعم أدهشني في الواقع أن تكون لفتاة لا تتجاوز العشرين من عمرها تلك الحنكة والمقدرة على تدبير مؤامرة بمثل هذه الدقة، فما كان المشروع إلا مشروعها في الأصل، ولكنني لم أكن أعرف شارميون حق المعرفة في تلك الأثناء.

وأخيراً قلت مأخوذاً:

– سمعت قصتك يا ابنة العم، ولكن أخبريني كيف أتمكن من دخول القصر؟

– إن الأمر هين يا ابن العم، فلكليوباترا ولع عظيم برؤية الرجال، ومعذرة يا سيدي إن قلت إنك جميل الطلعة والقوام، وقد لاحظت لهفتها على معرفة مقرك، إذ أيقنت أن من كاد يقضي على زنجي جبار وهو أعزل من السلاح لا ريب يكون عالما متضلعا في أسرار النجوم، وحين أعادت عليّ سؤالها عنك، قلت لها إنني سأتحرى أمرك، فاصغ إليّ أيها الأمير الجليل، من عادة كليوباترا أن تنام وقت الظهر في غرفتها الداخلية المطلة على الحديقة المجاورة للميناء، وسأنتظرك غداً في هذا الميعاد عند أبواب القصر، فعليك أن تطلب مقابلة السيدة شارميون، وسأحاول أن أجمعك بكليوباترا على انفراد بعد استيقاظها، وأما الباقي فمن شأنك وحدك.

إن كليوباترا مولعة بالعلوم السحرية، وطالما رأيتها تقضي لياليها مسهدة ترقب النجوم، وهي تدعي أنها تقرأ أسرارها، وقد رفضت أخيراً الطبيب ديوسكوريدس من خدمتها، إذ شاء تغفيله وقصر نظره أن يتنبأ أن كازيوس سيهزم مارك أنطوني، فأرسلت كليوباترا إلى القائد ألنيوس، تأمره بأن يضم الفرق –التي أرسلتها إلى سوريا لمساعدة مارك أنطوني– إلى جيش كازيوس، الذي انتصر طبقا لنبوءة ديوسكوريدس، ولكن سرعان ما دارت الدائرة على كازيوس، وكذبت نبوءة المنجم، فهزم أنطوني كازيوس، ثم انتصرت على بروتس، فثارت ثائرة كليوباترا، وطردت المنجم شر طردة وما زال مكانه شاغراً، وهذا المكان هو الذي أعددته لك أيها الأمير، فإذا ما حصلت عليه فسنعمل معا في الخفاء لمصلحة مصر، إلى أن تحين ساعة الخلاص، فتهدم طعنة من خنجرك صرح هذا العرش الذي بناه الإغريق ومن ثم ترفرف الملكية بجناحيها على مصر العظيمة من جديد.

وكفت الفتاة عن الكلام، فحدقت في وجهها بذهول وعجب.

وقال خالي:

– نعم.. نعم، يسرني دائما أن أراك على هذه الحال، فأنت الآن شارميون التي عرفتها، وأنشأتها، لا جارية البلاط التي أبغضها وأحقد عليها، والآن انصرفي إلى عملك فقد طالت غيبتك.

لبست الفتاة رداءها في صمت، وقبلت يدي باحترام وانصرفت.

وقال خالي:

– إنها فتاة غريبة الأطوار، بل من أغرب النساء اللائي يرتاب الإنسان في إخلاصهن.

– نعم لقد عاملتها بشيء من القسوة والصرامة يا خالي.

– نعم.. ولكن لكل سبب مسبب، ومهما يكن فعليك بالحذر الشديد منها، فهي فتاة جموحة وأخشى أن تنحرف عن طريقنا، إنها متوقدة الذهن غيورة، تحب قضيتنا، ولكني أرجو ألا تتعارض قضيتنا مع رغباتها الخاصة، وأنا في الواقع لم أفعل أكثر من إخافتها وتهديدها، خشية أن يفلت قيادها من يدي، إن حياتنا في قبضة هذه الفتاة يا هارماكيس، والويل لنا يوم تدور خيانتنا بخلدها.

الفصل الثالث

هارما كيس في القصر

في اليوم التالي.. ارتديت معطفاً فضفاضاً كذلك الذي يرتديه السحرة والمنجمون، ووضعت على رأسي قلنسوة رسمت فوقها أشكال النجوم بينا وضعت في حزامي محبرة للألوان، وحزمة من أوراق البردي، سجلت فوقها رموز سرية وتعاويذ، وأمسكت في يدي عصا من الأبنوس طرفها من العاج، كتلك التي يحملها الكهنة والسحرة؛ وانطلقت وبرفقتي خالي سيبا إلى القصر.

واجتزنا الباب الأكبر المصنوع من الرخام، ثم نفذنا من الأبواب المصنوعة من البرنز والتي تقع من خلفها ثكنات الحراس.

واستأذن خالي، ودعا لي بالنجاح والتوفيق.وتقدمت من الباب، فاعترضني بعض الحراس، وسألوني بغلظة عن اسمي، والغرض من قدومي، فأجبتهم بأن اسمي هارما كيس الفلكي، وأنني جئت لمقابلة السيدة شارميون وصيفة الملكة.

وكاد الرجل يتنحى عن طريقي، لولا أن أقبل في تلك اللحظة ضابط روماني اسمه يوليوس، ورفض أن يسمح لي بالدخول.

وكان هذا الضابط بدين الجسم، له وجه يشبه وجه النساء، ترتعش يداه من إفراطه في الشراب.

وما أن وقع بصره عليّ حتى عرفني، وقال يخاطب زميله باللاتينية:

– إنه الشاب الذي هزم النوبي أمس.

ثم تحول إليّ وقال:

– لماذا تريد مقابلة السيدة شارميون؟ لا.. لا.. لن أسمح لك بذلك فإني أعبدها، بل كلنا يعبدها، فهل تعتقد أن نسمح لشاب له مثل جمالك أن يعكر صفونا؟! لا.. لا، وحق المعبود (بخيوس) لن أسمح لك بالدخول، وأما إذا أرادت هي مقابلتك فلتأت إليك.

فقلت بلهجة التوسل، ولكنها لا تخلو من الكبرياء:

– إذن أرجو أن تبعث بمن ينبأها بقدومي.

فبدت سيماء الإشمئزاز على وجه الضابط، وقال رفيقه:

– هو منجم كما يدعي، فدعه إذن يتنبأ، أو يطلعنا على شيء من ألاعيبه السحرية.

وأيده الباقون بحرارة، وقال أحدهم:

– نعم.. دعوه يظهر مهاراته السحرية، فإذا كان حقاً ساحراً ففي استطاعته أن يجتاز الأبواب رغم أنف يوليوس.

فلاحت لي بارقة أمل، فقلت لرفيق يوليوس:

– على رسلكم يا سادة، هل تريد أيها السيد أن أحدق النظر في عينيك، فربما استطعت أن أقرأ خفاياك؟

– ليكن، بودي لو كانت شارميون الفاتنة هنا.

فأمسكت بيده، وحملقت في عينيه، ثم قلت:

– أرى ساحة قتال، والليل ينشر جناحيه على الكون، ثم.. ما هذا؟! أرى أشلاء القتلى مبعثرة في الساحة، ومن بينها جثتك يا سيدي ينهش فيها وحش ضار، ستموت أيها السيد المبجل بحد السيف قبل أن ينصرم عام واحد..

ففر لون الحارس، وصاح في وجهي مزمجراً، ثم مضى عني وهو يتمتم بكلام غير مفهوم، وتحولت إلى يوليوس، وقلت له:

– إنك تمنعني من الدخول، ولكني سأدخل رغم أنفك، وسأجرك ورائي، تقدم أيها السيد وحدق في طرف هذه العصا.

فامتثل بعد إلحاح زملائه، وراح يحدق في طرف العصا، حتى فقدت عيناه قوة الإبصار، وعندئذ سحبت العصا فجأة، ثم وضعت وجهي مكانها، ورحت أتحول وأدور، وهو يدور ورائي، ووجهه الجامد يكاد يلتصق بوجهي. وجعلت أتقهقر، وهو يتبعني، حتى اجتزت الأبواب، ثم رفعت رأسي فجأة فسقط فوق الأرض، وأسرع بالنهوض، وهو يمر بيديه فوق وجهه، وقد ارتسمت عليه سيماء البلاهة..

فقلت: هل اقتنعت أيها الضابط النبيل؟ هأنذا قد اجتزت الأبواب، فهل يقنعك ذلك بمهارتي السحرية؟!

وقبل أن يتمكن الضابط من الإجابة، أقبلت شارميون في الطريق

المرصوف بالرخام، يتبعها زنجي مسلح، وكانت تسير بخطى وئيدة متزنة، وقد شبكت يديها خلف ظهرها.

وأفسح لها الجنود والضباط السبيل، وأحنوا رؤوسهم احتراماً، إذ كانت -كما علمت- تلي كليوباترا سلطةً ونفوذاً.

وتظاهرت الفتاة بأنها لم تربي، وقال تخاطب جندي اسمه برينوس:

- لم هذه الجلبة يا برينوس! ألا تعلم أن الملكة نائمة الآن؟

فقال باستكانة:

- نعم يا سيدتي.. ولكن هذا الساحر (وأشار إليّ) أتى عملاً خارقاً.

وقص عليه ما فعلته مع يوليوس، وأردف:

- ثم إنه يقول إن لديه مهمة هامة جاء لمقابلتك بشأنها.

فتحولت شارميون، ونظرت إليّ بدون اكتراث، ثم قالت:

- آه! نعم تذكرت، سترى الملكة حيله وألاعيبه، ولكن إذا لم يكن في استطاعته أن يفعل أكثر من اجتذاب سكير (ونظرت إلى يوليوس باحتقار) فخير له أن يعود من حيث أتى.

ابتسمت.. وأومأت إلى أن أتبعها.

انطلقنا في طريق مرصوف بالرخام، واجتزنا الحديقة، بين صفين من تماثيل معبودات الوثنيين، ثم نفذنا إلى رواق فاخر به أعمدة منحوتة على الطراز اليوناني، ومن هذا الرواق انتقلنا إلى دهليز تتوسطه نافورة ينطلق منها الماء

بهدوء، ومن ثم عبرنا باباً صغيراً إلى غرفة تعرف بإسم (قاعة المرمر) وهي غرفة جميلة المنظر، يستند سقفها على أعمدة من الرخام الأسود، وجميع جدرانها من المرمر، وقد نقشت فوقها قصص يونانية، وأما الأرض فكانت من الرخام الملون، وقد سطرت فوقها قصة غرام إله الحب "ليسيش"، وعلى جانبيها صفت مقاعد من العاج والذهب.

وأمرت شارميون الزنجي المسلح بالبقاء عند باب الغرفة، ثم دخلنا منفردين، فرأيت في الناحية المقابلة من الغرفة ستاراً كثيفاً، على جانبيه خصيان شاهران سيفيهما.

وهمست شارميون:

– شد ما يؤلمني يا سيدي أن استقبلك هؤلاء الجنود الرومان بغلظة وخشونة، ولكنهم معذورون على كل حال فهم كثيرو الهواجس والريبة، والآن إبق هنا ريثما أذهب إلى مخدع كليوباترا، وأعود.

ثم نفذت من بين الستائر، وغابت هنيهة، عادت بعدها على الأثر؛ وقالت:

– هل تريد أن ترى أجمل امرأة في العالم وهي نائمة؟

فدهشت، ولكنها أسرعت تقول:

– لا تخش شيئاً، فلو أنها استيقظت لما فعلت شيئا، بل لعلها تضحك ملء شدقيها، فقد أمرتني أن أذهب بك إليها في الحال سواء كانت نائمة أو مستيقظة، أنظر.. إن معي خاتمها الملكي.

واجتزنا الغرفة، وبينا كنت أحاول المرور من خلال الستائر اعترض الخصيان سبيلي، فعبست شارميون، وأبرزت لهما الخاتم من صدرها، فأحنيا رأسيهما، وأفسحا لي السبيل.

ودخلنا مخدع كليوباترا.

كانت غرفة على جانب عظيم من الروعة والفخامة، مزينة بأنواع مختلفة من الرخام والذهب والعاج والزهور واللآلئ، وأثاثها يجل عن الوصف، وتماثيلها من أروع آيات الفن.وكانت كليوباترا مستقلية فوق سرير فاخر، عليه غطاء من حرير رقيق لامع، وشعرها الأسود المتماوج ينتشر من حولها، وقد توسدت أحد ذراعيها، بينما تركت الآخر ملقى في استرخاء، وافترت شفتاها الجميلتين المتفرقتين عن ابتسامة عذبة رقيقة، وكشفتا عن صفين من أسنان كاللؤلؤ المنظوم.

جمدت في مكاني مبهوتاً حائراً، ولبثت برهة مبهوراً من ذلك الجمال النادر، وخيل إليّ في تلك اللحظة أنه من القسوة أن أقتل هذه المخلوقة الجميلة..

أدرت بصري فجأة، فألقيت شارميون ترقبني بعينيها النافذتين، وكأنها تريد أن تقرأ خواطري، ولا ريب أن شيئاً منها قد انعكست آثاره على صفحة وجهي، فاستطاعت أن تقرأها بسهولة إذ همست:

– إنه أمر مؤلم ولا ريب، أليس كذلك؟ إنك رجل قبل كل شيء يا هارما كيس، وأحسب أنك ستحتاج إلى مجهود جبار لتستطيع الثبات إلى النهاية.

فوجمت.. ولم أحر جوابا.

ولمست شارميون ذراعي، وأومأت نحو الملكة، فأدرت بصري، ونظرت إلى كليوباترا..

وشد ما راعني منظرها..

كانت قد شبكت يديها، وارتسمت على وجهها أمارات الذعر والفزع، وكانت تلهث، ثم لم تلبث أن رفعت ذراعها، كأنما تريد أن تدفع أذى يهددها، وتأوهت، ثم استولت جالسة في فراشها، وفتحت عينيها النجلاوين وكانتا سوداوين كقطعة من الليل البهيم، ولكن سرعان ما تغير لونهما، فاستحال أزرق كالسماء.

وقالت:

– قيصرون؟ أين ابني قيصرون؟ إذن كنت أحلم؟! لقد رأيت في المنام أن يوليوس قيصر–يوليوس الذي مات– جاءني، وقد لف وجهه بوشاح ملوث بالدم، ثم طوق ابنه بذراعيه، وانطلق به، ثم رأيت أنني مت.. مت من الألم ولكثرة ما نزف من دمي، وأن رجلا لم أستطع رؤية وجهه كان يسخر مني عند موتي.. آه! من يكون هذا الرجل؟ «مشيرة إليّ».

فأجابت شارميون:

– اطمئني يا سيدتي، إنه هارماكيس المصري الساحر الذي أمرتني أن آتيك به.

– آه! الساحر؟! هارماكيس الذي قهر المارد النوبي؟!

– لقد تذكرت الآن، على الرحب والسعة، أخبرني أيها السيد الساحر،

هل تستطيع أن تفسر هذا الحلم؟! لو وفقت في تفسيره، فسأدلك على طريق للثروة والسيادة أعظم من أي طريق آخر تشير إليه نجومك.

فأجبت:

– يخيل أنني جئت في الوقت الملائم أيتها الملكة العظيمة، فأنا ضليع في تفسير الأحلام، ما النوم إلا سلم يرتقيه الذين انتقلوا إلى أحضان أوزوريس إلى مركز شعورنا الحي من وقت لآخر، ويرددون صدى ما في (قاعة الحق) التي يقيمون بها، بإشارات ورموز وكلمات نستطيع نحن الأحياء أن نفسرها بما أوتينا من علم وحكمة.

تقولين أنك رأيت قيصر العظيم في ثيابه الملطخة بالدماء، وقد طوق الأمير قيصرون بذراعيه ثم حمله وانطلق به، إذن أصغي إليّ.

إن روح قيصر أتت حقا إليك في المنام من (أمنتى)، والمقصود باحتضانه الطفل قيصرون أن يوحي بأنه هو الذي فقد عظمته وحبه دون سواه، وأما تظاهره بأخذ الطفل، فمعناه أنه يريد أن ينطلق به من مصر ليتوج في (الكابيتول) امبراطوراً على روما وسيدا على جميع الممالك، وهذا هو كل شيء أيتها الملكة.

كنت أعلم أن تفسيري على شيء كثير من الغموض والإبهام، وقد تعمدت ذلك، إذ ليس من المستحسن أن يتنبأ الإنسان بشر للملوك. ونهضت كليوباترا من مكانها، ثم جلست على حافة الفراش، وراحت تتفرس في وجهي، وهي تعبث بأطراف حزامها المرصع باللآلئ، ثم قالت:

– إنك أعظم ساحر التقيت به، فقد أمكنك أن تقرأ خفايا قلبي، كما لو كنت تقرأ في كتاب مفتوح.

ثم شبكت يديها خلف رأسها واضطجعت، ونظرت إليّ من خلال عينيها شبه المغلقتين، ثم قالت:

– هلم أيها الساحر المصري، أرنا سحرك، فإني أريد التسرية عن نفسي بعد أن سئمت مقابلة رسل العبرانيين، ماذا تستطيع أن تفعل؟ أقسم بحق المعبود (سيرابيس) أن أهبك منصباً في القصر، وأملاكاً إضافية تدر عليك مالا وفيراً، إذا برهنت أن لك في السحر مهارة مثل مهارتك في التنبؤ.

فأجبت:

– إن جميع أساليبي قديمة مع الأسف، ولكن هناك بعض أعمال سرية نادرة الإستخدام، وربما لم يقم بها أحد من قبل، هل تخشين رؤية السحر؟

– لا أخشى شيئاً، فقم بما شئت، تعالي يا شارميون وأجلسي بجانبي.. لكن لا.. أين جميع الجواري؟ أين إيزاس ومريرا؟ أنهما يحبان السحر أيضاً.

فأسرعت قائلا:

– لا، إن السحر لا يفلح في حضرة كثيرين، والآن أنظري.

وألقيت عصاي فوق الرخام، ثم تلوت تعويذتي سراً، فمكثت العصا مكانها هنيهة، ثم جعلت تتلوى ببطء، بينما كنت مستمراً في التلاوة، ولم تلبث أن استحالت إلى حية، أخذت تزحف وتحدث فحيحاً مزعجاً.

فصفقت كليوباترا طرباً، وصاحت:

– تباً لك! تباً لك! أتسمى هذا سحراً؟ إنها ألعوبة عتيقة يستطيع أي ساحر من الجالسين على قارعة الطريق أن يأتي بها، لقد رأيتها من قبل عشرين مرة.

– مهلا أيتها الملكة، فأنت لم ترى كل شيء بعد.

وبينما كنت أتكلم، إذ بالحية تتجزأ إلى قطع صغيرة، تولد من كل منها حية جديدة، وتجزأت هذه الحيات بدورها، وخرجت منها حيات أخرى تسعى، وهكذا دواليك، حتى خيل إلى أعينهما المأخوذة أن المكان قد استحال إلى جحر للأفاعي، وقد أخذت تزحف وتصفر وتلتف حول نفسها.. وأتيت بإشارة من يدي، فأحاطت الجيات بي، ثم أخذت تزحف نحوي ببطء وتلتف حول جسدي، وذراعي! إلا وجهي إلى أن بدوت وكأنني أرتدي ثوبا من الحيات؟

وصرخت شارميون فزعاً، وأخفت وجهها في ثوب الملكة.

وهتفت الملكة:

– كفى أيها الساحر، لقد حيرنا سحرك.

فحركت ذراعيّ، فأختفت الحيات، وإذا بعصاي ملقاة عند قدمي.وتبادلت الملكة ووصيفتها نظرة دهشة فالتقطت عصاي، وواجهتهما وأنا معقود الذراعين، وقلت بخضوع:

– هل اقتنعت الملكة بأعمالي المتواضعة؟

– نعم اقتنعت أيها الساحر المصري، أنك جئتني بما لم أره من قبل أو أسمع به، لقد عينتك منذ الآن في حاشيتي، وخولت لك حق الدخول على الملكة، أمن أعمال سحرية أخرى من هذا القبيل؟

– نعم أيتها الملكة، لو تكرمت بإسدال الستائر، أريتك شيئاً آخر فأسدلت شارميون الستائر، وأظلمت الغرفة.

وتقدمت من كليوباترا ووقفت بجانبها، ثم أشرت بعصاي إلى البقعة التي كنت أقف فيها من قبل، وقلت:

– أنظري هناك، ترين ما تفكرين فيه.

وساد الصمت، وراحت المرأتان تحدقان إلى البقعة الخالية بخوف وانزعاج، وسرعان ما تجمعت سحابة أمامهما، أخذت تتجسم ببطء، إلى أن أتخذت شكل رجل، جعل ينمو تارة ويتلاشى أخرى.

وعندئذ صرخت:

– أيها الخيال أظهر بحق جميع الآلهة!!

فظهر الشبح متجسداً كاملا وكان على هيئة قيصر الملك، وقد لف وشاحه حول وجهه، وثوبه ملطخ بدماء كانت تنبثق من جراح تملأ جسمه، ولوحت بعصاي في الهواء، فاختفى الشبح في الحال.وتحولت إلى المرأتين، وشد ما راعني اصفرار وجه كليوباترا، وأمارات الفزع التي كانت مرتسمة على وجهها.

وصاحت لاهثة:

– من أنت أيها الرجل؟ من أنت حتى تستطيع أن تجلب الأموات من قبورها؟

فضحكت.. وأجبت:

– ما أنا إلا ساحر الملكة، ومنجمها وخادمها المتواضع.. ألم يكن هذا ما تفكرين فيه أيتها الملكة؟

فلم تجب، ولكنها نهضت واقفة، وتركت الغرفة من باب آخر، وتمالكت شارميون روعها وسألتني:

– كيف تفعل هذه الأشياء الخارقة أيها الملك هارما كيس؟ أخبرني فقد بت أهابك وأخشاك!

– لا تخافي يا شارميون، ولا تفكري فيما رأيت، فقد انتهت اللعبة، فتهللت أساريرها، وقالت:

– لعمري إنك بارع كل البراعة، ولن تنصرم الليلة حتى يذيع صيتك في أنحاء الإسكندرية، ويهابك الناس أكثر من أي رجل آخر.. هلم يا هارما كيس واتبعني.

الفصل الرابع

أساليب شارميون

تلقيت في اليوم التالي موسوماً بتعييني كبيراً لمنجمي وسحرة القصر الملكي براتب كبير، وآلت إليّ جميع الممتلكات الموقوفة على شاغل المنصب، وقد أفردت لي غرفة خاصة في القصر كنت أنطلق منها ليلاً إلى برج المرصد العالي حيث أرقب النجوم، وأسجل أسرارها.

وكانت كليوباترا في تلك الفترة شديدة القلق من الناحية السياسية ولا تعلم كيف سينتهي النضال العظيم القائم بين أحزاب روما، على أنها قررت في النهاية أن تنضم إلى أقوى الأحزاب، لتأمن على عرشها، ومن ثم كثرت استشارتها لي، وكانت تطالبني بتفسير أسرار النجوم والأفلاك، فكنت أجيبها إلى طلبها، ولكن بطريقة تتفق مع أغراضي الخاصة.

وكان أنطوني، أحد أعضاء الحكومة الثلاثية الرومانية، المؤلفة منه، ومن أكتافيوس وبيدوس، موجوداً في آسيا الصغرى، وقد بلغه أن كليوباترا تحقد على الحكومة الثلاثية، وأنها لذلك أرسلت تأمر قائدها سرابيون بمساعدة كازيوس.. بيد أن كليوباترا أنكرت هذه الحقائق أمامي وأمام غيري، وادعت أن سرابيون تصرف من تلقاء نفسه، وتغطية لموقفها استدعت القائد، وقتلته لكي تبريء نفسها أمام أنطوني.

وسارت الأمور سيراً حسناً بعد ذلك، وانصرفت كليوباترا وأعوانها إلى مراقبة الحالة السياسية الخارجية، وتركوا جانباً الشئون الداخلية فما كان يجول بخاطرهم أن ثمة فتنة تدبر.

وقد قوى حزبنا في تلك الأثناء، وبدأ المترددون ينضمون تحت لوائنا ويقسمون بالقسم الرهيب الذي لا ينقض أن يخدموا مصر ما بقى فيهم نفس يتردد.

وكنت أغادر القصر بين الفينة والفينة، وانطلق لاستشارة خالي سيبا في منزله، وهناك كنت ألتقي بكثيرين من الأعيان وكبار الكهنة الذين انضموا إلى حزب مصر.

وكثيراً ما التقيت بكليوباترا، وطالما أدهشتني بغزارة علمها، وتوقد ذهنها، وكانت تهابني بعض الشيء، فسعت إلى خطب ودي، ولم تقتصر العلاقات بيننا على مجرد الاستشارات الفلكية، بل تعدتها إلى استشارات أخرى.

وأما شارميون فكانت تتردد على غرفتي بكثرة، بل طالما رأيتها بجانبي ومن دون أن أدري من أين جاءت، ولا متى تذهب، وفي كثير من الأحايين كنت لا أراها على الأطلاق، إلى أن يقع بصري عليها فجأة، فإذا بها تراقبني من خلال أهدابها الطويلة.

وكانت الفتاة شعلة من الحركة الدائمة، لا تتدخر وسعا في خدمتي، وخدمة قضيتنا المقدسة، فإذا ما شكرتها، وأطريت إخلاصها وولاءها، وقلت أنني سأذكر لها ذلك الإخلاص في الوقت الذي أخذ يقترب، راحت تضرب الأرض بقدمها، وارتجفت شفتاها كطفل غاضب، ثم تقول أنني –رغم غزارة علمي– واتساع أفق حكمتي، أجهل أن الخدمات التي يؤديها الإنسان بدافع الحب، لا تستحق الجزاء، فهي جزاء نفسها.

ولكنني كنت أجهل معنى قولها هذا، ولا عجب، فقد كنت خالي الذهن، لا تجول مثل هذه المسائل بخاطري، وكيف كان يمكن أن تخطر الغراميات ببالي وأنا ما سعيت إلى كليوباترا إلا في سبيل خدمة قضية بلادي التي وهبت لها نفسي؟ فضلا عن يمين الإخلاص الذي أقسمته بين يدي الآلهة، ألا أستجيب لدواعي الإغراء والحب ذلك الحب الذي كان مصدر بلائي وبلاء مصر!

والواقع أنني كنت أفسر عباراتها في مبدأ الأمر بأن الخدمات التي تسديها لمصر التي تحبها إنما تحمل في طياتها لونا من الجزاء، فلا حاجة إذن لشكري ولكن إذا اتفق وأطريت سمو روحها، ثارت وبكت بدموع الغضب المكبوت، ثم تنصرف عني، وقد خلفتني نهبة الحيرة والارتباك.

كنت أجهل ما يؤلمها، ولا أعلم أن هذه الفتاة قد وهبتني قلبها.. نعم، كنت أجهل ذلك، وأني لي أن أعرفه؟ وأنا الذي كنت أعتبرها أداة لخدمة قضيتنا المشتركة المقدسة!

لم يستهويني جمالها، وحتى حين كانت تميل فوقي وتلفح أنفاسها وجهي لم أكن أفكر فيها إلا كما يفكر المرء في جمال تمثال فني صقلته يد بارعة!

والغريب أن حب المرأة كان سبيل انزلاقي إلى الوهدة التي طالما سخرت منها، واستخففت بها!

لقد أحبتني شارميون وكان حبا مشئوماً انتهى بها إلى خاتمة مفجعة.

صفوة القول أنني كنت أجهل كل شيء، وظلت معاملتي لها لا تتعدى معاملة الأخ لأخته، وسرت إلى جانبها نحو نهايتنا المشتركة.

اتفق أن أقيمت في القصر حفلة سمر، في الليلة السابقة لتلك التي حددناها للقيام بحركتنا الثورية، وكنت قد قابلت خالي سيبا ظهر هذا اليوم، وكان مجتمعاً بقواد فرقة مؤلفة من خمسمائة رجل مسلح، هم الذين كلفوا بمهمة مهاجمة القصر عند منتصف ليلة الغد، بعد قتل كليوباترا.. والفتك بالجنود الرومانيين، والغاليين، وكنت قد استملت الضابط يوليوس إليّ، وأرغمته تحت تأثير التهديد بقوتي السحرية، على أن يعدني بفتح باب القصر الصغير الواقع في الجهة الشرقية عند تلقي الإشارة المتفق عليها.

وكان من المتفق عليه أيضاً أن تحتشد القوات المسلحة في كل مدينة من آبو إلى آنوز وأن تبث العيون والأرصاد في كل مكان، في انتظار وصول الرسول الذي يحمل إليهم نبأ مصرع كليوباترا، واستيلاء هارما كيس ملك مصر على عرش أجداده، ومن ثم تقوم هذه الفرق بعملية التطهير اللازمة.

وهكذا أعد كل شيء.. وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من النجاح ولكني، مع ذلك، شعرت أثناء جلوسي في المأدبة الملكية بحزن غامض وبسحب شر مقبلة.

انصرفت إلى النظر إلى كليوباترا وهي ترتشف كأس الخمر.. وتعبث بأصابعها في إكليل الزهر الذي زينت به جبينها، وتذكرت الخنجر الذي أخفيه بين طيات ثوبي، ذلك الخنجر الذي أقسمت أن أغيبه في صدرها فانتفضت.وحاولت جاهداً أن أقنع نفسي بكراهيتها، وأن أتطلع لموتها، ولكني فشلت.. وكانت شارميون تقف خلف مولاتها وهي تراقبني كعادتها من بين أهدابها الطويلة..

وانتفضت للمرة الثانية، وراعني أن ألطخ عرشي بالدم، وأن أستعين بالشر لتطهير البلاد من الشر، وكم تمنيت في تلك اللحظة أن أكون فلاحا يزرع أرضه، ويحصد منها حباً من الذهب في موسم الحصاد ولكن وأسفاه أن الحبة التي قضى القدر أن أبذرها هي حبة الموت فلا مفر إذن من أن أحصد محصولها الأحمر!!

ابتسمت كليوباترا بهدوء، وقالت تخاطبني:

– ماذا يؤلمك يا هارماكيس؟ هل اختلطت سلاسل النجوم، أو هل تفكر في ألعوبة سحرية جديدة؟! لماذا تستقبل مأدبتنا بهذا الاستقبال الفاتر؟

– لا أيتها الملكة، فقط أشعر بشيء من الخجل، فخادم النجوم لا يلاحظ نظرات المرأة التي لا تفيض عليه بأي لون من ألوان السعادة.

فتحولت كليوباترا إليّ، وأطالت النظر إلى عيني، فأشتدت ضربات قلبي..

واستطردت بصوت خافت لم يسمعه أحد غيري وشارميون.

– لا تزه نفسك أيها المصري المتعجرف، وإلا أغريتني على أن أجرد سحري في وجه سحرك، أية امرأة تستطيع أن تحتمل رؤية رجل يمر بها، ويدفعها جانباً كما لو كانت شيئاً تافهاً؟ إنها إهانة ما بعدها إهانة.

وتمايلت في مقعدها، وضحكت ضحكة موسيقية رنانة.

وحانت مني التفاتة إلى شارميون، فرأيتها تعض على ناجذيها.. وقد تجهم وجهها غضباً.

وأجبت الملكة ببرود ولكن بلباقة:

– معذرة أيتها الملكة، إن النجوم ليكسف ضوؤها أمام ملكة السماء.

كنت أقصد القمر بقولي هذا، فالقمر رمز الأم المقدسة إيزيس، التي أرادت كليوباترا منافستها.. وتسمت باسمها.ولكن كليوباترا أخطأت فهمي.. وصفقت بيديها الناعمتين.. وهتفت:

– نعم القول! هو ذا فلكي متوقد الذهن، استطاع أن يحيي أحسن تحية، لا.. مثل هذا العمل المدهش لا ينبغي أن يمر دون اهتمام وإلا غضبت الآلهة.. شارميون، أرفعي إكليل الزهور من فوق رأسي، وضعيه على رأس هارما كيس، العالم الكبير، لا بد من تتويجه (ملكا للحب) سواء رضي أو لم يرض.

فامتثلت شارميون.. وضعت الإكليل فوق رأسي، وهي تبتسم، وكان الإكليل معطراً ولا يزال دافئاً.. ولكن الفتاة وضعته بشيء من الخشونة، آلمتني قليلاً، ولم تخف عني نظرة الغضب التي ومضت في عينيها رغم الإبتسامة الخفيفة التي ارتسمت على شفتيها.

وهمست الفتاة في أذني قائلة:

– هذا فأل سيء يا هارما كيس.

ثم انحنت أمامي وقالت باللغة اليونانية:

– هارما كيس ملك الحب!

فقهقهت كليوباترا ضاحكة.. وشربت نخبي بوصفي (ملك الحب)، واقتدى بها المدعوون جميعاً، فقد أعجبتهم الطرفة. وابتسمت.. وكانت

ابتسامة فاترة كاذبة، وعصف الغضب بين جنبي، فقد تذكرت سمو مكانتي، وآلمني أن أكون أضحوكة في عيني كليوباترا، وحاشيتها، وساءني أن تكون شارميون أعلاهم ضحكاً، فما كنت أعلم وقتئذ أن الضحك والحقد يكونان أحيانا ذلك النقاب الذي يسدله القلب ليخفي ضعفه عن الأعين النفاذة.

قالت شارميون عن أكليل الزهور أنه (فألّ سيء)، والصواب ما قالت، فقد شاءت القدر أن استبدل تاج مصر المزدوج بأكليل من زهور الحب الذابلة، وفراش فرعون العظيم بصدر امرأة خادعة مستهترة..

ملك الحب!! لقد توجوني ساخرين، لأنعم.. فأنا ملك العار أيضاً، وقد تذكرت وإكليل الزهور فوق جبيني، أنا هارما كيس فرعون مصر بحق الدم والنسب، قاعات أبوثيس التي لا تبلى، وتتويجي غدا للمرة الثانية.

واستأذنت في الإنصراف، ثم انطلقت إلى البرج لأرقب النجوم.

وما أن احتواني البرج، حتى خلعت أكليل الزهور المشين، وقذفت به بين الآلات، ثم أخذت أتظاهر بمراقبة الكواكب والأفلاك.

وبعد قليل، فتح الباب بهدوء، ونفذت شارميون إلى البرج، في ثيابها البيضاء التي كانت ترتديها خلال المأدبة.

الفصل الخامس

هدية كليوباترا

هتفت من فوري:

– ها أنت قد جئت أخيراً يا شارميون! لقد تأخرت كثيراً.

– نعم يا مولاي، لقد تعذر على الإفلات، فهي الليلة متقلبة الأطوار، كبحر ثائر، فلم أتمكن من إدراك نواياها وأغراضها.

– حسناً.. دعينا منها الآن، هل قابلت خالنا سيبا؟

– نعم يا مولاي.

– وهل أعطاك القائمة الأخيرة؟

فأخرجتها من صدرها، وقالت:

– نعم.. ها هي قائمة الذين يجب قتلهم عقب قتل الملكة، وهي طويلة كما ترى.

فقلت وأنا أفحصها:

– نعم، هي قائمة طويلة كما تقولين، لكن الواجب هو الواجب؛ أمن أنباء أخرى؟

– إليك قائمة أخرى بأسماء الذين يعفى عنهم، وأما هذه القائمة فبأسماء المدن التى لا شك فى ثورتها على أثر وصول الرسول الذي يحمل نبأ مصرع كليوباترا.

– حسناً. والآن..

وأمسكت متردداً. ثم قلت:

– لنتكلم الآن في مقتل كليوباترا، هل أعددت كل شيء، وهل يجب أن يكون قتلها بيدي؟

فأجابت الفتاة بلهجة تشوبها رنة الحقد:

– نعم يا سيدي، ولا ريب أن فرعون يسره أن يستخدم يده في تحرير مصر، والقضاء على هذه البغي الخائنة.

– كفي عن الكلام بهذه اللهجة أيتها الفتاة، فلعلك لا تجهلين أنني مرغم على ركوب هذا المركب الخشن بدافع من الضرورة الملحة والعهود التي قطعتها على نفسي، ألا يمكن قتلها بالسم؟ ألا يمكن إغراء أحد الخصيان على قتلها؟ إن نفسي لتشمئز من ارتكاب هذه الجريمة المنكرة، وشد ما يدهشني أنك تتحدثين بمثل هذا الإستخفاف عن اغتيال المرأة التي أحبتك مهما كانت جرائمها وموبقاتها.

– مرحى مرحى، ما هذه الشفقة وهذا العطف يا فرعون؟! يخيل أنك نسيت الغرض من طعنة خنجرك، أصغ إلى هارما كيس، من واجبك أن تتم هذا العمل، وتتمه وحدك، ولو كانت ذراعي قوية لما أحجمت عن إتمامه، أما قتلها بالسم فمستحيل، لأن كل قطرة تشربها وكل لقمة تأكلها يتذوقها ثلاثة من الخدم قبلها، وهؤلاء لا يمكن إغرائهم بحال، صحيح أن اثنين منهم أقسما لنا يمين الولاء، ولكن الثالث عنيد لم تلن نفسه، ومن مصلحة قضيتنا المقدسة أن نقتله في النهاية.

لقد استقر الرأي على أن تضرب ضربتك الحاسمة قبل منتصف ليلة الغد بساعتين.. إذ تراقتني، ومعنا خاتم الملك، إلى غرفة الملكة الخارجية، لأن السفينة التي تحمل الأوامر إلى الجنود تبحر من الإسكندرية عند فجر الغد، وستقرأ مع كليوباترا أسرار النجوم، وأنتما منفردان، وذلك لرغبتها في أن يبقى الأمر سراً، فعليك خلال انهماكها في قراءة الأوراق أن تطعنها في ظهرها طعنة الموت.. وحذار أن يخونك عقلك في اللحظة الأخيرة، فإذا فرغت من عملك خذ الخاتم الملكي واخرج إلى حيث يقف الخصي، ثم اقتله إذا لم يكن من ذلك بد، وهنالك تلتقي بي لنذهب إلى يوليوس، وسأرغمه ومن معه على فتح الباب الجانبي، كي يدخل سيبا والخمسمائة جندي الذين معه ويفتكوا بالجنود وهم نيام، فالمهمة كما ترى هينة يا سيدي، فثق بنفسك، ولا تدع مخاوف النساء تتسرب إلى قلبك.. ماذا تكون طعنة خنجر؟ إنها لا شيء، ومع ذلك فإن مصير مصر بل ومصير العالم يتوقف عليها.

فقلت:

– صه!! ما هذا ؟! إني أسمع صوتًا.

فهرولت شارميون إلى الباب، وأطلت في الدهليز المعتم وهي ترهف السمع، ثم عادت، وإصبعها على شفتيها، وهمست قائلة:

– إنها الملكة!! إنها الملكة ترتقي الدرج وحدها، سمعتها تأمر ايراس أن تتركها وحدها، لا أريد أن تراني منفردة بك في مثل هذه الساعة، فهي إمرأة متوقدة الذهن، وقد ترتاب في الأمر! لماذا جاءت إلى هنا؟ أين اختبئ ؟!

تلفت حولي، فوقع بصري على مكان صغير محفور في جدار الغرفة،

وقد أسدل عليه ستاران كثيفان، وكنت استخدمه لوضع أوراقي وآلات رصد النجوم، فأشرت إلى المكان، وقلت للفتاة:

– هلمي إلى هناك..

فتسللت شارميون وراء الستار، وأما أنا فوضعت خنجري في ثنيات معطفي، وتظاهرت بالإنكباب على فك الرموز السرية، وسرعان ما سمعت حفيف ثياب نسائية، أعقبه طرق خفيف على الباب.

فقلت: أدخل..

ففتح الباب، ودلفت كليوباترا بثيابها الملكية إلى الغرفة، وكان شعرها الأسود المرسل يتماوج من حولها، والثعبان الملكي يلمع ببريق يخطف الأبصار فوق رأسها.

وجلست ثم تنهدت، وقالت:

– ليت شعري.. كم هو شاق تسلق الطريق إلى السماء، بيد أنني كنت قد اعتزمت أن أراك على انفراد.

فأحنيت رأسي، وقلت:

– هذا شرف عظيم وأيم الحق أيتها الملكة.

– أحق ما تقول! لم تبدو على وجهك الأسمر سيماء الغضب؟ إنك شاب جميل لا تصلح لهذه المهنة يا هارماكيس.. ما هذا؟ أراك قد ألقيت إكليل الزهور الذي وهبتك إياه بين آلات مهنتك التي أكلها الصدأ!! لو حظي الملوك بهذا الشرف يا هارماكيس لاحتفظوا بهذا الإكليل أبداً، ولضموه إلى

كنوزهم الثمينة، وأما أنت فقد ألقيته جانباً كما لو كان شيئاً تافهاً، فأي رجل أنت؟ ولكن مهلاً، ما هذا؟ إنه منديل إمرأة!! هل لك أن تخبرني كيف جاء هذا المنديل إلى هنا؟ وهل المناديل النسائية جزء من آلاتك الفلكية؟ يا للعار! أتراني ضبطتك متلبسا؟! ألا تكون في الواقع ثعلبا ماكراً ؟!

فقلت وأنا أنظر إلى المنديل، وكان قد سقط من شارميون:

– لا أيتها الملكة، لست أدرى كيف جاء هذا المنديل إلى هنا، ربما سقط من إحدى النساء اللاتي ينظفن الغرفة.

فقالت بخشونة.. وهي تضحك تلك الضحكة الرقيقة المألوفة:

– أحقا! من دواعي فخري أن تحمل خادماتي مناديل من خالص الحرير، ولا أكاد أجد غضاضة في أن ألفه حول عنقي، إذ يخيل أني أعرفه.. وأحاطت به عنقها، واستطردت: قد يسوءك أن ترى منديل حبيبتك حول عنقي الحقير، خذه يا هارما كيس، خذه وأخفه في صدرك، فوق قلبك.

فأخذت المنديل من يدها غاضباً، وتمتمت ببضع كلمات تدل على السخط ثم تقدمت من الشرفة التي أراقب منها النجوم، وكورت المنديل وقذفت به إلى الريح.

فقهقهت كليوباترا ضاحكة، وهتفت:

– ما عساها أن تقول لو اتفق ورأت رمز حبها يقذف هكذا إلى الريح؟ آمل ألا تقذف بإكليل زهوري كذلك.. انظر! لقد ذبلت الزهور يا هارما كيس، خذه والقه للريح.

والتقطت الإكليل وقدمته إلى.

ثارت ثائرتي، وخيل إليّ أن أعمل بمشورتها.. ولكني تمالكت نفسي، وسلكت سبيل الحكمة، وقلت بلهجة رقيقة:

– لا.. إنه هدية منك أيتها الملكة وسأحتفظ به.

وحانت مني التفاتة إلى الستارين اللذين تختفي شارميون خلفهما فرأيتهما يتحركان، وأسفاه.. شد ما ندمت فيما بعد على هذه الكلمات!!

وحدقت كليوباترا في وجهي بنظرة غريبة، قالت:

– شكراً لك على هذا العطف يا ملك الحب، هلم بنا إلى الشرفة لتحدثني عن سر النجوم، إنني أحب دائما النجوم النقية المتلألئة، وبودي لو أقمت هناك لأسبح في أفق الليل إليهم، وأنسى إحساسي الضعيف بنفسي عندما أطيل النظر والتأمل في هذا الفضاء اللانهائي الساكن، من يدري يا هارما كيس؟ ربما كانت هذه النجوم جزء من كياننا، فهل لك يا خادمي أن تشرح لي هذه الغرائب، فإني بحاجة إلى الإستزادة من العلم والمعرفة.

سرني أن أدارت دفة الحديث إلى هذا السبيل المأمون، بيد أنني دهشت قليلاً لإهتمامها بالتعمق في دراسة الفلك والإحاطة بالأفكار الفلسفية العالية، فرحت أحدثها مسروراً عما يجوز قوله.وأصغت إلى كليوباترا باهتمام ولهفة، وراحت تحدق في وجهي وأنا أحدثها بلغتي المصرية وأراقب النجوم في نفس الوقت.

وأخيراً قالت:

– آه.. يخيل إلى أنك لا تحب التكلم باللاتينية، على رسلك سأحدثك إذن بلغتك التي أتقنها، فأنا أول ملكة إغريقية تتكلم لغتكم.

وشرعت تتحدث بلغة مصر القديمة بلهجة أجنبية زادتها عذوبة، قالت:

– كفى حديثا عن النجوم، وما لجأت إلى طرق موضوعها إلا لأنه يروقك، ويبعد عنك الكآبة والملل، ولكني أقول إن هذه المهنة لا تليق بك يا هارما كيس، إنك لا تزال في عنفوان الشباب، وحرام أن تقبر نفسك في هذا البرج الموحش، كم عمرك يا هارما كيس؟

– إنني في السادسة والعشرين من عمري أيتها الملكة، فقد ولدت في الشهر الأول من (شومو) في فصل الصيف، وفي اليوم الثالث من الشهر

فهتفت:

– إذن فسننا واحدة، فقد ولدت في ذات اليوم أيضاً، ولعمري إنه من دواعي فخر آبائنا أن أنجبونا، فإذا كنت أنا أجمل امرأة في مصر، فأنت يا هارما كيس أجمل وأقوى رجل فيها، إن يوم مولدنا المشترك دليل على أننا خلقنا لنتآزر، فأعمل أنا بوصفي ملكة، وتعمل أنت معي لتثبيت دعائم عرشي، وهكذا يفعل كل منا لخير الآخر.

أطربني حديثها، وصعد الدم إلى وجنتي، وأجبت:

– أو ربما ليعمل كل منا لشر الآخر.

– لا.. لا تتحدث عن الشر، اجلس بجانبي يا هارما كيس، ولنتحدث كأصدقاء، لقد أغضبتك أثناء المأدبة، ولكني لم أرد غير المزاح يا هارما كيس،

والمزاح فحسب فشد ما يزعجني هؤلاء الأمراء والأشراف بغبائهم، وأولئك الرومان المتعجرفون المتصلبوا الأعناق، إنهم يتظاهرون أمامي بالولاء، فإذا ما انفردوا بأنفسهم سخروا مني، وقالوا إنني خادمة الحكومة الثلاثية الرومانية، أو خادمة امبراطوريتهم، أو جمهوريتهم، حسب الظروف، لم يرتفع من بينهم رجل إلى القمة التي بلغها قيصر، ذلك الرجل الذي لم يستطع العالم كله الوقوف في وجهه. إنهم أشبه بدمى الأطفال وقد رأيت من جانبي أن أوقع بينهم لتظل لي الغلبة وأنقذ مصر من براثنهم، ولكن ماذا كان جزائي؟ لقد بات الجميع يتحدثون عني سراً، ولست أجهل أن رعاياي يمقتونني، وأكبر ظني أن بينهم من يود قتلي لو استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وكفت عن الكلام، وغطت وجهها بيديها، وقد أحسنت صنعاً، إذ نفذت كلماتها إلى أعماق قلبي، ولم أتمالك من الإنتفاض وأنا جالس بجانبها.

واستطردت بعد قليل:

– لست أجهل أنهم يحقدون عليّ، وينعتونني بالبغي، مع إني لم أحد عن طريق الشرف غير مرة واحدة، وكان ذلك عندما أحببت أعظم رجل في العالم، لقد التهبت شعلة هيامي عندما مسني الحب، ولعمري يخطئ السكندريون حين يعتقدون أنني دسست السم لأخي بطليموس الذي أراد مجلس شيوخ روما أن يكرهني على الزواج منه، معرضاً عن قوانين الطبيعة التي لا تبيح مثل هذا العمل الشاذ، ومهما يكن فإنهم يبالغون في حكمهم ضدي، منذ مات أخي متأثراً بمرض الحمى، نعم.. إنهم يظنون بي سوءاً ولعلك أنت أيضا تشاطرهم هذا الرأي يا هارما كيس.

وأمسكت، ريثما تلتقط أنفاسها، ثم أردفت:

– تذكر يا هارماكيس ما هو الحسد قبل أن تصدر حكمك، إنه ذلك المرض العقلي الذي يعمي القلوب، ويجعل عين الشفقة ترى كل شيء مشوهاً، وتقرأ الشر على وجه الأبرار، وتجد الرجس في أطهر عذراء.

وتذكر يا هارماكيس أن العظماء هم دائماً وأبداً هدف لحسد الحاسدين، وطمع الطامعين، فأحكم يا هارماكيس كما تريد أن يحكم الناس عليك، ولا تنسى أن الملكة ليست حرة في تصرفاتها، كن صديقي ومستشاري يا هارما كيس، صديقي الذي اعتمد عليه، فإنني أشعر بوحشة بغيضة في هذا القصر المكتظ، لقد توسمت فيك الأمانة والإخلاص، ولست أرى ما يحول دون ثقتي بك، وسأرفع مكانتك، فإنني بحاجة إلى شخص أجعله معين أسراري، ومستشاري الأمين.

وكفت عن الكلام هنيهة، وراحت ترمقني بعينيها النافذتين، ثم سألت:

– والآن يا هارماكيس، هل لك أن نكون صديقي، أنا التي لا صديق لها ؟

ومالت نحوي، ولمستني لمسا خفيفا، وصوبت إلى سهام عينيها الساحرتين فتبددت مقاومتي في الحال وغلبت على أمري.ورحت أفكر في الليلة المقبلة، فاعتراني الخجل والحزن. أأكون أنا صديقها؟ أنا الذي أخفي بين طيات ثيابي ذلك الخنجر الذي سأغتالها به؟!

وأطرقت.. وزفرت زفرة حارة.ولكن كليوباترا ظنت أنني رثيت لحالها، فابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت:

– إن الوقت متأخرٌ الآن، فلنؤجل الحديث إذن إلى الليلة المقبلة.

ونهضت، وقدمت إلى يدها لألثمها، فلثمتها، وأنا لا أكاد أعي ما فعلت وانصرفت، وقد خلفتني منتصباً في وسط الغرفة أحدق النظر وراءها كالحالم.

الفصل السادس

غيرة شارميون

جمدت في مكاني، لا أتحول ولا اتحرك، وقد استغرقت في التفكير.. ثم تناولت إكليل الزهور وأطلت النظر إليه، ولا أدري كم مكثت على هذه الحال، بيد أنني لم أكد أرفع عيني، حتى رأيت شارميون واقفة أمامي، وهي تطيل النظر إلى وجهي..

ولاحظت –ولكني مع الأسف لم أعر ذلك اهتماماً كبيراً في تلك اللحظة– أن وجه الفتاة تكسوه حمرة الغضب، ثم لم تلبث أن ضربت الأرض بقدمها في غيظ وحنق..

فقلت:

– آه! أهذه أنت يا شارميون!! ما الذي يؤلمك؟ هل آلمك الإختباء طويلا؟! لماذا لم تتسللي من الغرفة خفية عندما قادتني كليوباترا إلى الشرفة؟

فرمتني الفتاة بنظرة غاضبة، وأجابت:

– أين منديلي؟ لقد سقط مني منديلي المزركش هنا.

– منديلك؟ آه! ألم تري ما حدث؟! إني اضطررت إلى إلقائه من الشرفة.

– آه! نعم.. لقد رأيتك وأنت تلقي به، ولكنك لم تلق بإكليل الزهور أيضاً لأنه هدية من ملكة، ولقد احتفظت به يا هارما مكيس يا نسل الملوك، وكاهن ايزيس، ومختار الآلهة، وفرعون مصر الذي توج ليعمل على

نصرة أرض (خم)، إنك ألقيت منديلي إرضاء للملكة الجميلة.

فعجبت للهجة الفتاة، وسألتها:

– ماذا تعنين؟

فدفعت الفتاة رأسها إلى الخلف بكبرياء، وأجابت:

– ماذا أعني؟ أتريد أن تعرف ما أعني يا ابن عمي.. ومولاي هرما كيس؟! إذن فسأخبرك..

واستطردت بلهجة جافة صارمة:

– إنك على وشك التردي في هاوية الشر المروع، لقد ألقت كليوباترا شباكها حولك، ولا أحسبني أغالي حين أقول أنك كدت تقع في شرك غرامها، نعم، كدت تقع في حب المرأة التي يتحتم عليك أن تقتلها غداً!! تمهل يا هارما كيس، وأنعم النظر في هذا الإكليل الذي تحمله، الإكليل الذي لم تجرؤ على إلقائه وراء منديلي، لأنه كان لها وهو لا يزال معطراً من شعرها، شعر محظية قيصر، وغيره؛ أخبرني بحق الآلهة.. إلى أي حد وصلتما من سمركما في تلك الشرفة؟ ما أنسبها من عش جميل جدير بالعشاق، أليس كذلك؟ نعم.. وما أحلاها من ساعة أيضاً؟!

نطقت الفتاة بهذه الكلمات اللاذعة بهدوء عجيب، وبلهجة رقيقة معتدلة ولكنها كانت تقطر حقداً ووجعاً، فاستبد بي الغضب، وصعب على القول، ولم يسعفني المنطق.

وانتهزت الفتاة الفرصة، فاسترسلت في سخريتها، حتى ثارت ثائرتي، وانطلق لساني من عقاله، فصحت بها:

– كيف تجرؤين على مخاطبتي بهذه اللهجة يا فتاتي؟ ألا تعلمين من أنا؟! كيف سمحت لك نفسك بالسخرية مني؟

فصاحت:

– إنني أهتم بتصرفاتك، وأما من أنت! فلا شأن لي به.

فقاطعتها:

– ماذا تعنين؟ هل أستحق اللوم إذا كانت الملكة؟!

– الملكة!

– إذا كانت كليوباترا قد شاءت أن تأتي إلى هنا ليلا وتتحدث عن..

– عن النجوم يا هارما كيس، نعم.. عن النجوم والورد فقط.

جن جنوني، فانفجرت في وجهها مهدداً متوعداً، فانكمشت وتراجعت إلى الوراء مذعورة. ولكنها لم تلبث أن أخذت تبكي بحرقة فخجلت من نفسي، وأمسكت عن الكلام، برغم الغضب الذي كان يعصف بين جنبي!

قالت الفتاة، وهي تنتحب:

– يجب ألا تخاطبني بهذه اللهجة يا هارما كيس، هذه قسوة منك لا تتفق ومبادئ الرجولة، آه! معذرة.. فقد نسيت إنك لست إلا كاهناً، لا رجلاً، اللهم إلا فيما يتعلق بكليوباترا.

– بأي حق تفوهين بهذه الكلمات؟! وماذا تعنين بها؟

فرفعت الفتاة إلى عينيها السوداوين، فإذا هما مخضلتان بالدموع، التي لم

تلبث أن انحدرت فوق وجنتيها الموردتين كما تنحدر قطرات الندى فوق زهر الزنبق، ثم قالت:

– تسألني بأي حق أفوه بهذه الكلمات؟ آه.. يا هارما كيس.! هل أصبت بالعمى؟! إنني أخاطبك بأول وأقدس حق تملكه المرأة! أخاطبك بحق الحب العظيم الذي أطويه لك بين جوانحي، الحب الذي تتعامى عنه! نعم! وبحق مجدي، وعاري! آه يا هارما كيس، لا تغضب، ولا تستخف بي إذا كانت الحقيقة قد أعلنتها شفتاي قسراً في النهاية، سأكون الفتاة التي تريدها يا هارما كيس! إنني كقطعة من الشمع اللين تستطيع أن تصورها كيف تشاء، هذا إذا قبلت أن تكون لسفينتي ربانا ومرشداً يا هارما كيس، وأما إذا فقدتك، فسأفقد كل شيء يصدني عن الشر، والهلاك، ولا مفر من أن تتحطم سفينتي في النهاية.

إنك لا تعرفني يا هارما كيس، ولا يمكنك أن ترى روحي المتوقدة التي تضطرم بين جوانح هذا الجسم الضعيف!! بل لعلك تعتقد أنني فتاة ماكرة عنيدة، قليلة الخبرة، ولكن مهلا، فأنا أجل شأنا من ذلك، فإذا كنت قد بلغت القمة في الحكمة والفلسفة.. ففي استطاعتي أن أبرهن لك على أنني لست دونك في هذا الميدان، إن لم أزد، إننا من دم واحد، وفي استطاعة الحب أن يزيل ما بينا من الفروق البسيطة، إن غايتنا واحدة، فنحن نحب وطناً واحداً، ويربطنا عهد واحد، فأفتح لي قلبك يا هارما كيس، وأجلسني بجانبك فوق عرش مصر المزدوج، أرفعك وحق الآلهة إلى نجم السماك، وأما إذا نبذتني، فأحذر أن أجذبك معي إلى قرار سحيق..

وأمسكت في انتظار قراري وقد عقدت ساعديها فوق صدرها، وتقدمت نحوي خطوة، ثم أخذت تحدق النظر إلى وجهي، وقد تغير لونها، وأخذ جسمها ينتفض.

وأما أنا فقد جمدت في مكاني واجماً، فقد أثر بي سحر صوتها، وقوة بيانها، وعنف لهجتها، ولم يساورني الريب في أنه لو كانت في قلبي ذرة من الحب لها، لأوقدت كلماتها هذه شعلة غرامي، ولكني لم أكن كذلك، بل ولم أستطع أن أحمل نفسي على حبها، أو التظاهر به على الأقل.

وعجبت لأطوار الفتاة، ولم أتمالك من الضحك، وتذكرت في هذه اللحظة فقط، خشونتها وهي تضع إكليل الزهور فوق رأسي أثناء المأدبة والمنديل، وكيف قذفت به إلى الريح، فهززت كتفي استخفافاً، وكان الأجدر بي أن أتدبر أمري، فقد كانت هذه الضحكة أصل بلائي.

ازداد إمتقاع وجه الفتاة إذ سمعت ضحكتي، وبدت على وجهها علامات اليأس القاتل، فأمسكت عن الضحك، وانتظرت.

وأخيراً قالت الفتاة بصوت متحشرج وقد غضت من بصرها:

– إذا فقد راقك قولي، وجلب السرور إلى نفسك.

– لا.. لا يا شارميون، أرجو المعذرة، فما ضحكت إلا يأساً وقنوطاً.!!

إنك تعرفين من أنا، وما هي مهمتي، وتعلمين أنني قطعت على نفسي العهد لإيزيس، وأن لا شأن لي بك طبقاً للقوانين المقدسة.

فقاطعتني قائلة:

– نعم.. نعم، وأعلم أيضاً أن عهودك ومواثيقك قد نقضت بالروح، وتلاشت كالسحب، لأنك تحب كليوباترا يا هارما كيس.

فهتفت:

– إنك تكذبين أيتها الفتاة الشريرة! إنك تريدين إغرائي لأتحول عن واجبي المقدس، وأرتدي ثوب الخزي والعار!! إن العاطفة، أو الطمع، أو حب الشر! تدفعك إلى سلوك هذا السبيل الوعر؛ أتريدين أن أجيبك بصراحة على سؤالك الصريح؟! إنك لا تهمينني في شيء خارج نطاق الواجب الذي أعمل على إتمامه، واعلمي أن نظراتك الرقيقة لا تهز مشاعري، ولا تزيد ضربات قلبي!! بل إنك لا تكادين تكونين صديقتي، لأنني لا أثق بك كثيراً، ومهما يكن، فإنني أحذرك من ارتكاب ما قد يتعارض مع قضيتنا، وإلا فموتاً تموتين، والآن، هل انتهت الرواية؟

تراجعت الفتاة إلى الوراء، إلى أن اصطدمت بالجدار، وغطت عينيها بيديها، ولكنها لم تلبث أن رفعتها، ورمقتني بعينين يرسلان شواظاً من اللهب، ثم أجابت بلهجة رقيقة:

– لا.. لم تنته بعد، صحيح أنني رميت (الزهر) فخسرت، والويل للمغلوب! هل لك أن تعطيني ذلك الخنجر الذي تخفيه بين طيات ثيابك لكي أضع حداً لذلي وعاري في التو واللحظة؟! لا! إذن اسمع مني كلمة أخرى أيها الملك هارما كيس، إذا استطعت أن تنسى حماقتي فلا تخش شري، فأنا لا أزال إلى الآن، كما كنت فيما مضى، خادمتك وخادمة قضيتنا المقدسة، إلى اللقاء.

وتركت الغرفة وهي تستند إلى الجدار.

وأما أنا فانطلقت إلى غرفتي، وألقيت نفسي فوق الفراش، وجعلت أتأوه ألما وكمداً. وأخيراً.. غلبني النعاس، فرحت في سبات عميق. ولما استيقظت كان النهار قد طلع، وتسرب الضوء إلى الغرفة، وسمعت تغريد الطيور فوق أفنان الأشجار.كان قلبي مثقلا بالهموم والأحزان، وتذكرت ألا بد من أن ألوث يدي بالدماء في منتصف الليل، دماء كليوباترا التي وثقت بي واتخذتني صديقا لها وشعرت بالنفور والإشمئزاز من هذا العمل البغيض.. وتمنيت لو أتنازل عن حقي الموروث لكي أعفي من ارتكابه، ولكن وأسفاه! لا مفر، ولا مناص! وابتهلت إلى الأم إيزيس، ولكني لم أسمع جوابا على توسلاتي، فسقط في يدي، وتساءلت:

– ترى ما الذي فصم الرابطة التي كانت تربطني بها حتى أنها لم تستجب لنداء ابنها المختار؟! هل يمكن أن أكون قد شططت؟! قالت شارميون أنني أحب كليوباترا؟ فهل هذا صحيح؟! لا.. لا، إن هي إلا ثورة الطبيعة ضد كل عمل ينطوي على الغدر، لقد أرادت الآلهة أن تجرب قوتي، ولعلها هي أيضا تأنف من رؤية الدماء.

وجاء العصر، فذهبت للقاء خالي سببا في منزله، وهناك وجدت قواد المؤامرة مجتمعين سراً، وكانوا سبعة.وإذ دخلت عليهم، أقفلت الأبواب، وأحكم إغلاقها، ثم ركعوا أمامي وصاحوا: السلام يا فرعون!

فأمرتهم بالنهوض وقلت أنني لم أصبح بعد فرعوناً.

فقال خالي سيبا:

– هذا صحيح أيها الأمير، ولكنك لن تلبث أن تكونه فتشجع، فلا شيء يعترض الآن سبيل الفوز، انظر.. ها هي القوائم الأخيرة، لقد أقسم واحد وثلاثون ألف رجل على التمرد، على أثر وصول الأنباء إليهم، ولعمري لن تنصرم خمسة أيام حتى تسقط جميع القلاع والحصون في أيدينا، ولا يبقى أمامنا ما نهابة أو نخشاه.. فروما مغلولة اليدين، ولها من مشاكلها الداخلية ما يصرفها عن قمع حركة الثورة في مصر، ثم إننا سنعقد تحالفا مع أعضاء الحكومة الثلاثية وإذا أرغمتنا الظروف، رشوناهم بالمال.

وقد تحدث اضطرابات ومؤامرات أخرى في الإسكندرية لتتويج أرسينوى شقيقة كليوباترا، ولكننا لن نمكن المتآمرين من الفوز ببغيتهم، فسنضرب على أيدي أهل المدينة بيد من حديد، وأما أرسينوى فسيغتالها من سيسافرون غداً على أثر مصرع كليوباترا.

فقلت:

– ولكن هناك الغلام قيصرون، فقد تطالب روما بحق الصبي، وفي ذلك من الخطر ما فيه.

– لا تخف، فسيلحق قيصرون غداً بأبيه وأمه في (مطهر الأرواح) لقد أعد كل شيء لاستئصال شأفة البطالسة من مصر إلى الأبد.

فسألته بحزن:

– أما من سبيل آخر للوصول إلى أهدافنا المقدسة؟ إن قلبي يجزع ويتألم من سفك الدماء.

فأجابني خالي بلهجة جدية:

– لا.. لا تجعل رقة قلبك تصرفك عن واجبك المقدس، يجب القضاء على كليوباترا وابنها خشية أن يشب الابن أسداً ضارياً فيمزقك، ويقذف بك من فوق عرشك.

فتنهدت، وأجبت:

– على رسلك يا خالي، حدثني الآن بخطتك؟

وقضينا فترة طويلة نتشاور في الأمر، إلى أن شعرت في النهاية بشيء من حماستي القديمة يتسرب إلى قلبي، واتفقنا على أنه إذا لم يتيسر لي قتل كليوباترا الليلة، فإن الدسيسة تؤجل إلى الغد، ولكن لا أكثر، لأن هذا العمل هو الإشارة المتفق عليها لإيقاد نار الفتنة.

وانصرفت، وكان ذلك آخر عهدي بخالي فلم أره بعد ذلك.

وانطلقت إلى الميناء لأروح عن نفسي، وهناك وقع بصري على سفينة قادمة من النيل، وقد أخذ ركابها يهبطون إلى البر، فوقفت أرقبهم هنيهة.

وفجأة سمعت صوتاً أعرفه يقول:

– انظروا! انظروا! ما أعظم هذه المدينة.. كيف تجيء عجوز مثلي إلى هذه المدينة الرائعة طلباً للرزق؟ أذهب أيها الوغد ودع سلة عقاقيري وشأنها.

فدرت على عقبي.. فإذا بي وجها لوجه أمام مربيتي (أتوا)؛ واضطربت المرأة، ولكنها لم تلبث أن رسمت الإشارة السرية، وهمست:

– لقد أتيتك برسالة من أبيك امينمحعت أيها الأمير هارماكيس.

فسألتها:

- وهل هو بخير؟

- نعم.. ولكنه يلاقي عذابا أليما في انتظار الساعة الرهيبة.

- وما رسالته؟

- أن تحذر خطراً عظيماً يهددك.. وهذه كلماته: "كن ثابتا تظفر".

أحنيت رأسي، وتولاني الفزع.وسألت المرأة:

- متى تنفذ المهمة؟

فأجبت:

- هذه الليلة.

- إذن أدع من يذهب بي إلى منزل الكاهن سيبا.

ففعلت، وانطلقت لشأني وأنا أردد نصيحة أبي.

الفصل السابع

فشل هارما كيس

حانت الساعة أخيراً، فانفردت في غرفتي، في انتظار شارميون، ورحت أطيل النظر إلى خنجري الذي سأدفنه في صدر كليوباترا، وكان خنجراً طويلاً حاداً.. صنعت يده من الذهب الخالص على شكل أبي الهول. وفتح الباب بهدوء، ودخلت شارميون، وعلى وجهها علامات الكآبة والإنقباض. ثم قالت:

– أيها الملك هارما كيس، إن كليوباترا تنتظرك.

غاص قلبي بين جنبي، وسألتها:

– وهل أعد كل شيء يا شارميون؟

– نعم يا سيدي.. إن يوليوس يترنح من كثرة ما تجرع من خمر، وهو يحرس الأبواب، وقد انسحب الخصيان عدا واحدا، وآوى الجنود إلى ثكناتهم، وأما خالي سيبا فيختبئ مع رجاله خارج الأسوار.

– حسناً.. هلمي بنا.

ونهضت، وأخفيت الخنجر في صدري، وقالت شارميون:

– كلمة أخرى أيها الملك، فمازال في الوقت متسع للحديث، أمس، آه! أمس! (وارتفع صدرها وهبط) رأيت أمس حلماً مازال يزعجني، ولعلك رأيت ما يماثله يا سيدي، ألم يكن كل ما حدث بيننا حلماً ؟!

– نعم.. نعم.. لماذا تزعجينني بالحديث في هذه الأمور الآن؟

– لست أدرى، ولكن ثق يا هارماكيس أن القدر أعد الليلة عدته لعمل حاسم، ومن المحتمل أن أذهب ضحية هذا العمل، أو تذهب أنت، أو نذهب معاً، فإذا قدر أن يحدث ذلك، فإنني أريد أن أسمع منك الآن أن ما جرى بيننا لم يكن إلا حلماً، وأن الحلم قابل للنسيان.

فقلت بضجر:

– نعم، فكل شيء في هذا العالم مجرد حلم، وحتى هذه الليلة المروعة، وهذا الخنجر المرهف النصل ليست إلا أحلاماً، ولكن ماذا ترانا نشاهد يوم اليقظة؟

– ها قد شاركتني أفكاري أيها الملك هارماكيس، فكما تقول أننا نحلم.. ولكن الرؤى تتغير الأفكار والمسببات، ولكني أتساءل هل كانت تلك الرؤيا التي رأيناها ليلة أمس وقد ظهرت أمامك فيها بثوب الذل والعار، فما كان منك إلا أن سخرت من ذلي وعاري، أقول هل هذه الرؤيا خيالية ثابتة ؟ وهل يمكن أن تتغير أو تتبدل؟

فأجبت:

– لا يا شارميون، يؤسفني أن آلمتك، ولكن لم يطرأ على الرؤيا أي تغيير أو تبديل، وقد أفصحت لك عما يكنه قلبي نحوك.. فأنت ابنة عمي وصديقتي ولا شيء أكثر من ذلك.

– حسناً.. حسناً جداً، لننس كل شيء، ولننتقل إلى حلم آخر.

ثم ابتسمت ابتسامة مروعة، هي ابتسامة الجزع والألم.. ولا عجب فقد ماتت مع هذه الإبتسامة سعادة شارميون المصرية، وضاع أملها في الحب وتكسرت القيود التي تربطها بالواجب المقدس، ونقضت عهودها، وانقلبت امرأة شريرة، نبذت وطنها، وتنكرت لآلهتها، نعم.. كانت هذه الإبتسامة نقطة التحول في مجرى التاريخ.. فلو لم يشأ القدر أن أرى هذه الابتسامة على شفتي شارميون، لما سيطر اكتافيوس على العالم.. ولنالت مصر حريتها ومجدها.ومع ذلك فلم تكن إلا ابتسامة امرأة!!

سألتها:

– لم تبدين في هذه الهيئة الغريبة أيتها الفتاة ؟

– إننا نبتسم في الأحلام، ها قد حان الموعد فهلم بنا، وكن ثابتا تظفر أيها الملك هارماكيس.

وأخذت يدي ولثمتها، ثم تحولت، وسارت أمامي. ووصلنا إلى (قاعة المرمر) فتريثنا، إذ كانت غرفة كليوباترا الخاصة وراء هذه القاعة، وهي الغرفة عينها التي رأيت كليوباترا نائمة فيها لأول مرة.

وقالت شارميون:

– انتظر هنا ريثما أنبأ كليوباترا بقدومك.

وما هي إلا لحظات حتى عادت الفتاة، وهي مطرقة الرأس، تمشي بخطوات ثقيلة، ثم قالت:

– إن كليوباترا في انتظارك، فاذهب إليها.

فسألتها بصوت متهدج:

– وأين أراك بعد أن أفرغ من ارتكاب الجريمة المروعة؟

– هنا.. ومن ثم نذهب معا إلى يوليوس.

فذهبت، ولم أكد أبلغ الستائر، حتى أدرت وجهي إلى الخلف، فرأيت منظراً غريباً. كانت شارميون واقفة في منتصف القاعة، قد دفعت رأسها إلى الوراء وبسطت ذراعيها كأنما تريد أن تمسك بهما شيئاً، بينا انعكست على صفحة وجهها إمارات العذاب النفساني المروع.

ولا عجب.. فقد كانت تعتقد أنني، أنا حبيبها، سائر إلى حتفي، وأن هذا وداعنا الأخير!! ونفذت إلى الغرفة، وكان أول ما وقع عليه بصري كليوباترا وهي مضطجعة فوق فراشها الوثير، ترتدي ثياباً بيضاء تشف عن مفاتن جسمها البديع، وكانت تحمل في يدها مروحة من ريش النعام مرصعة باللآلئ، تروح بها على وجهها برفق، في حين كان إلى جانبها عودها العاجي، ومنضدة صغيرة عليها بعض الفواكه، وزجاجة من الخمر المعتقة.

تقدمت من (أعجوبة العالم) وأنا ذاهل مضطرب، فما رأيت كليوباترا من قبل في حلة من الجمال تحاكي الحلة الرائعة التي كانت ترتديها في تلك الليلة المروعة. وهذه هي المرأة التي فرض علي أن أغتالها بعد قليل! ولم تكترث كليوباترا بدخولي، وظلت مضطجعة فوق فراشها، وهي تروح بمروحتها في شيء من الملل والسآمة.

وأخيراً وقفت قبالتها، فرفعت عينيها إليّ، وضغطت مروحتها فوق صدرها، كأنما أرادت أن تخفي جماله الفتان، ثم قالت بصوت حنون:

– آه! أهذا أنت أيها الصديق؟! لقد أحسنت بالقدوم، فقد بدأت أمل الوحدة، إجلس يا هارما كيس.

وأشارت بمروحتها إلى مقعد على مقربة من قدميها، فأحنيت رأسي، ثم جلست وقلت:

– لقد سجلت ما رأيته من أسرار النجوم عملاً برغبة الملكة، فإذا تنازلت جلالتك شرحتها لك.

ونهضت لأدور حول فراشها، وأطعنها من الخلف وهي منهمكة في المطالعة، بيد أنها استوقفتني برفق، وقالت باسمة:

– مهلا يا هارما كيس، إجلس مكانك، وأعطني الأوراق، إن وجهك الليلة مليح تجذبني إلى التحديق فيه قوة خفية.

ولم يكن ثمة مناص من الطاعة، فقدمت لها أوراق البردي، وقد قررت في نفسي أن أهاجمها وهي تقرأ، ثم أغيب خنجري في صدرها.وتظاهرت كليوباترا بالقراءة، ولكنني رأيتها تحدق إلي النظر من فوق حافة الورقة ولم تلبث أن قالت:

– لماذا تضع يدك فوق صدرك؟ هل تحرك قلبك؟

كانت يدي على مقبض الخنجر، وأجبت:

– نعم أيتها الملكة، إنه يخفق بشدة.

فلاذت بالصمت، ثم تظاهرت بالقراءة مرة أخرى، ولكنها كانت تراقبني خلسة. تساءلت: هل ألقي نفسي فوقها الآن؟ ألا يجوز أن تراني وأنا أهم

بالوثوب عليها، فتصرخ وتقاوم؟ لا لا.. من سخف الرأي أن أتعجل فلأنتظر حتى تسنح فرصة أخرى.

قالت كليوباترا وهي تلقي بالأوراق فوق المنضدة:

– لقد سئمت قراءة النجوم واستكشاف أسرارها.

ثم أمسكت قليلاً، ورمقتني بنظرة غريبة، ثم أردفت:

– لندع القراءة الآن، ولنبحث عما يطربنا ويشرح صدورنا.. ترى ماذا نفعل؟ في وسعي أن أرقص، فأنا راقصة بارعة، ولكن ذلك العمل يتعارض مع هيبة الملوك، إذن فلأغني..

والتقطت العود.. وأخذت تلعب بأناملها الرقيقة على أوتاره، وسرعان ما ارتفع صوتها بأنغام رقيقة مشجية.وقد نفذ صوتها الحنون إلى أعماق قلبي، فلم أتمالك من التحديق في وجهها بإعجاب وطرب.

أخيرا كفت عن الغناء، وتلاشى صدى صوتها الشجي، ولكنه أخذ يدوي في قلبي، فما سمعت قبل اليوم صوتاً أرق وأعذب من صوت كليوباترا الحنون. وفجأة انبعثت واقفة ومدت ذراعيها نحوي، وعيناها الساحرتان ترمقانني بنظرة قاهرة متسلطة، ولكني تذكرت واجبي، فتمالكت زمام نفسي.. وقالت كليوباترا:

– أليست لديك كلمة شكر تقدمها إليّ على غنائي الحقير؟

فأجبتها بصوت خافت، متهدج:

– نعم أيتها الملكة، أقول لك الحق إن غناءك أخذ بمجامع قلبي.

فابتسمت برقة، وقالت:

– لا.. لا تخش شيئاً يا هارما كيس، فلست أجهل أفكارك البعيدة عن جمال النساء وسحرهن، وما تتمتع به من مناعة لا تتوفر لأبناء جنسك، ولكن مهما يكن فلا ضرر من اللعب بالحديد البارد.

فآثرت الصمت، ووضعت يدي المرتجفة فوق قبضة الخنجر، ورحت أبحث عن وسيلة تمكنني من قتلها قبل أن أفقد شعوري.

واستطردت كليوباترا بذلك الصوت الحنون:

– إدنو مني يا هارما كيس، بل تعال واجلس بجانبي، ولنتحدث معاً، فإن لدي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لك.

وأفسحت لي مكانا بجانبها فوق الأريكة، فنهضت وأنا أظن أن الفرصة قد حانت لاغتيالها، وجلست بجانبها، وكانت مائلة إلى الوراء، تنظر إليّ بعينيها الناعستين.كان عنقها وصدرها عاريين، فأدركت أن هذه أنسب فرصة لإتمام ذلك العمل البغيض الذي أوجبته على نفسي، ومن ثم رفعت يدي مرة أخرى لأقبض على خنجري، بيد أنها أسرعت، وقبضت على راحتي بلطف، وأبقتها في يدها. ثم قالت:

– أرى على وجهك سيماء التألم يا هارما كيس، فهل تشكو مرضاً يا صديقي؟

فأجبت لاهثاً:

– نعم.. أشعر بألم شديد !

قالت وهي لا تزال قابضة على راحتي:

– إذن اضطجع فوق الأريكة واسترح، ستذهب نوبة الألم سريعاً، ولا ريب أنها كانت نتيجة السهر الطويل ومراقبة النجوم، ما أرق نسيم الليل العليل الذي يهب من تلك النافذة حاملاً شذى الزهور، أصغ إلى همس البحر، وصوت أمواجه وهي ترتطم بالصخور، استمع إلى تغريد البلابل الذي يأخذ بمجامع القلوب!! ليت شعري.. ما أجمل الليل، وأعذب موسيقى الطبيعة الشادية، أصغ إلي يا هارماكيس، لقد خمنت شيئاً عنك، وخرجت من تفكيري بأنك أيضاً من سلالة الملوك، وأن الدم الذي يتدفق في عروقك ليس دماً وضيعاً، ماذا ؟ أتنظر إلى الرمز المنقوش على صدري؟ لقد رسم إجلالاً لأوزوريس الذي أعبده كما تعبده أنت يا هارماكيس! انتظر!

فحاولت النهوض! ولكني فشلت.. فقد خارت قواي.. واستولى علي الضعف وتأوهت وقلت:

– دعيني أنصرف.

– لا.. لم يحن الوقت بعد، إنك لا ترضى أن تتركني الآن وحيدة! أخبرني يا هارماكيس، ألم يغز الحب قلبك من قبل؟

– لا.. لا أيتها الملكة، مالي والحب، لا شأن لي به، دعيني أذهب فقد خارت قواي وأخذ مني الضعف كل مأخذ.

– ألم تذق طعم الحب ؟ هذا أمر غريب ولا ريب! إذن ما معنى الحياة بالنسبة إليك يا هارماكيس؟

وأخذت تقترب مني شيئاً فشيئاً.. إلى أن طوقت عنقي بذراعها البضة، وتنهدت، ثم صوبت إلي نظرة متسلطة من عينيها الزرقاوين العميقتي الغور وابتسمت، تلك الابتسامة العذبة الرقيقة.جعلت تدنو مني، وقوامها البديع ينثني، إلى أن لفحت أنفاسها العاطرة وجهي، ثم التقت شفاهنا.. ويل لي أنا الشقي! نسيت بهذه القبلة التي كنت أرجو أن تكون سهم الموت، إيزيس، ورجائي في السماء.. وإيماني وشرفي.. وبلادي.. وأصدقائي.. بل نسيت كل شيء في الدنيا.

نعم.. نسيت كل شيء.. ولم أحس غير أن صدر كليوباترا الفاتن يعلو ويهبط فوق صدري.. وهي تدعوني بسيدها وحبيبها.

وتنهدت كليوباترا.. وقالت:

– عاهدني الآن على الحب.. وأشرب هذه الكأس عربونا له.

فتناولت الكأس، وجرعت محتوياته حتى الثمالة، وسرعان ما أدركت – ولكن بعد فوات الأوان– أن السائل الذي شربته مخدر.وسقط فوق الأريكة، وبرغم أنني كنت أعي كل شيء، فإنني لم أتمكن من الكلام أو التحرك.

وانحنت كليوباترا فوقي، وأخرجت الخنجر من صدري، ثم دفعت شعرها إلى الوراء وهتفت:

– لقد انتصرت!! نعم انتصرت، انتصرت من أجل مصر، لقد أردت إذن أيها الملك المنافس أتفتك بي بهذا الخنجر.. ها ها، أعلم أن جيشك يحتشد الآن خارج أبواب قصري! أما زلت مستيقظا؟! لا شيء يمنعني الآن أن أدفن هذا الخنجر في صدرك.

تألمت فأشرت إلى صدري كي تنفذ وعيدها، فما كنت أتمنى غير الموت، ولكنها استوت واقفة، ورفعت يدها بالخنجر ثم هوت به إلى أن وخز سنه لحمي، ولكنها قذفت به في عرض الغرفة، وهتفت:

– لا.. إني أحبك، ومن القسوة أن أقتلك! لقد رددت عليك حياتك فعش يا فرعون الضائع الساقط الذي انتصر عليك دهاء المرأة!! عش يا هارماكيس لتحتفل بفوزي وظفري!!

وضحكت ثم فقدت شعوري على الأثر.

الفصل الثامن

يقظة هارما كيس

عندما أفقت من نومي، وجدتني ممدداً في غرفتي، فانبعثت واقفاً في حركة سريعة، ولم تساورني الريبة في أنني كنت أحلم، نعم.. لا يمكن أن يكون ما رأيته غير حلم! لعمري كم هو عزيز على نفسي أن أصحو من نومي، لأعرف أنني خنت بلادي، وأضعت الفرصة الذهبية، وغدرت برفاقي ومساعدي.

أواه! ما أسوأ الحلم الذي رأيته!! لا ريب أن حلماً آخر يماثله يقضي على أشجع الرجال، ولكن بفرض أن ما رأيته كان أوهاماً صورها لي عقلي المضطرب، فأين أنا الآن؟! أين أنا؟! كان يجب أن أكون في قاعة المرمر في انتظار عودة شارميون.أين أنا ؟ وأنت أيتها الآلهة!! ما هذا الشيء المخيف الذي له شكل إنسان؟ هذا الشيء الملفوف في ثوب أبيض ملطخ بالدماء، وقد وضع بحالة مروعة عند طرف الفراش الذي كنت نائما عليه؟!وثبت كالليث، وصرخت صرخة مدوية ثم لطمت ذلك الشيء بكل قوتي فتدحرج (الشيء).

وتملكني الذعر، فانقضضت على الغطاء الأبيض ومزقته، فإذا أنا أري جثة رجل ربطت ركبتاه إلى فكه المدلي.ولم يكن هذا الرجل غير الضابط يوليوس الروماني. ومن جرح في صدره كان الدم ينزف بغزارة، وخنجري مدفون في صدره، بينما تدلت من عنقه ورقة كتب عليها بالرومانية:

(تحيتي يا هارما كيس! أنا يوليوس الروماني الذي أغريته، فانظر عاقبة الخونة المارقين)

ترنحت إلى الوراء، وقد خارت قواي من هول ما رأيت.. وأدركت في هذه اللحظة أنني لم أكن حالماً، وأنني فشلت! وهلكت!

وتذكرت أبي أمينمحعت، وتمثلت أمامي هيئته، وقد جاءوا ينبئونه بما لحق ابنه من العار وضياع الآمال، وتذكرت خالي سيبا وتمثلته واقفاً مع رجاله خارج الأسوار طول الليل في انتظار الإشارة التي لم تأت.. ترى ماذا حل بهم؟

وحاولت أن أقنع نفسي بأنني لم أكن خائنا وحدي، فقد خدعت أنا أيضاً، ولكن ترى من خدعني؟ ربما كان يوليوس..

وتحسست القوائم السرية التي كانت في جيبي.. ولكني لم أجد لها أثراً، أواه؟ لقد هلك رفاقي أيضاً!! أصابني الدوار لهذه الفكرة المؤلمة.. فسقط فاقد الشعور.. وعندما تنبهت من إغمائي، أدركت من ظل الشمس الطويل أن الوقت بعد الظهر، فقمت وأنا أترنح، وكانت جثة الضابط يوليوس لا تزال ملقاة عند طرف الفراش.

واندفعت صوب الباب، واليأس يمزق قلبي، ولكني وجدته موصداً بإحكام وسمعت صوت الحراس في الخارج، أيقنت إنهم يصوبون أسنة رماحهم نحو الباب..

ومضت فترة ليست بالقصيرة، وفتح باب الغرفة، ودخلت كليوباترا المنتصرة بثيابها الملكية الفاخرة، ثم أغلقت الباب وراءها. تجمدت في مكاني، ولم أدر ماذا أفعل، وتقدمت كليوباترا مني إلى أن وقفت قبالتي.. ثم قالت وهي تبتسم برفق:

– السلام لك يا هارما كيس، أرى رسولي قد عثر عليك (وأشارت إلى جثة يوليوس) ما أسوأ شكله! أيها الحراس!

ففتح الباب في التو، ودخل حارسان مدججان بالسلاح.فقالت كليوباترا:

– إحملا هذه الجثة، وألقيا بها إلى الطيور، لكن مهلاً اخرجا هذا الخنجر من صدر الخائن أولاً.

فامتثل الرجلان ووضعا الخنجر فوق المنضدة، وهو يقطر دماً، ثم حملا الجثة، وخرجا بها وهما يترنحان، ثم شرعا يهبطان الدرج.وإذ تلاشى وقع أقدامهما قالت كليوباترا:

– أظن أنك في حالة سيئة يا هارما كيس، ما أعجب تصرفات القدر لقد كاد يصيبني ما أصاب ذلك الخائن يوليوس، وكادت هذه الدماء التي تقطر من الخنجر أن تكون دمي.

فظهرت الحقيقة أمام عيني، وأدركت أن يوليوس هو الذي وشي بي.

واستطردت كليوباترا:

– نعم، كنت أعلم أنك قادم لاغتيالي أمس، ولم يخف عني أنك تقبض على مقبض خنجرك كلما رفعت يدك إلى صدرك، وأنك تستجمع قواك لترتكب تلك الجريمة المروعة التي لم تكن شديد الميل لارتكابها.. آه! كم كانت ساعة رهيبة! ولست أكتمك أنني طالما تساءلت لمن تكون الغلبة، أنت أم أنا، فكلانا كان يحارب صاحبه بسلاح المكر والخداع والقوة.

نعم.. إن رجال الحرس خارج غرفتك، ولكن لا توجس شراً، فلولا علمي بأنني أقيدك بقيود أقوى من السلاسل والأصفاد، وأنني أحتمي من شرك بسياج من الشرف يصعب عليك اجتيازه أكثر من تخطي رماح جميع جيوشي وحراسي، أقول لولا أنني واثقة من ذلك كله، لكنت الآن في عداد الأموات.. أنظر ها هو ذا خنجرك.

ثم دفعت الخنجر إلي، وكشفت عن صدرها وعنقها.. واستطردت:

– اقتلني إذا استطعت.

وراحت ترمقني بعينين ملؤهما الطمأنينة والهدوء، وأكملت:

– إنك لا تستطيع قتلي، فثمة أشياء لا يستطيع إنسان مثلك أن يقوم بها ويعيش، ومن أهم هذه الأشياء أن يقتل الرجل المرأة التي هي له، لا.. لا تحول سن الخنجر إلى صدرك، لأنك إن لم ترد قتلي.. فأحرى بك ألا تقتل نفسك يا كاهن إيزيس، وناكث عهدها! هل تتوق إلى مواجهة ذلك الحلال الذي انتهكت حرمته ؟بأية عين تظن أن (الأم) تنظر إلى ابنها الذي جاء ليرفع إليها فروض الولاء وهو يرتدي ثوب الخزي والعار، بعد أن حنث بأقدس الإيمان، ثم تخاذل في النهاية وقتل نفسه!! أين تجد المغفرة يا صديقي إذا رغبت في التوبة؟!

كاد قلبي يتمزق من فرط الأسى والألم، فقد نطقت كليوباترا بالصدق، ولم أجد في نفسي الشجاعة على الانتحار!! نعم.. وجدت نفسي في مأزق لا أجرؤ فيه حتى على الموت. فتهالكت فوق الفراش.. وبكيت. بكيت بدموع الألم والحسرة، بيد أن كليوباترا دنت مني، وجلست بجانبي، وحاولت أن تعزيني، وتسري عني؛ فطوقت عنقي بذراعيها وقالت:

– لا يا عزيزي، أنظر إلي!! إنك لم تفقد كل شيء، فأنا لست ناقمة عليك فكلانا قام بدوره خير قيام، ولكني قاومت سحرك بسحري النسائي فانتصرت في النهاية. لست ألومك في الواقع على الجهود التي بذلتها لاستعادة العرش الذي استولى عليه آبائي، ولو كنت مكانك لفعلت ما فعلت، ولما ترددت في الإقدام على العمل الرهيب الذي أقسمت أن تتمه.

نعم يا هارماكيس، إنني أعطف عليك من هذه الناحية، عطفي على كل عمل عظيم يدل على الجرأة والبسالة، ولست ألومك على حزنك لما أصابك من فشل، ومن هنا كان عطفي عليك كامرأة، امرأة عاشقة.

قليلون من يعرفون حقيقة عواطفي وميولي، ليس في مصر كلها من يخفق قلبه بحب مصر مثلما يخفق قلبي، ولا حتى قلبك يا هارماكيس، ولكني مغلولة اليدين بسبب الحسد والغيرة والبغضاء، حتى صرفتني عن العمل لرفاهيتها.

ولكنك ستدلني كيف أعمل لسعادة مصر، لأنك ستكون مستشاري وحبيبي، هل تظن أنه من الهين أن تأسر قلب كليوباترا، ذلك القلب الذي أردت أن تسكنه إلى الأبد بطعنة من خنجرك؟ نعم ستكون أنت حلقة الاتصال بيني وبين شعبي يا هارماكيس، وسنحكم معا، ونربط بين المملكتين الحديثة والقديمة، ونعمل على تحسين حال الفلاح، وتصعد أنت إلى عرش فرعون من سبيل سهل شريف.

إصغ إلي يا هارماكيس، سأعمل على ستر خيانتك بقدر المستطاع، صحيح أنني أطلعت على وثائقك السرية وأمرت بتشتيت المتآمرين، ولكنني سأحاول جهد طاقتي أن أعفو عنهم من أجلك

فرفعت رأسي.. وسألتها:

– وماذا أصاب الذين معي، أولئك الذين وضعوا ثقتهم في؟

فنهضت ووضعت يدها فوق ذراعي ثم قالت:

– قلت لك إنني سأعفو عنهم من أجلك، وأقسم بعرشي، وبجميع آلهة مصر ألا أمس شعرة واحدة من رأس أبيك امينمحعت، وإذا لم تكن الفرصة قد ضاعت فسأعفو أيضا عن خالك سيبا ومن كانوا معه، فهل أنا امرأة قاسية كما يدعون يا هارما كيس؟! إن في قوائمك أسماء قوم يستحقون الموت، ولكني لن أنكل بهم.

وضحكت ثم استطردت:

– ولكني لن أمنحك ذلك كله بدون مقابل، عليك أن تشتري ذلك مني، وأما الثمن فباهظ جداً، إنه قبله يا هارما كيس.

فأجفلت وأشحت بوجهي عنها وأنا أقول:

– لا، هذا ثمن باهظ.. لن أقبل أحداً بعد الآن.

فعبست وقالت:

– فكر في الأمر، واختر لنفسك ما يحلو، قارن أيها الكاهن الموقر بين عبء حبي الثقيل، وموت أبيك الشيخ والذين تآمروا معه.

كانت غاضبة، وعيناها متوقدين، وصدرها يعلو ويهبط، فأدركت أنها قد بتت في الأمر وألا شيء يثنيها عن عزمها.. وتنهدت ثم قبلتها، وبذلك سجلت عاري واستعبادي.وابتسمت كليوباترا ابتسامة الفوز والظفر، ثم

مضت عني وقد احتفظت معها بالخنجر. وحرت في تفسير تصرفها هذا، ولم يدر بخلدي أنني خدعت.. وإنها خشيت أن تقتلني ليقينها أن المؤامرة مازالت قوية، وأنها إذا قضت عليّ هبت ريح الثورة وقذفت بها من فوق عرشها.. لم أدرك أنها إنما عفت عن شركائي بدافع من خوفها، ولأجل اعتبارات سياسية، ومهما يكن فقد برت كليوباترا بوعدها، وأطلقت سراح الجميع.

الفصل التاسع

سخرية شارميون

قضيت أحد عشر يوما وأنا سجين في غرفتي، ولم أر خلال هذه المدة أحداً غير الحراس والعبيد الذين كانوا يحملون إلى الطعام والشراب.وكانت كليوباترا تكثر من زيارتي، ولا تدخر وسعا في إحاطتي بكل ضروب الحب والعطف، بيد أنها تجنبت كل إشارة إلى ما يدور خارج القصر..

وكثيراً ما حولت مجرى الحديث إلى نظام الحكم في مصر، ثم تسألني عما عساي اقترحه لإسعاد الشعب وصد مطامع الرومان وإرهابهم، فكنت أجيبها بادئ الأمر بتحفظ وألم.. ولكن سرعان ما أنست إليها فرحت أحدثها بمقترحاتي.. وكانت تصغي إليّ بفرح لا يوصف.

وهكذا أخذت كليوباترا تتغلغل في أعماق قلبي، إلى أن تعلمت كيف أحبها بل لقد طغى حبها على كل شيء آخر، فلم أعد أفكر إلا فيها، مع إنها أصل ذلي وبلائي.

واتفق أن جاءت كليوباترا لزيارتي ذات يوم، وقالت إنها جاءت على عجل من مجلس عظيم عقد للنظر في حروب أنطوني في سوريا، ثم جلست قبالتي ضاحكة وقالت إنها سئمت حديثهم.. فاعتذرت لهم بسبب ورود رسالة من روما، ثم استأذنت في الإنصراف على أن تعود إليهم بعد قليل.

وفجأة انبعثت واقفة، ثم خلعت التاج الملكي، وثبتته فوق رأسي، كما وضعت العباءة الملكية على منكبي وقدمت إلى صولجانها.وجثت أمامي،

وضحكت مرة أخرى، ثم أحاطت عنقي بذراعيها وقبلتني.. وقالت إنني ملكها وإنها أطوع لي من بناني. وتذكرت حفلة تتويجي في معبد أبوثيس، وإكليل الزهور الذي توجتني به كليوباترا (ملكاً للحب)، فثارت ثائرتي وعصف الغضب بين جنبي، فقذفت بالتاج والعباءة والصولجان فوق الأرض. وزأرت في وجهها:

– كيف تجرؤين على السخرية مني، أنا طائرك الحبيس؟

وأخافتها هيئتي، فتراجعت إلى الوراء، وقالت:

– أنا أسخر منك؟

وغضت من بصرها، واستطردت في لهجة عذبة:

– أصغ إلي يا هارماكيس، لقد عزمت على الاقتران بك، فكف عن الإضراب عن تناول الطعام، فقد أبلغني العبيد ذلك، ثم إن اصفرار وجهك خير شاهد على ما يقولون، إنني لم أبقيك في الأسر إلا لأنك عزيز على نفسي، ومحافظة على شرفك وحياتك بعد ما ذاع من خيانتك لقضية مصر، ومهما يكن فسأطلق سراحك غداً، وستظهر في البلاط مرة أخرى بوصفك منجمي.

ثم استأذنت وانصرفت، بعد أن وعدتني خيراً.

لم يبق لدي ثمة شك في أن كليوباترا تنوي الزواج بي رسمياً، ومازال هذا اعتقادي حتى الآن، فقد كانت جميع تصرفاتها معي تعزز هذا الإعتقاد. وجاءت شارميون لزيارتي في اليوم التالي، ولم أكن قد رأيتها منذ تلك الليلة التي اكتسيت فيها ثوب العار.

واجهتني الفتاة بوجه مصفر، وأرخت عينيها إلى الأرض ثم قالت بصوت رقيق:

– أرجو المعذرة لتجرؤي على القدوم إليك بدلا من كليوباترا ولكن لا تحزن لأنها ستأتي في التو.

فانتفضت لهذه الكلمات اللاذعة، وأدركت الفتاة سوء حالي فاستطردت:

– لقد جئت إليك يا هارماكيس، يامن لم تعد ملكاً، لأقول لك أنك مطلق السراح وأنك حر في مواجهة عارك، ورؤيته مجسماً في كل عين وضع صاحبها فيك ثقته، جئت لأقول لك إن المؤامرة التي قضى المصريون الأبطال عشرين عاما في تدبيرها قد قضي عليها قضاء تاماً، وتشتت شمل مدبريها، فخمدت الزوبعة قبل أن تثور، وكل ذلك بسبب خيانتك.

فتأوهت وقلت:

– لم يكن الذنب ذنبي، فقد خاننا يوليوس.

– لم يخنك أحد، بل أنت الذي خنت العهد، لماذا لم تقتل كليوباترا وأنت منفرد بها؟ تكلم يا خائن!

– لأنها وضعت لي مخدرا في كأس الشراب.

– واحسرتاه يا هارماكيس، إنك بعت وطنك وقضيتك لقاء قبلة بغي، ولكن مهلاً فليس ببعيد ذلك اليوم الذي تراه هي ملائماً لتطأك بقدميها كشيء قذر.

فانتفضت مرة أخرى، وآلمتني كلماتها التي تقطر سخرية ومقتاً، ولكني تجلدت وسألتها بصوت حزين:

– ولكن كيف لم تعرف كليوباترا بأنك كنت أحد المتآمرين؟

– لم يكن اسمي مدوناً في القوائم.

وأمسكت هنيهة ثم استطردت:

– إن الفرصة سانحة للوشاية بي، فلماذا لا تنتهزها وتغدر بي لأنني أحببتك في أحد الأيام؟ نعم.. هل تذكر حبي؟ إنني أكثر الناس شعوراً بفداحة سقوطك، فإن العار الذي يلحق بمن نحب لابد أن يلحقنا كذلك، مهما كانت نذالة ذلك الشخص.

وقلبت شفتها احتقاراً وأردفت:

– من سوء الحظ أن وقتي لا يتسع لتبادل الحديث إنني جئت لأقول لك إنك مطلق السراح، وأن كليوباترا تنتظرك في قاعة المرمر.

وهكذا أعيدت إلى حريتي، ولكنها كانت حرية لفظاً، فإن الرقابة كانت شديدة جداً حتى لم أكن أستطيع أن أتجاوز فناء القصر,

وذات يوم وصل كونيتوس دليوس الروماني المراوغ، وكان يحمل رسالة لكليوباترا من مارك أنطوني أحد أعضاء الحكومة الثلاثية، الذي كان يقاتل في آسيا في تلك الأثناء. واستقبلت كليوباترا الرسول استقبالاً رسمياً رائعاً في القاعة الكبرى، وجلست فوق عرشها الذهبي يحيط بها ضباط البلاط والوصيفات وأنا.

وأمرت الملكة رجال التشريفات أن يأتوا بسفير أنطوني، ففتحت الأبواب الكبرى، ودخل الرسول الروماني بين قرع الطبول وتحية الحراس، وكان يلبس درعاً ذهبياً لامعاً، وعباءة قرمزية من الحرير، يتبعه ضباطه عن كثب.

وبينما كان رجال التشريفات يعلنون اسم دليوس وألقابه ومناصبه، كان هذا يحدق في وجه كليوباترا وهو يكاد يلتهمها بعينيه. وفرغ رجال التشريفات من مهمتهم، ولكن الرسول ظل على جموده لا ينطق بكلمة.. فقالت كليوباترا باللاتينية:

– السلام لك أيها النبيل دليوس، رسول أنطوني البطل العظيم، تكرم أيها الرسول وأبسط لنا الغرض من قدومك.

ولكن الرسول الماكر ظل على صمته.. فهتفت كليوباترا:

– لماذا لا تتكلم أيها النبيل؟ هل من شيء يعقل لسانك؟

فخرج الرسول من صمته أخيراً، وأجاب:

– أرجو المعذرة يا ملكة مصر الحسناء، فإن الجمال المفرط كالموت يعقل الألسنة، ولا عجب إن أنا وقفت مشدوهاً مأخوذاً أمام فتنتك وملاحتك.

ثم ابتسم وأردف:

– إن معي رسائل لك أيتها الملكة بخط أنطوني النبيل وختمه.. فهل تسمحين أن أقرأها على رؤوس الإشهاد؟

فأومأت كليوباترا وفض الرسول الأختام، وقرأ ما يلي:

"باسم الحكومة الرومانية الثلاثية أرسل، أنا مارك أنطوني أحد أعضاء هذه الحكومة، تحياتي إلى كليوباترا ملكة مصر العليا والسفلى التي تحكم بفضل الشعب الروماني..

لقد بلغنا أنك قد ساعدت الثائر كازيوس، عن طريق ألنيوس وسرابيون حاكم قبرص، ضد جيوش الحكومة الثلاثية النبيلة مما يتعارض مع وعودك وواجبك ، وحيث أننا علمنا أنك تعدين أسطولاً عظيماً لهذا الغرض ، فبناء عليه، ندعوك للقدوم إلى قليقيه في الحال، ومقابلة النبيل أنطوني لكي تجيبي بنفسك على هذه الإتهامات، وننذرك إنك إن عصيت أمرنا هذا عرضت نفسك للخطر والسلام".

تألقت عينا كليوباترا وهي تصغي إلى الرسالة، وقد رأيتها تشدد الضغط على جانبي عرشها المصنوعين على هيئة أسدين ذهبيين.. ثم قالت:

– قد سمعنا كلمات التملق والمداهنة، وها نحن نسمع كلمات التهديد والوعيد.. أصغ إلى يادليوس، إن التهم التي تكيلونها إلى في رسالتكم ليس لها نصيب من الصحة بتاتاً، فعد إلى سيدك وقل له أن البحر أمامه فإن شاء محاسبتنا! فليأت إلينا، وسنستقبله استقبال الملوك.

فابتسم الرسول ليخفي غضبه.. وقال:

– إنك لا تعلمين شيئاً عن أنطوني النبيل، فهو عنيف في كتابته، ولكنه أرق حاشية عند اتصالك به، ففكري في الأمر، ولا ترديني إليه بهذا الرد الجاف، فيعمل على الثأر منك وينقض على بلادك كما تنقض الصاعقة،

أتوسل إليك أن تلبي هذه الدعوة.. تعالي إلى قليقية، تعالي ومعك هداياك ولا تأتي على رأس جيوشك، بل تعالي بجمالك وزينتك ولا تخشي شرا من أنطوني النبيل.

وأمسك وهو يرمق كليوباترا بنظرة ذات مغزى، فغلى الدم في عروقي، ولم يخف معنى كلماته على كليوباترا، فاعتمدت ذقنها بين راحتيها، وبدت على وجهها أمارات التفكير العميق.

وأخيراً قالت:

– هذا أمر يحتاج إلى كثير من التروي وإمعان النظر، فأمهلنا عشرة أيام كي نتدبر جوابنا على رسالة النبيل أنطوني.

فأطرق الرسول هنية، ولم يلبث أن أجاب باسمها:

– ليكن ما تشائين أيتها الملكة، سأنتظر عشرة أيام ريثما تفكرين في الجواب.

وأومأت كليوباترا، فقرعت الطبول مرة أخرى، وانسحب دليوس وضباطه وهم يحيون الملكة بإحناء رؤوسهم.

الفصل العاشر

متاعب كليوباترا

استدعتني كليوباترا لمقابلتها في غرفتها الخاصة، ولما ذهبت، وجدتها قلقة مضطربة، تروح وتغدو في غرفتها كالطير الحبيس.. وإذ دخلت عليها جلست فوق أحد المقاعد، ثم مدت إلى يدها وقالت:

– أهذا أنت يا هارما كيس، لقد استدعيتك أسألك النصح والهداية. هل تعلم أن حياتي أصبحت جحيماً لا يطاق؟ فإنني لم أكد أنجو من سن خنجرك بأعجوبة حتى داهمتني هذه المشكلة العويصة، كعاصفة تجمعت وراء الأفق ثم ثارت فجأة، أرأيت إلى هذا النمر المتأنق؟! وهل سمعت ما جاء في رسالة أنطوني من الكلام المنغض؟! إنني أعرف أنطوني حق المعرفة، فقد رأيته قبل بلوغي سن الرشد، وهو رجل يجمع بين الحذق والحماقة، سهل الانقياد إذا ما تغلبت عليه شهواته، ولكنه إذا غضب انقلب إلى عدو شديد المراس، وفوق ذلك فهو كريم الخلق باسل، محب للنساء والخمر.

هذا هو أنطوني، فكيف ترى أن أرد على هذا الرجل الذي رفعه القدر إلى قمة المجد رغم إرادته؟ وبم تنصح لمجابهته والوقوف في وجهه؟

فأجبت:

– إن أنطوني ليس إلا بشرًا له نقطة ضعف، ويمكن التغلب عليه بمهاجمته من هذه الناحية.

– هذا صحيح، ولكنه واحد من أعضاء الحكومة الثلاثية، فهناك ليبدوس وذلك الشاب اكتافيوس، فلو أني ذهبت إلى قليقية ولم أتفق مع أنطوني لسارع بعقد الصلح مع رفيقيه، وانقض على مصر كالعقاب الكاسر في العمل يا هارما كيس؟

– ما العمل؟ نصده عنها ونرغمه على العودة إلى روما.

– ربما كان ذلك مستطاعاً لو أنك نجحت في مؤامرتك، وارتقيت عرش مصر، لأن الشعب كان يقف من خلفك يشد أزرك، ولكن المصريين يبغضونني، ويحقدون عليّ، ثم أنني لا أملك المال اللازم لاستئجار الرجال الذين يلقون بأنفسهم إلى ساحات الحروب.

وأمسكت هنية واقتربت مني، وسلطت علي سحر عينيها القاهرتين، وقالت:

– أصغ إلى يا هارما كيس، هل تستطيع أن تنبأني –بوصفك كاهن الأهرامات الأكبر– بما إذا كانت هناك كنوز مخبأة في جوفها.إنني بحاجة إلى المال لإنقاذ وطنك وإنقاذ نفسي من أيدي مارك أنطوني، فهل صحيح ما يقال عن كنوز مدفونة داخل الأهرامات؟

فأطرقت هنية ثم أجبت:

– بفرض صحة هذه الشائعات كيف يمكنني أن أثق بأنك ستستخدمين هذه الثروة لهذه الغاية النبيلة؟

فسألت بلهجة تشف عن القلق:

–إذن فهناك كنز.. كلا، لا تبعث السامة والضجر إلى نفسي يا هارما كيس، لأن الذهب بالنسبة إلي في مثل هذا الوقت العصيب أشبه بالماء يقع عليه الظمآن وسط الصحراء.

–نعم.. هناك كنز، ولو أنني لم أره، ولكنني أعلم أن صاحبه قد سجل فوقه ما معناه أنه يلعن إلى الأبد كل من يستولي عليه لأغراضه الخاصة ولذا لم يجرؤ أحد من الفراعنة الذين رأوه على أخذ شئ منه، برغم حاجتهم الماسة إليه..

– هل لك أن تريني هذا الكنز يا هارما كيس؟

فأجبت بصرامة:

– لن أفعل ذلك إلا إذا أقسمت أنك ستنفقينه في الدفاع عن مصر ضد أنطوني، وفي كل ما يعود بالخير على البلاد وأهلها.

فقالت بلهجة جدية:

–إنني أقسم، بل أقسم بحق كل إله في مصر أنك إذا أريتني هذا الكنز العظيم، فإنني أتحدى أنطوني، وأعيد دلبوس إلى قليقيه برسالة أشد قسوة من الرسالة التي حملها إلي، نعم.. وسأفعل أكثر من ذلك يا هارما كيس، سأخذك زوجاً شرعياً.. وأوكل إليك تنفيذ خططك ومشروعاتك في صد نسور الرومان عن مصر.

نطقت كليوباترا بهذه الكلمات، وهي تنظر إلي بعينين ملؤها الصدق والإخلاص فصدقتها، ولم تخالجني الريبة في نواياها، بل وشعرت لأول مرة

منذ فشلي وسقوطي بشيء من السعادة وراحة الضمير، فقد خيل إلي أنني لم أفقد كل شئ بعد، وأنني سأنال مع معبودتي كليوباترا ما فقدت من سلطة وجاه!

قلت:

– أعيدي القسم يا كليوباترا.

فأعادته.. وختمته بقبلة حارة.وبدأنا نتحدث عما سنفعله بعد الزواج، وكيف نتغلب على جنود أنطوني وهكذا خدعت مرة أخرى، ولو أنني أعتقد أنه لو لا غيرة شارميون، لتزوجت بي كليوباترا، وانقطعت صلتها بأنطوني. واتفقنا على الرحيل في الغد، على أن نبدأ في البحث عن الكنز بعد ليلتين..

وفي فجر الغد، أعد المسئولون زورقاً ذهبت إليه كليوباترا متنكرة في ثياب سيدة مصرية تريد الحج إلى هيكل (هورم– خو)، ورافقتها وأنا متنكر في ثياب الحجاج، وبرفقتنا عشرة من خدمها المخلصين في ثياب النوتية وصلنا إلى (صان الحجر) عند منتصف الليل، واسترحنا حتى الفجر ثم استأنفنا السفر، وعندما انحدرت الشمس نحو الأفق، كنا قد وصلنا إلى حصن بابليون، وهناك رسا بنا الزورق على الضفة الثانية من النهر.. ونزلنا إلى البر وانطلقتُ وكليوباترا، وخصي واحد، قاصدين الأهرامات؛ وكانت منا على بعد فرسخين، وبينما كنا نخترق حقلاً، رأيت حماراً يرعى، فأمسكته وألقيت فوقه عباءتي، ثم عاونت كليوباترا على امتطائه، وقدته في الطريق الموصل إلى منطقة الأهرام؛ وبعد ساعة لاحت لنا الأهرامات على البعد. واجتزنا مدينة الأموات، وتسلقنا التل الصخري، ثم انطلقنا بين صفين من القبور حتى وصلنا إلى الهرم الثالث؛ وتوقفنا وراحت كليوباترا تنظر إلى الهرم بدهشة وتعجب.

ثم سألت:

– هل هذا هو المكان الذي خبئ الكنز في جوفه؟

فأجبتها بالإيجاب، ومن ثم درنا حول الهرم، إلى أن وصلنا إلى جانبه الشمالي، حيث نقش في منتصفه اسم (منقرع) فرعون مصر الذي شيده ليكون مقبرة تضم رفاته.. ووضع به ذلك الكنز السري ليسد حاجات مصر وقت الشدة.

قلت لكليوباترا:

– إن الكنز مخبأ في بطن الهرم.. فهل أنت على استعداد للتعرض للمخاطر في سبيل الحصول عليه؟

فقالت وقد أخذت قواها تخور:

– ألا تستطيع الدخول مع الخصي.. وتأتيان بالكنز يا هارماكيس؟

– لا.. لا أستطيع إتيان هذا العمل، ولو كان ذلك لأجلك، أو لأجل خير مصر، لأنه أعظم جرم يقترف؛ بيد أن منصبي الكهنوتي يبيح لي أن أرى ملك مصر المكان الذي دفن فيه الكنز، إذا طلب إليّ ذلك، وأن أريه كذلك الإنذار المكتوب، وللفرعون بعد ذلك أن يقدر مبلغ حاجته إلى المال ويقرر هل تكفي هذه الحاجة لتحدي لعنة الميت أم لا.

لقد جاء في السجلات التي قرأتها أن ثلاثة ملوك أقدموا على استخراجه وقت الحاجة، وهم الملكة المقدسة حتشبسوت، وأخوها تحتمس، ثم المقدس رمسيس– ميامون.. لكنهم لم يجرؤوا على مس الكنز، بعد أن اطلعوا على نص اللعنة، وأدركوا أن حاجتهم إلى المال لا توازي التعرض لها..

فأطرقت كليوباترا هنيهة، وأخيراً هتفت:

– مهما يكن.. لابد أن أرى كل شيء على الأقل.

– على رسلك.

وبدأت ارفع الصخور، بمساعدة الخصي، وأضعها بعضها فوق بعض في بقعة معينة عند قاعدة الهرم، إلى أن بلغ ارتفاعها نحو متر ونصف متر، فأعليتها وبحثت عن العلامة السرية، ثم دفعت الصخرة المرسومة فوقها العلامة بكل قوتي وبطريقة معينة، فدارت الصخرة وكشفت عن مدخل ضيق لا يكاد يتسع لمرور شخص واحد..

ولم تكد الصخرة تدور حول نفسها حتى خرج من بطن الهرم خفاش غريب الخلقة، أبيض اللون، شيبه الدهر، لم يقع بصري من قبل على خفاش في مثل حجمه إذ كان في حجم عقاب كبير.. وحلق الخفاش هنيهة فوق كليوباترا، ثم ارتفع في الجو، وسرعان ما اختفى عن أعيننا.

وصرخت كليوباترا صرخة مروعة، وسقط الخصي على وجهه، أما أنا فدب الذعر في قلبي، ولكني لم أنبس ببنت شفة؛ ولو أنني لا أزال أعتقد أن روح منقرع قد اتخذت هيئة خفاش، وطارت من منزله المقدس منذرة إيانا بسوء عملنا.

تريثنا قليلاً ريثما نفذ شيء من الهواء النقي إلى داخل الهرم، ثم أخرجت ثلاثة مصابيح وأوقدتها، ثم أعطيت لكل من رفيقي مصباحاً.. واحتفظت لنفسي بالثالث. وتسلقت إلى الفتحة حاملاً معي حبلاً طويلاً، لففته حول خصري، ثم أشرت لكليوباترا لتلحق بي، فلفت رداءها حول جسمها، ثم

جذبتها إلى أعلى حتى وقفت ورائي في الدهليز؛ ولحق بنا الخصي، وأخرجت دليل الممر الذي جئت به معي وقرأت ما يحتويه، ثم سرت في الطليعة، فعبرنا المنحدر على ضوء المصابيح الضئيل، وكنا نلهث من تأثير الهواء الحار الكثيف.

وإذ اجتزنا المنحدر، أخذنا نهبط في دهليز نُحت في قلب الصخر، وكان شديد الإنحدار إلى مسافة عشرين خطوة تقريباً. وبعد قليل وجدتنا أنفسنا في غرفة مطلية باللون الأبيض، وكانت منخفضة السقف، فجلست كليوباترا لتستريح قليلاً، ولكنني قلت معترضاً:

– انهضي، يجب ألا نتلكأ هنا، وإلا أغمى علينا.

فنهضت، وواصلنا السير إلى أن بلغنا بابا ضخماً من الجرانيت، فأخرجت الدليل مرة أخرى، ثم ضغطت على حجر معين بقدمي، وتمهلت قليلاً، فتحركت الصخرة فجأة إلى أعلى من تلقاء نفسها، فسرنا من تحتها، إلى أن وجدنا أنفسنا أمام باب ثانٍ من الجرانيت، فضغطت مرة أخرى على حجر معين، فانفتح الباب، واجتزناه، ولم نلبث أن وجدنا أنفسنا أمام باب ثالث أشد ضخامة من البابين السابقين.

ضربت هذا الباب، كما جاء بالدليل، في بقعة معينة، فهبط ببطء وهدوء، إلى أن صارت حافته العليا في مستوى الأرض التي نقف عليها، فعبرناه وانطلقنا في دهليز قليل الإنحدار إلى أن وصلنا إلى غرفة كبيرة متسعة، في أرضنا تابوت كبير من الجرانيت، نقش على غطائه اسم زوجة الملك منقرع وألقابها.

ولم نتوقف في هذه الغرفة، بل استأنفنا سيرنا إلى رواق في نهايته بئر عمقها سبعة أذرع، فربطت طرف الحبل الذي جئت به معي حول وسطي وربطت طرفه الآخر إلى نتوء من الصخر، ثم هبطت والمصباح في يدي إلى أن وقفت في المكان الذي اختاره منقرع ليكون قبره الأبدي.

وبعد هنية لحقت بي كليوباترا، وأما الخصي فقد أمرته بأن ينتظرنا عند فوهة البئر، فأطاع كارهاً.

الفصل الحادي عشر

إستخراج الكنز

وقفنا داخل غرفة صغيرة مقوسة السقف، مرصوفة بكتل ضخمة من الجرانيت، كانت تضم بين جدرانها تابوت منقرع المقدس منحوتاً في صخرة واحدة من البازلت على شكل منزل خشبي، يرتكز على وجهه أبو الهول ذي وجه من ذهب، وقفنا نتطلع إليه في رهبة يحف بنا سكون المكان وجلاله، وفوقنا يقف الهرم الأكبر يكاد يناطح السحاب، بينما نحن في الأعماق تحتضننا الصخور الموجودة أسفل القاعدة.

كنا وحيدين مع ساكن القبر الذي جئنا لإقلاق راحته، ولا شيء حولنا من علائم الحياة وسط ذلك السكون الموحش.تطلعت إلى التابوت وكان غطاؤه مرفوعاً وملقى على أحد جانبيه، وبجواره تجمعت الأتربه طبقات فوق طبقات أشرت إلى نقش على الجدار بالرموز المقدسة القديمة وقلت هامساً:

– انظري.

فأجابت كليوباترا بصوت خافت:

– اقرأها يا هارماكيس لأني لا أستطيع.

فقرأت ما يلي:

"أنا رمسيس ميامن– قد زرت هذا الضريح وقت العسرة، بيد أنني على رغم شدة حاجتي لم أجرؤ على مواجهة لعنة منقرع، فلتكن لك، يا من ستأتي

بعدي، من ذلك عبرة، فإن كنت طاهر النفس نقيها وكانت مصر في أقصى حالات الحاجة.. فخذ ما خلفته"

فهمست كليوباترا:

– أين ذلك الكنز إذن؟ أهو ذاك الوجه الذهبي لأبي الهول؟

فأجبتها مشيراً إلى التابوت:

– إنه هناك اقتربي وانظري.

فاقتربنا متكاتفين، وأزلت الأتربة المتكدسة على الجثة الموضوعة بأسفل التابوت فإذا تعويذة من "نوت" كتبت لتحميه وتدفع عنه شر أعدائه وتهجمهم عليه.

فأعادت كليوباترا سؤالها:

– أين ذلك الكنز إذن؟

فطلبت إليها أن تقف عند رأس التابوت بينما وقفت عند مؤخرته، وتطلعت إلى جثة فرعون المحنطة المربوطة بعصائب اصفر لونها بتأثير الزمن، ووضعت تحتها سيقان زهر اللوتس، وكان على صدره لوحة كبيرة من الذهب سطرت بكتابة مقدسة، وكانت كما يلي:

"أنا منقرع الراقد في أحضان أوزوريس، أنادي من قبري من سيجلسون على العرش من بعدي، لقد حذرتني الآلهة في إحدى الرؤى أنه سيأتي يوم تخشي فيه مصر السقوط بين أيدي الأجانب، وسيكون حاكمها في حاجة ملحة إلى المال لتجهيز الجيوش لطرد المتبربرة من بلاده، فأوحت إلي الحكمة

أن أصنع ما أنا صانع، لقد وهبتني الآلهة الخير الكثير والمال الوفير، أنفقت منها ما أنفقت واستعضت بالباقي أحجاراً كريمة من الزمرد واختزنتها ليوم مصر العصيب.. ولكني أخشى ضعاف النفوس الذين يستهويهم الثراء ولذا أرسل صوتي عالياً إليك يا من لم تولد بعد، إن الكنز مخبأ داخل عظامي، فإذا كنت حقاً في حاجة إلى المال لتنقذ مصر من أعدائها فلا تخش ولا تردد، قطعني وفك الأربطة واستخرج الكنز من صدري ثم ضع عظامي في التابوت الأجوف، ولكن إذا لم تكن الحاجة إلى الأموال ماسة، أو استهواك الجشع، فلتحل عليك لعنة منقرع ولتعش طيلة حياتك تحصد شر ما اقترفت، ولتعش أيامك في البأساء والضراء إلى أن تموت"

وما إن انتهيت من القراءة حتى التفت إلى كليوباترا وقلت برزانة:

– لقد سمعت يا كليوباترا، فحكمي العقل وأجيبي.

فأطرقت برأسها ملياً ولم تلبث أن قالت:

– ليس بوسعي أن أقدم على هذا العمل، هلم بنا.

فشاع السرور في قلبي، ولكنها ما لبثت أن قالت:

–ولكن ماذا تقول الكتابة؟ زمرد أليس كذلك؟ وإن الزمرد الآن لأندر من العنقاء، ولطالما أحببت أحجار الزمرد.

–ليست المسألة يا كليوباترا ما تحبينه، ولكن ما تحتاجه مصر، وما يطويه صدرك من نوايا.

–بالتأكيد يا هارماكيس، أو ليست مصر في أمس الحاجة إلى المال؟

لقد نضب معين الذهب من الخزانة، وكيف يسعني أن أصمد في وجوه الرومان خاوية الوفاض؟ ها هي المحنة التي ظهرت لمنقرع المقدس في الرؤيا، لأنني إن لم أصد هجمات الرومان فلا بديل عن استيلائهم على مصر، وبدخولهم ينقرض منها الفراعنة، ولن يكون ثمة فرعون بعد ليتسلم الأسرار، إذن لنطرح الخوف خلف ظهورنا ولنبدأ في العمل، وما دامت قلوبنا قوية فليس هناك ما نخشاه يا هارما كيس.

فقلت:

– عليك وحدك أن تحكمي، وإذا لم يكن حكمك صادقاً، فستحل عليك اللعنة بلا ريب.

– حسناً يا هارما كيس، خذ رأس فرعون وسآخذ أنا... يا لله! ما أشد وحشة المكان! لقد خيل إلي أني رأيت شبحاً في الظلام يتقدم نحوي ولم يلبث أن اختفى!! ألم ترى شيئاً؟!

–كلا يا كليوباترا، ولكني أرجح أنه روح منقرع المقدس التي تحوم دائماً حول هيكلها، هلمي بنا إذن، فشد ما يسرني أن أغادر هذا المكان.

فوقفت كأنما تتأهب للخروج ثم استدارت وأردفت:

– إنه لم يك شيئاً.. ولكنه العقل الذي يجسم الخيالات في بيت "الفزع" كلا.. يجب أن ألقي نظرة على الزمردات، حتى ولو كان في ذلك حتفي.

صعدنا كلانا فوق أبي الهول، وأخرجنا جثمان فرعون المقدس ووضعناه، وأخذت من كليوباترا الخنجر وقطعت به الأربطة وزهور اللوتس فسقط

صوجان فرعون وكان مصنوعًا من خالص الذهب وبطرفه رمانة من الزمرد.حملقت كليوباترا في الصوجان مشدوهة، ثم عاودنا مهمتنا المقيتة، كادت تخنقنا حرارة المكان ورائحة العقاقير، ثم حللنا آخر لفة من القماش حول الجسم.

رفعت الجثة فوجدتها ثقيلة فهمست:

– إن الجواهر بداخل الجثمان، والآن إذا كان قلبك يطاوعك فشقي طريقاً إلى داخل ذلك الهيكل الذي كان من قبل فرعون مصر.

فتناولت الخنجر من يدي، ورفعت وجهها الجميل وعيناها الزرقاوان يشع منهما الوجل، ثم ضغطت على ناجذيها بشدة كأنما تلتمس العزم، وغاص خنجر الملكة الحالية في قلب من كان ملكا منذ ثلاثة آلاف سنة.ولم تكد تفعل ذلك حتى سمعت تأوها صادراً من المكان الذي تركنا الخصي فيه، فوثبنا واقفين، وأرهفنا السمع، ولكننا لم نسمع شيئاً، ورأينا المصباح ما زال يرسل ضوءه من خلال الفتحة من أعلى.. فقلت:

– لا شيء، دعينا ننته من مهمتنا.

جاست يد كليوباترا خلال صدر فرعون، واستخرجت منه زمردات نادرة لم تقع على مثلها العين، وكلما وضعت يدها كلما جاد لها صدر فرعون بما يبهر النظر حتى بلغت الزمردات ١٤٨ عداً، وفي النهاية وجدت جوهرتين نفيستين سيأتي ذكرهما.

تكدست الجواهر أمامنا، وعقل الخوف لساننا مرة أخرى، فلم نستطع أن ننبس ببنت شفة، فأومأت إلى كليوباترا وتعاونا على حمل هيكل فرعون،

وتسلقنا أبا الهول، ووضعنا الجثمان في التابوت، ومن فوقه الأكفا، ثم الغطاء.

حملت ما استطعت حمله من ذلك الكنز بين طيات ثيابي، والباقي دسته كليوباترا في صدرها، ثم ألقينا نظرة أخيرة على المكان، وغادرنا المدفن توقفنا عند البئر، وناديت الخصي الموجود في أعلى، وخيل إلى أن جواب ندائي كان ضحكة ساخرة، فتملكني الخوف مرة أخرى وخشيت إن نحن تأخرنا أن يغمى على كليوباترا، فأمسكت الحبل حول وسطها واجتذبتها إلى أعلى بمشقة.. ثم جلسنا نلتقط أنفاسنا اللاهثة.

وبعد لحظات تناولت المصباح، وحاولنا اختراق الظلام بأعيننا بحثاً عن الخصي، وفجأة وقع بصرنا على ما كنت أتوقعه، فقد رأيناه مستنداً إلى الصخرة ويداه مبسوطتان كما لو كان يدفع عنه شراً، وعيناه جاحظتان وفمه مفتوح، وقد تمثل الفزع على وجهه بأجلى معانيه، وكانت جميع الدلائل تدل على أنه فارق الحياة.

ثم رأينا – ويا لهول ما رأينا– ذلك الخفاش الأبيض الضخم الذي خرج علينا من جوف المقبرة حين هممنا بالهبوط إليها.. وقد أمسك بذقن الخصى وعيناه تشعان ناراً، وهو يتأرجح جيئة وذهاباً.

استبد بنا الرعب، ووقفنا نحملق في ذلك المنظر البغيض، وسرعان ما فرد الطائر أجنحته وأقبل صوبنا، وأخذ يروح بهما على وجه كليوباترا، ثم أرسل صرخة كصرخة امرأة غاضبة، وانفلت صوب القبر الذي انتهكت حرمته ثم اختفى في جوف البئر.

استندت على الجدار خشية السقوط، بينما هوت كليوباترا إلى الأرض

وغطت رأسها بيديها، وصرخت صرخة تجاوبت أصداؤها بين الصخور.

فصحت بها:

– انهضي.. انهضي ودعينا نغادر هذا المكان، وإلا قضي علينا فنهضت على قدميها وهي تترنح، ولن أنسى ما حييت نظرة الرعب الهائلة التي ارتسمت في عينيها في تلك اللحظة.

أخذنا نجتاز المكان بغرفه ودهاليزه حتى انتهينا إلى السلم الأخير، وهنا سقط المصباح وكادت تسقط كليوباترا معه، لولا مبادرتي إلى نجدتها، وفي محاولتي هذه سقط مصباحي كذلك فساد الظلام على الأثر.صحت بها مشجعاً:

– تجلدي وإلا ضعنا، وإن كانت الجواهر تثقل كاهلك فألقيها عنك.

فقالت لاهثة:

–كلا.. لن يكون ذلك، ولن يكون ما قاسيته دون ثمرة سأموت وهي معي.

إذ ذاك لمست شجاعة تلك المرأة، التي تعلقت بي وأخذت ترتقي الدرج رغم الظلام الدامس، والفزع الذي يخيم على المكان، إلى أن رأينا أخيراً أشعة القمر من خلال الفتحة، وما إن وصلنا إلى أعلى حتى سقطت كليوباترا على الأرض بلا حراك!

ضغطت على الحجر بيدين مرتجفتين، فاستدار وسد الثغرة، ثم قفزت وانطلقت إلى كليوباترا فوجدتها صفراء الوجه حتى خلت أنها ماتت، ولكني تحسست القلب فوجدته ينبض.وكان الإعياء قد بلغ مني مبلغه.. فجلست بجوارها على الرمال لأستجمع قواي.

الفصل الثاني عشر

تحية شارميون

أخيراً رفعت نفسي ووضعت رأس ملكة مصر على ركبتي ورحت أعيد إليها الحياة، ألا ما أجمل تلك المرأة حتى في ثيابها المشعثة وشعرها الطويل يتماوج على صدرها، تلك المرأة التي ستبقى قصة جمالها وخطيئتها إلى ما بعد زوال الهرم الرابض فوقنا.

تطلعت إلى وجهها الجميل، شاعراً أن قلبي بين يديها، وأحسست أن حبي قد ازداد بسبب تلك الخيانة التي خضت غمارها في سبيل الوصول إليها، وبسبب المخاوف التي واجهناها سوياً. لقد تملكني الخوف وأعياني التعب، فهفه قلبي إلى قلبها يلتمس الراحة، لقد أقسمت أن تتزوج مني، وسنتمكن بفضل الكنز الذي أخرجناه من تطهير البلاد من الأعداء.أخذت يدها بين يدي، وأيقظتها بقبلة في ثغرها، فأفاقت وندت عن صدرها تنهيدة الخوف، وحملقت في بعينين واسعتين وقالت:

– أهذا أنت؟ لقد أنقذتني من ذلك المكان المفزع!

ثم ألقت بذراعيها حول عنقي، وجذبتني إليها وطبعت على وجهي قبلة ثم قالت:

– هيا أيها الحبيب، دعنا نمضي، إنني عطشى، وجد متعبة، ولو أن اللآلئ تدفئ صدري.. آه! لم يسبق لي أن اكتسبت ثروة بمثل تلك المشقة!! تعال أيها الحبيب نفر من هذا الفزع! أين يمكننا أن نجد الماء؟

إني لا أضن على نفسي بجوهرة لمن يأتيني بقدح من الماء.

– سنجد الماء في الترعة المجاورة للأرض المزروعة قرب هيكل (هورمخو) اسدلى نقابك جيداً، وحاذري من أن تظهري تلك الجواهر للأعين.

فأسدلت النقاب على وجهها، وسرنا حتى وصلنا أخيراً إلى معبد الإله "هورمخو"، وكانت الشمس قد أرسلت أولى أشعتها الفضية وأنارت جوانب الوادي، وهنا تجلى "رع" (إله الشمس) بكل بهائه وجلاله!! هبطنا المنحدر حتى جاورنا الترعة.. ومنها ارتوينا.. وغسلنا أيدينا وجباهنا ثم واصلنا السير بجوار شاطئ النيل حيث كان القارب في انتظارنا.

وقضينا أربعة أيام للوصول إلى الإسكندرية لأن الريح كانت ضدنا، ألا ما كان أسعد تلك الأيام!

كانت كليوباترا بادئ ذي بدء واجمة يثقل صدرها ما عانته في جوف الهرم، ولكنها ما لبثت أن رجعت إلى نفسها، وكانت أبدًا دائمة التقلب فهي تارة مرحة، وطوراً عالمة، وحيناً مريضة، وأحياناً باردة! كانت متقلبة كالريح، عميقة كالسماء.

ما كان أسعد تلك الليالي الأربع..فيها جلسنا نتكلم عن الحب.. والزواج..ووضعنا الخطط الحربية للدفاع ضد الرومان..وكانت كل مقترحاتي تقابل بالموافقة وبابتسامة عذبة فاتنة.

وأسفاه.. لقد مر ذلك الوقت مر السحاب.

لقد انقضت تلك الليالي بعذوبتها وأحلامها،ووجدنا أنفسنا أخيراً نواجه أسوار القصر البغيضة.

قابلت شارميون مصادفة بعد عودتي فابتدرتني قائلة:

– أين كنت تتجول مع كليوباترا يا هارما كيس؟ ألغرض جديد من أغراض الخيانة؟! أم كانت سياحة حب وغرام؟

فأجبتها بحزم:

– لقد ذهبت مع كليوباترا لبعض الشؤون السرية المتعلقة بالدولة.

– حقًا! إن الذين يشتغلون في الظلام فإنما لأغراض شريرة، والطيور الخبيثة لا تطير إلا ليلا! إذا كنت حكيماً يا هارما كيس –وهذا ما لا أخاله– فالأجدر بك أن لا تظهر في مصر علانية.

استبد بي الغضب ولم أستطع احتمال تأنيبها فقلت:

– ألا يمكن أن تخاطبيني بغير تلك اللهجة الممقوتة! ألا فاعلمي أنني قد ذهبت حيث لا تجرؤين على الذهاب، وقد جمعنا الوسائل لحفظ مصر من يد أنطوني.

– حقاً! ما أغباك، كان الأجدر بك أن توفر على نفسك المشقة!! لأن أنطوني سيستولي على مصر على رغم أنفك.

– قد يستولي على مصر رغم أنفي، ولكن رغم أنف كليوباترا فلا.

فأجابتني بإبتسامة مريرة:

–كلا.. ولكنه بمساعدة كليوباترا سيتمكن من ذلك، وعندما تبحر الملكة في نهر سدنوس فهي لا بد مجتذبة قلب أنطونيوس إليها، وستأتي به إلى الإسكندرية فاتحاً!

– هذا إفك! لن تذهب الملكة إلى طرسوس! ولن يأتي أنطوني إلى الإسكندرية!

فضحكت ضحكة قصيرة وأجابت:

–أهذه أفكارك؟! حسنا.. فكر كما يحلو لك! ولكنك سترى بعيني رأسك في غضون أيام ثلاثة كيف هزأت بك! إلى اللقاء! اذهب وحلق في سماء الحب، فالحب –ولا شك– عذب لذيذ!!

ثم خلفتني وصدري يكاد ينشق من فرط الغضب.

لم أر كليوباترا في ذلك اليوم، ولكني رأيتها في اليوم التالي وكانت مهمومة منقبضة الصدر. تكلمت معها بشأن الدفاع عن مصر فتململت قائلة بغضب:

–لماذا تتعبني؟! ألا ترى أني غارقة وسط متاعبي؟! غداً بعد أن يتلقى دليوس جوابي نستطيع أن نتكلم في مثل هذه الشئون.

–بعد أن يتلقى دليوس جوابك؟ ألا تعلمين أن شارميون قد أنبأتني أمس أن جوابك سيكون: "اذهب بسلام، سآتي إلى انطوني"؟!

فوثبت كليوباترا على قدميها وأجابت غاضبة:

–إن شارميون لا تعرف شيئاً من أسراري، وإذا أباحت لنفسها الكلام مرة أخرى فسيكون نصيبها الطرد من بلاطي! ولو أن رأسها يحتوي من الحكمة والذكاء أكثر مما يحتويه رؤوس جميع مستشاري، ألا تعلم أني بعت أمس جانباً من الجواهر لبعض أغنياء اليهود بالإسكندرية بثمن مرتفع! نعم..

بعت الحجر الواحد بأربعة آلاف جنية! آه.. إني متعبة، إن ذكرى تلك الليلة المرعبة ما زالت تمر أمامي !!

وتحولت للإنصراف، غير أنني ترددت قليلاً وقلت:

– عفواً يا كليوباترا.. وماذا بخصوص زواجنا؟

– زواجنا! ألسنا في الواقع متزوجين؟

– نعم.. ولكن ليس علناً! لقد وعدتني يا كليوباترا.

– نعم وعدتك يا هارما كيس، وغداً بعد أن أتخلص من دليوس سأبر بوعدي.، وسأدعوك سيد كليوباترا أمام البلاط، هل أنت بذلك راضٍ؟

ثم مدت إليّ يدها لأقبلها وهي تنظر إليّ نظرات غريبة حرت في إدراك كنهها.

اجتمع البلاط في اليوم التالي قبل الظهر بساعة، وقد ذهبت بقلب واجف لأستمع إلى جواب كليوباترا إلى دليوس، ولكي أسمع كذلك إعلان تنصيبي ملكاً على مصر.. وعندما دخلت شارميون لتأخذ مكانها في البلاط ألقت عليّ نظرة سريعة، يشع منها بريق الفوز والظفر..

ثم نفخ في البوق وظهرت كليوباترا بجلالها وعظمتها، والتاج المرصع يتألق فوق رأسها، والزمردة التي استولت عليها من قلب فرعون تزين صدرها ويشع منها بريق يخطف البصر، بيد أن وجهها كان مكفهراً داكناً، ثم جلست ببطء وخاطبت رئيس التشريفات باليونانية قائلة:

– نادي السفير ليسمع جوابنا.

فتح الباب على مصراعيه ودخل دليوس يتبعه رتل من الفرسان يلبسون الدروع الذهبية، وكان يمشي مشية الهر المنتفخ الأوداج، ثم وقف أخيراً أمام العرش وقال بصوت رقيق:

–أيتها الملكة العظيمة الحسناء، لقد جئت لأتلقى جوابك على رسالة النبيل أنطوني، لأني سأبحر غدًا للقائه في قيليقية وإني استميح مولاتي العذر على جرأتي حين أقول فكري جيداً في الكلمات التي ستقولينها قبل أن تخرج من شفتيك الجميلتين، ففيها إسعادك وإسعاد شعبك، كما فيها تحطيمك، وتحطيم عرشك، وملكك.

ثم أحنى رأسه وعقد ذراعيه فوق صدره ووقف في انتظار الجواب.. لبثت كليوباترا هنية لا تحير جواباً، صامتة كأبي الهول، متطلعة بنظرات شاردة عبر القاعة، ثم أجابت بصوت موسيقي عذب، بينما وقفت صامتاً واجف القلب لسماع الرد:

–أيها النبيل دليوس، لقد قلبنا الأمر على وجوهه، فرأينا أن الكلمات التي حملتها إلينا عبر البحر لهي كلمات جافة نابية ما كانت تليق أن تلقى على مسامع ملكة مصر! ولقد أحصينا الجيش والأساطيل والأموال وخرجنا منها بنتيجة وهي أنه إذا كان أنطوني قويا فليس لمصر أن تخشى قوته؟!

ثم أعقبت ذلك فترة سكون وسرت في القاعة همهمة الإستحسان واستطردت:

– أيها النبيل دليوس، إننا أقوياء بحصوننا، أقوياء بقلوب رجالنا البواسل، ولكننا أبرياء من التهم التي وصلت إلى مسامع أنطوني والتي أرسل

يرددها بغلظة وخشونة على مسامعنا، ولذا فليس في نيتنا قط السفر إلى قيليقية للإجابة عنها.

ارتفعت همهمة الإستحسان مرة أخرى، بينا كان قلبي ينبض بشدة زهواً وافتخاراً، ثم قطع دليوس حبل الصمت قائلاً:

–أيتها الملكة المبجلة، إذن ستكون كلمتي إلى أنطوني هي "الحرب" فأجابت كليوباترا:

– كلا.. ستكون السلام، اصغ إليّ، لقد قلت إنني لن أبحر لمقابلته للرد على التهم، ولكن (وهنا ابتسمت لأول مرة) سنذهب طوعاً، ورضاً وفي الحال لنعلن صداقتنا، وحبنا للسلام على شواطئ نهر سدنوس شدهت.

وأخذت مني الدهشة كل مأخذ، أيمكن أن يكون ما أسمعه حقيقيا؟!

طار صوابي، فرفعت صوتي قائلا:

– أيتها الملكة، تذكري!

فاستدارت إلي كلبؤة مهتاجة وقالت:

–صه أيها العبد! من أمرك بأن تعكر صفو مجلسنا، اهتم أنت بشؤونك الفلكية، واترك أمور العالم لحكامه.

رجعت إلى الوراء خجلاً، بينا ارتسمت على شفتي شارميون ابتسامة الظفر والتشفي، عليها ظل من الشفقة على سقوطي. والتفتت كليوباترا إلى دليوس واستطردت:

–اذهب إلى سيدك وقل له أننا سنكون في أثرك وسنكون عنده قبل أن

يجد متسعاً من الوقت لتنظيم استقبالنا، إلى اللقاء.. ستجد في سفينتك شيئاً يدل على جودنا.

فانحني دليوس ثلاثاً وانسحب، بينما ظل المجلس ينتظر كلمة الملكة، ووقفت أنا كذلك في الإنتظار متسائلاً عما إذا كانت ستوفي بقسمها وتعلن زواجنا الملكي. ولكنها لم تنبس ببنت شفة بل وقفت مقطبة الجبين، ثم لم تلبث أن تركت العرش وعبرت القاعة يتبعها الحرس

نظر إلي رجال البلاط بعيون هازئة، فرحة لسقوطي، ولكني لم أعر نظراتهم التفاتاً بل وقفت ينازعني اليأس القاتل وأنا أرى الآمال التي بنيتها تنهار.

الفصل الثالث عشر

ضربة برينوس

لم يبق في القاعة سواي، فتحولت أبغي الخروج ولكن أحد الخصيان ربت خشونة على منكبي ودعاني لمقابلة الملكة..

يالقسوة القدر، هذا العبد الذي لم يك يتمنى منذ ساعة فقط إلا أن يجثو راكعاً تحت قدمي، يتنمر عليّ الآن ويعاملني بلغظة واحتقار.. ويل للعظيم حين يسقط!!

استدرت على عقبي بوحشية لمجابهة العبد الذي مالبث أن جبن وتبعني كالكلب، دلفت إلى حجرة المرمر، وسمح لي الحراس بالدخول، فوجدت كليوباترا جالسة وسط القاعة قرب النافورة، وبرفقتها شارميون والوصيفات فلما دخلت أمرتهن كليوباترا بالإنصراف.

وبعد لحظة كنا وحيدين في الغرفة، فوقفت أمامها وجهاً لوجه، رفعت أنظارها إلى للمرة الأولى وهتفت:

– إبق حيث أنت، لا تقترب مني يا هارماكيس، إنني لا أثق بك، إذ ما يدريني أنك لا تخبئ لي خنجراً آخر، والآن ماذا تريد أن تقول، وبأي حق تجاسرت على قطع حديثي مع الروماني؟!

أحسست بالدم يغلي حاراً في عروقي، وبعاصفة هوجاء تجتاح هدوئي، وتملكني غضب شديد.. فصحت:

–أجيبيني يا كليوباترا، أين قسمك الذي أقسمته على قلب منقرع الحي الأبدي؟! أين تحديك للروماني، وأين قسمك حين منيتني أن تعلني زواجك بي عليّ رؤوس الأشهاد؟

وهنا اختنق صوتي فلم أستطع إتمام الحديث، أجابتني بسخرية لاذعة:

–حسنا!! هل يلائم هرما كيس الآن أن يتكلم عن العهود، وهو.. ألم يحنث في عهوده قط؟! أنت يا كاهن إيزيس الطاهر!! أيها الصديق الوفي! الذي لم يخن أصدقاءه قط!! أيها الرجل الحازم الشريف المستقيم الذي لم يبع مبدأه وأمته، وقضيته في سبيل حب امرأة زائل؟

–لن أجيب على تأنيبك يا كليوباترا فإني حقيق به، ولو أنني لا أستحقه منك، أنت ستذهبين الآن في أبهى حللك لمقابلة أنطوني، ستقيمون الولائم، وتنغمسون في الفجور، إنك على وشك أن تبددي الكنز الذي انتزعته من جسم منقرع، ذلك الكنز الذي كان ذخراً لسد حاجات مصر، ولكنك تتبعت أهواءك وستجلبين على مصر العار، كيف لم تبري أنت بأقسامك! أنت يا من أحببتك ووثقت فيك؟! لقد خدعتني بنذالة! ألم تقسمي لي الليلة الماضية أن تتخذي مني زوجاً! والآن تعيرينني وتجلبين علي العار حتى أمام ذلك الروماني!

– أتزوجك! أأنزل عن حريتي طائعة مختارة وأقبل الذل والاستعباد؟ كلا.. هذا لن يكون، إنني أحب يا هارما كيس ولكني لا أتزوج.

فلم أتمالك أن صحت محتدماً:

– كليوباترا، لقد أقسمت أن تحمي مصر.. وها أنت على وشك تسليمها

إلى الرومان، لقد أقسمت أن تتخذي من الكنوز التي أفشيت لك سرها عوناً على رفعة مصر وها أنت على وشك أن تتخذيها كوسائل لجلب العار عليها! لقد أقسمت على الزواج مني، وها أنت تسخرين مني وترفضينني.إذن فلتسقط على رأسك لعنة منقرع، دعيني أذهب إذن أيتها "العار" أيتها "الكذبة" التي تدب على قدمين! دعيني أختفي ولا أرى وجهك مرة أخرى.

فنهضت غاضبة وصاحت:

– أدعك تذهب لتثير ضدي المتاعب وتنسج حولي وحول عرشي الشباك؟! كلا يا هارماكيس، ستذهب معي لزيارة أنطوني في قيليقية، وهناك قد أنظر في أمر إطلاق سراحك.

وقبل أن أحير جوابا ضربت الناقوس الفضي الموجود بجوارها فدخلت شارميون مع الوصيفات من أحد الأبواب ومن الباب الآخر دخلت فرقة من الجنود وأربعة من حرس الملكة الأشداء، فصاحت قائلة:

– اقبضوا على هذا الخائن!!

فأدى رئيس الحرس برينوس التحية، وتقدم نحوي شاهراً سيفه ولكني كنت قد بلغت أقصى حالات اليأس ولم أعد أبالي بشيء.

فانقضضتُ عليه وعالجته بضربة شديدة جعلته يسقط على الأرض فاقد الوعي، واستللت سيفه وواجهت رفيقه، وهويت به على درعه بجمع قوتي فأخطأه وفصل الرأس عن الجسد، فسقط صريعاً، وعندما انقض عليّ الثالث عاجلته بطرف سيفي، فاخترق جسده ولحق برفيقه، فانقض عليّ الأخير وهو يصيح بملء حنجرته:

– "تارانس!" فلم أمهله وأقبلت عليه بدوري ودمي يلتهب في عروقي، فصرخت الوصيفات من هول الموقف، ولكن كليوباترا وقفت صامتة تراقب تلك المعركة غير المتكافئة ضربته بكل قوتي، فأصابت الضربة الدرع وحطمت سيفي، وتركتني أعزل، فصاح الحارس صيحة النصر وهوى بالسيف على أم رأسي، ولكني اتقيته بدرعي، فأعقبني بأخرى واتقيتها كذلك، فرفع يده للمرة الثالثة؛ فوجدت أنها حال غير مجدية، فقذفت بالترس في وجهه، فارتد إلى الوراء وهو يترنح، فأمسكت به قبل أن يسترد توازنه.

التحمنا جسماً لجسم، في معركة عنيفة رهيبة، كان سلاحها القوة الجثمانية، وأخيراً تمكنت بفضل قوتي أن أرفعه بين يدي، وألقيت به على الأرض فدكت أضلاعه ولم يستطع أن ينطق بكلمة ، ولكني لم أستطع التماسك فسقطت فوقه، وهنا كان الكابتن برينوش قد أفاق فأقبل من خلفي وضربني بسيف أحد القتلى على رأسي ومنكبي، ولكن الضربة فقدت شدتها لأنني كنت ممداً على الأرض، ولأن قلنسوتي وشعري الكثيف قد خففا من حدتها كذلك، فلم أمت ولكني جرحت جرحاً بليغاً.

حينئذ تقدم الخصيان الجبناء كقطيع من الماشية شاهرين السيوف ابتغاء تمزيقي، ولكن برينوس كان قد كف عن الضرب حين رآني ملقى على الأرض، حيئذ تقدمت شارميون وحالت بيني وبينهم، كما تقدم برينوس ودفعهم بيده بعيداً، ثم التفت إلى الملكة وقال بلهجته اللاتينية الخشنة:

– أبقي على حياته أيتها الملكة، بحق جوبيتر إنه رجل شجاع، لقد هويت كالثور، وثلاثة من رجالي سقطوا بتأثير ضرباته، أبقي عليه أيتها الملكة الطيبة، وهبيه لي..

فصاحت شارميون وهي تهتز.. وجهها شاحب:

– أبقي عليه، ابقى عليه.

فاقتربت كليوباترا، وتطلعت إلى الموتى، ثم إليّ أنا، عشيقها من يومين فقط. فالتقت نظراتنا وصحت:

– كلا.. لا تبقي عليّ، والويل للمغلوب.

فاصطبغت وجنتاها بحمرة.. أظنها حمرة الخجل، فضحكت ضحكة قصيرة وهتفت:

– أنت تحبين هذا الرجل يا شارميون؟ حتى ألقيت بجسمك الرقيق بينه وبين الخصيان، تلك الكلاب التي لا وطن لها.

فأجابت الفتاة بحدة:

– كلا.. ولكني لم أستطع أن أرى مثل هذا الرجل الشجاع يذهب غنيمة باردة لتلك الكلاب القذرة!!

فقالت كليوباترا:

– نعم.. إنه لشجاع حقاً، ولم أر حرباً بمثل تلك الشدة حتى بين ألعاب الرومان، حسناً، سأبقي على حياته ولو أنه يعد مني ضعفاً، ضعفاً نسائياً، خذوه إلى حجرته، واحرسوه إلى أن يشفى أو يموت.

وهنا أصبت بإغماء، وغبت عن الوجود.

أحلام.. أحلام لا نهاية لها، وهي أبداً متغيرة، وكنت أسمع في آخر تلك

الأحلام: "امح اسم هارما كيس ابن الأرض من سجل الحياة." فيجيبه صوت آخر :"لم يحن الحين بعد، ما زال في الوقت متسع للتكفير،لا تمح اسم هارما كيس ابن الأرض من سجل الحياة."

أفقت فوجدت نفسي في غرفتي في برج القصر، ضعيفاً خائر القوى وفجأة سمعت حفيف ثوب ثم خطوات خفيفة سريعة، عرفتها جيداً.. إذ كانت خطوات كليوباترا.. دلفت الملكة إلى الغرفة واقتربت مني، فانتابني شعور متباين من الحب والكراهية، وقامت في نفسي ثورة هائلة.ومالت كليوباترا فوقي إلى أن مست شفتاها جبيني وهمست:

–أيها الرجل المسكين..أيها الرجل الضعيف الذي يجود بأنفاسه الأخيرة، لقد عاملك القدر بقسوة، إنك أعظم من أن تكون ألعوبة في يد امرأة مثلي، كان يجب أن يكون لك الفوز في النهاية، ولكن الكهنة الذين لقنوك علم الآلهة وحكمتها، لم يعلموك معرفة الجنس البشري ولم يحصنوك ضد قانون الطبيعة، إنك تحبني من كل قلبك ومن كل نفسك، ليتني أستطيع أن أحبك كما تحبني، ولكن قلبي كالمدينة الحصينة من الصعب التغلب عليه، آه!! من لي بشهر.. بل بيوم.. بل بساعة.. انسى فيها الملك وأعباء السياسة وأستطيع أن أكون فيها امرأة مغرمة، استودعتك الله يا هارما كيس، اذهب والحق بقيصر الذي خدعته كما خدعتك، ولكن من يدرى، ربما شاء القدر أن يخدعني في النهاية، إلى اللقاء يا هارما كيس.

وعندما همت بالذهاب، سمعت حفيف ثوب امرأة أخرى فقالت:

– أهذه أنت ياشارميون، إن الرجل يموت رغم سهرك عليه.

فأجابت الفتاة وفي صوتها رنة حزن:

– نعم أيتها الملكة.. هكذا يقول الأطباء، لقد قضى أربعين ساعة في غيبوبة، والآن لا تكاد أذناي تسمعان دقات قلبه، وقد ذبلت عيناي من السهر، واضمحل جسمي من الإعياء، أتكون هذه نهاية عملي!! لقد أصابت ضربة برينوس اللعين الهدف، فإن هارما كيس يموت.

– إن الحب لا يعرف للمتاعب معنى يا شارميون، ولا يحسب للآلام حساباً.

– إنني لا أحبه أيتها الملكة، كما برهنت لك من قبل، أو يمكن أن أحب رجلاً أراد اغتيالك، إنني أتولى تمريضه شفقة به فحسب.

فضحكت كليوباترا وأجابت:

– إن الحب توأم الشفقة ياشارميون، مسكينة أنت أيتها الفتاة، إن الحب يكاد يصهرك.. وهو يتقاذفك كيف يشاء، فأنت أرق من نسيم الصباح عندما يبتسم، وكالبحر الصاخب عندما تنشب الغيرة أظفارها في قلبك ولكن لا عجب، فهكذا خلقنا، ولن يبقى لنا بعد المتاعب غير الدموع وتأنيب الضمير، والذكرى.

الفصل الرابع عشر

ما زلت حياً بعد

لبثت هنية بعد انصراف كليوباترا استجمع قواي للكلام، ولكني شعرت بشارميون تقف إلى جواري، وأحسست بدمعة حارة تسقط على وجهي وهمست:

– إنك ذاهب يا هارماكيس، ذاهب إلى حيث لاأستطيع اللحاق بك آه!! إنني لأتنازل عن حياتي بكل رضى فداء لحياتك.

ففتحت عيني ببطء وغمغمت بخفوت شديد:

– إكبتي أحزانك أيتها الصديقة العزيزة، إني ما زلت حياً بعد، والواقع أنني أشعر كأنما حياة جديدة تتجمع في صدري.

فصرخت صرخة الفرح، ولم أر أجمل من ذلك التغيير الذي طرأ على وجهها الحزين، فالتمعت عيناها السوداوان، وارتسمت على ثغرها ابتسامة عذبة، ثم تهالكت بجانب الفراش وصاحت:

– إنك حي، إنك حي، وأنا التي ظننت أنك ستفارق الحياة وشيكا! آه.. ماذا أقول؟! ما أحمق قلب المرأة! كلا.. نم واسترح يا هارماكيس لا تنبس ببنت شفة، أين الجرعة التي تركها الطبيب الأحمق؟ كلا.. لا تتجرع شيئاً، ولكن نم يا هارماكيس.. نم.

وعندما استيقظت وجدتها ما زالت حيث هي، ولكن أنوار الفجر كانت

تطل من الكوة، وظلت جاثية بجانبي ويدها الباردة على جبيني وقد أسندت رأسها بذراعها، فهمست قائلاً:

– هل نمت يا شارميون؟

فاستيقظت في التو وحملقت في بعينين مسبلتين حناناً وقالت:

– نعم لقد نمت يا هارما كيس.

–كم ساعة؟

– تسع ساعات.

– وأنت قد أخذت مكانك بجانبي طوال هذه المدة؟

– نعم، ولكن ليس هذا شيئاً، فقد نمت أنا أيضاً، إذ خشيت أن أوقظك إن أنا تحركت.

– إذهبي وخذي قسطاً من الراحة، إنه من دواعي خجلي أن أفكر في هذا، اذهبي واستريحي يا شارميون.

– لا تقلق نفسك، سأدعو أحد الأطباء ليسهر على خدمتك، وإذا كنت بحاجة إلى شيء فأيقظني، سأنام في الغرفة الخارجية.

وقد حاولت القيام، ولكنها كانت منهوكة القوى، فلم تلبث أن سقطت ممددة على الأرض، لشد ما شعرت بالخجل من نفسي حين رأيتها تسقط، وأنا لا أستطيع أن أمد لها يد المساعدة، وقالت الفتاة:

– إياك أن تتحرك..

ثم حاولت القيام مرة أخرى، ولكنها سقطت أيضاً، فقالت:

– تباً لي، لابد أن أكون نائمة، سأرسل إليك الخادم الآن.

ثم تحاملت على قدميها ونهضت، وسارت في طريقها تترنح ترنح الثمل،استغرقت في النوم على الأثر لأنني كنت متعباً، ولما استيقظت بعد الظهر التهمت الطعام الذي أحضرته لي شارميون، ثم هتفت قائلاً:

– لقد أكلت، إذن لم أمت بعد.

–كلا.. إنك ستعيش، لقد حبوتك بعطفي وحناني.

– إن عطفك هو الذي رد إلى الحياة.

فأجابت بغير اكتراث:

– لا شيء.. وفوق كل ذلك فأنت ابن عمي، وأنا أحب التمريض، إنه تجارة المرأة، ولو كان مكانك خادم لما أوليته من عنايتي أقل مما أوليتك.

– لقد كان الأجدر بك أن تدعينني أموت يا شارميون، لأن حياتي لن تكون إلا عاراً متصلاً، خبريني متى ستبحر كليوباترا إلى قيليقية؟

– بعد عشرين يوماً، وقد أعدت عدتها للرحيل فأنفقت على زينتها ما لم تسمع به أذن، وفي الحقيقة لست أدرى من أين أتت بهذا المال كله؟

فأرسلت أنيننا مراً ولم أجب.. ثم سألتها:

– وهل ستذهبين كذلك يا شارميون؟

– نعم، وجميع البلاط كذلك، وأنت أيضاً ستذهب.

–أنا! كلا.. ولم؟

– لأنك عبد لكليوباترا، ويجب أن تسير مكبلاً بسلاسل ذهبية خلف المركبة، ولأنها تخشى أن تتركك في مصر.

– شارميون.. ألا من سبيل إلى الفرار؟

– الفرار.. إنك رجل ضعيف، مريض، فكيف تفر؟! وعلاوة على ذلك فإنه مفروض عليك رقابة شديدة، وإذا هربت فإلى أين تذهب؟ لن تجد في مصر إلا من يكن لك كل احتقار.

فتأوهت مرة أخرى من أعماقي، وشعرت بدمعي يجري على وجنتي، فقالت شارميون بسرعة، وقد أشاحت بوجهها:

– لا تبك.. كن رجلاً وتغلب على متاعبك، لقد زرعت ويجب أن تحصد، ولكن بعد الحصاد سترتفع المياه وتكتسح الجذور الفاسدة ثم تظهر البذور الجديدة، وربما واتتك الفرص في قيليقيه حينما تكون قد استرددت قوتك، هذا إذا كنت تحتمل العيش بعيداً عن ابتسامة كليوباترا، وحينئذ يجب أن تعيش في أرض سحيقة إلى أن ينسى كل شيء والآن إلى الملتقى، سأحضر بين الحين والحين لزيارتك ولقضاء ما عسى أن تكون بحاجة إليه.

ولما انصرفت شارميون، تولى تمريضي طبيب وخادمتان، وعندما شفي الجرح استرددت قواي، ولم تمض أربعة أيام حتى غادرت الفراش، وبعد ثلاثة أخر تمكنت من السير في الحديقة، وبعد أسبوع استطعت أن أقرأ وأفكر.

وأخيراً جاءتني شارميون بعد ظهر أحد الأيام، وطلبت مني أن أعد العدة للإبحار بعد يومين إلى قيليقية.

فكتبت إلى كليوباترا أرجوها أن تسمح بتركي محتجاً بضعف صحتي، ولكنها أبت، وصممت على ذهابي معها، وفي اليوم المعين حملت على محفة إلى القارب وكان يصحبني برينوس وبعض جنوده، ولم يأتوا إلا لحراستي. أبحر الأسطول على إثر تلقي الإشارة، فمررنا في اليوم التالي على سوريا ولبنان إلى أن وصلنا أخيراً إلى مصب نهر سدنوس.

عادت إلى قواي بفضل نسيم البحر العليل، وقد أصبحت كما كنت أولاً لولا ذلك الخط الأبيض في رأسي وهو أثر إلتئام الجرح.

وبينما كنا جالسين منفردين أنا وبرينوس ذات أمسية، وقعت عينه على ذلك الخط الأبيض فأقسم بآلهته إيماناً مغلظة قائلاً:

– لو أنك مت يا هارماكيس، لما كان في إمكاني أن أرفع رأسي بعد ذلك! يالها من ضربة جبان!! إنني أخجل من نفسي كلما تذكرت أنني أنا الذي طعنتك من الخلف، ممدداً على الأرض!! ألا تعلم أنني كنت آتي يومياً للإستفسار عنك؟

قلت:

– لا تزعج نفسك يا برينوس، لقد أديت واجبك.

– قد يكون واجباً، ولكن هناك من الواجبات ما لا يليق بالرجل الشريف أن يؤديه، حتى ولو كان بأمر ملكة مصر، ولكن ما هذا أيها الصبي؟ ألست

على وفاق مع ملكتنا؟ لم يسجنونك هكذا في مثل تلك الرحلة السارة؟ ألا تعلم أننا مكلفون بمراقبتك بشدة وأن هربك قد ندفع حياتنا له ثمناً؟!

فأجبت:

– أجل.. إنني على غير وفاق مع الملكة يا صديقي، ولكن لا تسألني المزيد؟

– إذن.. فلابد أن في المسألة امرأة؟ فماذا تقول أيها الصبي؟إصغ إلي.. لقد سئمت خدمة كليوباترا، ومللت العمل في تلك الأراضي الحارة ذات الصحاري، ومللت اللهو، دعنا إذن نستقل إحدى السفن ونذهب إلى الشمال، سأقودك إلى بلاد أفضل من مصر حيث البحيرات والجبال والغابات، والصنوبر ذو الرائحة الزكية، وحيث تجد هناك فتاة تصلح لك زوجة –وهي ابنة أخي– فتاة قوية، مديدة القامة، ذات عينين زرقاوين، وشعر طويل، وذراعين قد تسحقان أضلاعك إذا ما فكرت في عناقك، فما تقول في ذلك؟ هيا.. ودع الماضي جانباً، دعنا تذهب إلى أرض الشمال الطيبة، وكن لي ولداً.

فكرت في الأمر لحظة ولكني هززت رأسي في أسف، لأنه ولو أنني كنت جد راغب في الذهاب.. إلا أنني كنت أعلم أن مصيري مرتبط بمصر فقلت:

– لن يكون ذلك يا برينوس، لأن القدر قد ربط مصيري بأرض مصر، برباط لا أستطيع منه فكاكاً، ففي أرض مصر سأحيا وسأموت.

فقال المحارب الشيخ:

– لك ما تريد يا بني، لقد كنت أرجو أن أزوجك واتخذك لي ولداً ولكن تذكر دائمًا أن لك في برينوس خير صديق، وثمة شيء آخر.. إلزم دائماً جانب الحذر من ملكتك الجميلة، لأنه قد يأتي الوقت الذي تظن هي فيه أنك قد علمت من أمرها أكثر مما يجب، وعند ذلك –ثم مر بيده على عنقه إشارة إلى الذبح– والآن طاب مساؤك، عليك بقدح من النبيذ واذهب إلى فراشك..لأن الجهالة...

(هنا بعض صفحات من أوراق البردي أصابها العطب فأصبح من المتعذر فك رموزها، والظاهر أنها كانت وصف رحلة كليوباترا إلى طرسوس) ثم يأتي بعد ذلك ما يلي:

لقد كان المظهر جميلاً يأخذ بالألباب، فمقدمة السفينة موشاة بالذهب ومجاذيفها من الفضة، وكانت كليوباترا مضطجعة تحت مظلة تتوهج بالخيوط الذهبية، وعليها ثوب من الحرير الناصع البياض وتربط خصرها بحزام من ذهب ذي نقوش بديعة.

سرنا تحف بنا المهابة والعظمة، وكلما وصلنا إلى بلدة تجمع أهلها لتحيتنا قائلين "لقد أشرقت (الزهرة) من البحر وأتت لزيارة باخوس"

اقتربنا من المدينة فازدحم الأهالي لتحيتنا واستقبالنا، وأقبل أنطونيوس بطلعته الملكية يحيط به قواده، وما إن وقعت عيناه على كليوباترا حتى وقف مشدوهاً، وعندما نظرت إليه تورد وجهها فاشتعلت الغيرة في قلبي، ورأت شارميون ذلك فأرخت عينيها وابتسمت، ولم تنطق كليوباترا بكلمة بل مدت إليه يدها البضة لتقبيلها ثم قالت بصوتها الموسيقي العذب:

– انظر أيها النبيل أنطوني، لقد دعوتني وهأنذا قد لبيت.

فأجابها بصوت عميق، وعيناه لا تزالان شاخصتين إلى وجهها:

– إن فينوس "إله الحب" قد حضرت، لقد دعوت إمرأة، ولكن جاءتني إلهة.

فضحكت وقالت ببديهتها الحاضرة:

– لتجد إلهاً يحبها على الأرض، لندع المجاملات لحظة، لأن فينوس جائعة، أيها النبيل أنطوني.. أعطني يدك.

ونفخ في البوق، وسارت كليوباترا ويدها في يد أنطوني بين صفين من الجموع الغفيرة.. إلى المأدبة.. (هنا بعض أوراق من البردي غير مقروءة).

الفصل الخامس عشر

عهد كليوباترا

في الليلة الثالثة أقامت كليوباترا مأدبة فاخرة في صالة القصر الكبير الذي خصص لإقامتها، وكانت حفلة رائعة فاقت كل ما عداها.وقد أُمرت أن أقف خلف الوسادة التي اتكأت عليها كليوباترا، مع شارميون وباقي الوصيفات كعبد رقيق، ولكني أقسمت لتكونن هذه آخر مرة أحتمل فيها هذا العار، فقد طفح الكيل، ففضلا عن علمي من شارميون بأن كليوباترا ستصير عشيقة لأنطوني، فإنها لم تكن تعاملني إلا كعبد، وكانت تجد لذة في تعذيبي على هذه الصورة.

وعند انتهاء المأدبة تطلع أنطوني إلى ما حوله من أبهة وجلال وهتف متسائلاً:

– ألا خبريني أيتها الحبيبة، هل تتحول رمال النيل في يديك إلى ذهب حتى صار في استطاعتك أن تنفقي على مأدبة ليلة ما يوازي فدية ملك؟! من أين لك تلك الثروة؟

وحيئذ تذكرت قبر منقرع المقدس وكنوزه التي بعثرت هباء، وتطلعت إلى كليوباترا فرأيتها ترمقني وكأنما قرأت خواطري، فعبست ثم قالت:

– ماذا أيها النبيل أنطوني؟ إن هذا لا يعد شيئاً مذكوراً، ألا خبرني كم تظن قيمة تلك الآنية الذهبية، وما قدم في المأدبة من لحوم وخمر؟

– أظن أنها تساوي حوالي الثمانية آلاف جنية!

– هذا تقدير يوازي النصف أيها النبيل أنطوني، ولكني سأريك ما هو أعجب وأغرب، سأشرب في جرعة واحدة، ما يوازي عشرة أمثال هذا المبلغ!

– هل يمكن هذا أيتها الملكة الجميلة؟!

فضحكت.، ثم أمرت أحد الخدم بإحضار قليل من الخل الأبيض في قدح، ثم نزعت من أذنها إحدى تلك اللآلئ التي انتزعتها من قلب فرعون، وبدون أن يخمن أحد ما هي صانعة ألقت بالجوهرة في الخل، فساد صمت العجب وسرعان ما ذابت اللؤلؤة في الحامض القوي، فتناولت كليوباترا الكأس وشربتها حتى الثمالة، عندها صحت مدفوعاً بشيء لا أدري حقيقته:

–لقد حلت الساعة أيتها الملكة، ولعنة منقرع لابد آتية.

فعلى وجه كليوباترا الشحوب، والتفتت إلي مهتاجة، بينما تطلع الجميع إليّ في عجب! ثم صاحت قائلة:

– أيها العبد المنجم، إذا عدت لمثل هذا الكلام مرة أخرى فسأعاقبك ضرباً بالسياط.

فسأل انطوني:

– ماذا تعني بقولك أيها العبد المنجم؟ أفصح وزدنا إيضاحاً.

فأجبت بخضوع:

– إنني خادم الآلهة أيها النبيل أنطوني، وما تريدني الآلهة أن أقوله فإني أقوله، ولكني لا أستطيع أن أفسره.

فقالت كليوباترا وقد نفد صبرها:

– دع العبد وشأنه يا سيدي، غداً نتخلص منه، اذهب أيها العبد.

انحنيت وانصرفت، وانتظرت لحظة خارج الباب لا أدري ماذا أصنع، وبينما كنت واقفاً، إذ شعرت بيد تلمسني، وإذا بها شارميون، وقد انسلت من المأدبة إبان الهرج الذي حدث، لقد كانت شارميون دائماً بجانبي في وقت الشدة!

همست قائلة:

– اتبعني، إن الخطر يحلق فوق رأسك.

– إلى أين؟

– إلى حجرتي، ولا تخش لومة لائم، فذلك هو الحال في بلاط كليوباترا!

فتبعتها وصعدنا الدرج ودخلت إلى غرفة مظلمة على اليسار وجلسنا؛ هتفت شارميون:

– هل تعلم ماذا قالت كليوباترا بشأنك في غرفة المائدة؟

–كلا، ماذا قالت؟

– لقد أقسمت بحق سيرابيس أن تتخلص منك في الغد، وثق أنها لن تنتظر أكثر من ذلك.

– لا أكاد أصدق أنها تقدم على قتلي!!

– لم لا تصدق أيها الأحمق؟! هل منعت هي عنك الموت في غرفة المرمر

عندما كان الخصيان على وشك الفتك بك! سأريك مبلغ حمقك، صبراً وسأجعلك ترى بعيني رأسك!!

وسرعان ما أطفأت المصباح، وقادتني إلى ركن الحجرة، وفتحت باباً دلفنا منه إلى قاعة أخرى صغيرة، ثم أمرتني بالتزام الصمت التام.

وفي هذه اللحظة سمعت أصواتاً لا أدري من أين هي صادرة؟! ثم دفعتني إلى أحد جدران الغرفة رأيت فيه فتحات تطل على قاعة أخرى، وقع بصري منها على كليوباترا مضطجعة على وسادتها الموشاة بالذهب، وبجانبها أنطوني! وقد انهمكا في الحديث؛ كانت تقول له:

– أخبرني أيها النبيل أنطوني، هل سرك ما رأيت في مأدبتنا المتواضعة؟

– نعم يا سيدتي، إني وأقسم بالحق لم أر في حياتي مأدبة لها مثل هذه الفخامة والأبهة، ولقد كنت ريحانة الحفلة، فحمرة الخمر لم تك على شيء من حمرة خديك، ورائحة الورد لم يكن لها عبير شعرك، ولم يك سحر يعادل سحر عينيك الجميلتين.

– ماذا؟! أأسمع مثل هذا الإطراء من أنطوني؟ وهو الذي وجه إلينا بالأمس قوارص الكلم؟!

– لقد كانت وأقسم بالصدق حفلة بلغت غاية الروعة، ولكن لم تكن خالصة من شوائب الكدر، فقد ضايقتني كلمات ذلك المنجم النحس.

– لا تلق بالاً إلى ما قال، فقد أصيب بضربة على رأسه مؤخراً سببت له خبلاً.

– ولكنني لم أر عليه سماء الخبل، لقد شعرت كأن صوته هو صوت القدر! ورأيته ينظر إليك بعينين نفاذتين كعيني عاشق صب هجرته حبيبته، إني وحق باخوس بدأت أشعر بغيرة من هذا العبد!

– لن تأخذك منه غيرة بعد الآن، فغداً في الصباح يكون قد مات؟ والآن أيها النبيل أنطوني، كن جليسي لفترة وجيزة واخلع عن رأسك هذا التاج لأنه يسبب لي بعض الألم في جبيني، ولكن كن رقيقاً ولا تؤذني!

نزع أنطوني التاج، وهزت كليوباترا رأسها فانسدل شعرها ولفت غدائره جسمها الفاتن الناعم.

ثم هتف أنطوني:

–أيتها الأميرة الملكية، خذي تاجك ثانية من يدي، لن أسلبه منك، ولكني سأثبته على جبينك الوضاء.

– ماذا تعني أيها الأمير؟

– ماذا أعني؟! إنك تعلمين قبل غيرك ما في الإتهامات السياسية التي وجهت إليك من صحة، تلك الإتهامات التي كانت كفيلة بنزع التاج عن رأس أي ملك ما بلغت قوته، ولكن الأمر يختلف بالنسبة إليك، فالطبيعة قد وهبتك جمالاً، وجادت عليك بملاحة لم تجد بها على امرأة قبلك، ولأجل هذا الجمال الساحر وتلك الملاحة الفاتنة قد عفوت عن كل شيء.

– ما أنبل ما نطقت به شفتاك، يا فاتح العالم! إذا كنت قد أخطأت في الماضي فلم يكن ذلك إلا لأنني لم أكن قد عرفت أنطوني بعد، إذ من يعرف

أنطوني ويخطئ حياله؟! أنطوني معبود النساء وفاتح مغاليق قلوبهن كما تتفتح الزهور تحت حرارة الشمس!

يا أنطوني، ثبت التاج على جبيني، وسأقبله كهدية منك، وسأعتز به وأحافظ عليه، لهذا السبب سأكون به ملكة مصر وأنت امبراطور روما وأمير مصر المقدس!

وضع أنطوني التاج على جدائلها الذهبية، ووقف يلتهمها بعينيه الراغبتين النهمتين، ثم احتواها بين ذراعيه، وقبلها ثلاثاً.

تخلصت من قبضته برفق وهي تبتسم ابتسامة رقيقة، وبينما هي تنسحب إذ سقط الثعبان الذهبي المقدس عن جبينها، دون أن يشعرا به في غمرة غرامهما رأيت هذا النذير، وأدركت ما سوف تكون نتائجه، ثم هتف انطوني:

– ألا تستطيعين أن تحبيني يا كليوباترا وتكوني لي الوفية المخلصة؟

– إني لم أشعر بأن حياتي شيئاً حتى هذه الليلة السعيدة التي تذوقت فيها الحب الحقيقي، خذني بين ذراعيك ودعنا نقسم كلانا قسم الحب العظيم، يا أنطوني، من الآن وإلى الأبد، سأكون لك الوفاء بعينه، ولن أكون إلا لك.. ولك وحدك.

لم يعد يعوزني الدليل للتأكد من غدر كليوباترا بعد ذلك، فتناولت شارميون يدى واجتذبتني إلى الناحية الأخرى وقالت:

– هل رأيت الآن؟

– نعم.. لقد تفتحت عيناي.

الفصل السادس عشر

اعتراف شارميون

جلست لحظة مطرق الرأس، وقد شعرت في أعماق قلبي بمرارة الذل والعار، تلك إذن هي النهاية! هل لأجل هذا حنثت بإيماني، وأفشيت لها سر الأهرام؟ وفقدت تاجي وشرفي وربما أملي في السماء! هل يوجد في هذا العالم رجل قد أغرقته لجة الأحزان كما أغرقتني؟ لكن ماذا كان يسعني أن أفعل؟ وفي غمرة ذلك الحزن المبرح شعرت بأن قلبي يوشك على الإنفجار، ثم انهالت الدموع من عيني غزيرة، وبكيت أحر بكاء! اقتربت مني شارميون، وكانت هي الأخرى تنتحب وقالت:

– لا تبك يا هارما كيس، إنني لا أحتمل أن أراك منتحباً، أكنت تفضل ألا أحذرك؟ لقد سمعت ما نطقت به تلك المرأة المتنمرة الفاجرة، ستسلمك غداً إلى أيدى القتلة!

– هذا حسن.

–كلا، ليس حسناً يا هارما كيس، لا تمكنها من جني ثمرة النصر الأخيرة، لقد فقدت كل شيء إلا الحياة، ومع الحياة يعيش الأمل وبالأمل قد تسنح الفرصة للإنتقام؟!

فقفزت من فوق المقعد وهتفت:

– الإنتقام.. نعم.. لمَ لم أفكر فيه من قبل؟! نعم ما ألذ أن ينتقم الإنسان لنفسه.

– نعم.. حلو هو الإنتقام يا هارما كيس!! ولو أنه كالسهم الذي يصيب راميه حين إطلاقه! يجب أن تهرب قبل انبثاق الفجر، وهذه خطتي، أصغ إليّ، غداً قبل الفجر ستبحر سفينة تجارية راجعة إلى الإسكندرية، وسأحضر لك ملابس تاجر سوري وأزودك بخطاب توصية إلى الربان، وسيكون برينوس في الحراسة هذه الليلة، وبرينوس صديقي، وصديقك أيضاً، فما قولك؟

فأجبت بضجر:

– حسناً..

وجلست منتظراً، مكدود الذهن، والواقع أنه لولا تلك الرغبة الملحة في الانتقام لطاش صوابي.

أخيراً سمعت صوت وقع أقدامها في الخارج، ودخلت بخطوات متثاقلة وقالت:

– ها هو الرداء، وقد حصلت لك على كلمة السر من برينوس وهي "أنطوني" وهو ذا الخطاب إلى الربان، والآن سأنتظر بالخارج ريثما تستبدل ثيابك.

مزقت الثياب التي كنت أرتديها، وبصقت عليها ثم ألقيتها فوق الأرض ودست عليها بقدمي، وارتديت الثوب السوري، وعاونتني شارميون على تغيير ملامحي، حتى غدت هي نفسها لا تكاد تعرفني بهيئتي الجديدة، ثم ناولتني كيساً من النقود وقالت:

– خذ هذا، لأنك ستحتاج في رحلتك إلى النقود.

– لا أستطيع أن آخذ من مالك يا شارميون!

–كلا.. خذه لقد أعطاه لي "سيبا" للإنفاق منه على قضيتنا، وإذا احتجت أنا إلى شيء من النقود فسآخذ من سيدي العتيد أنطوني.

ثم عاونتني على إعداد المعدات اللازمة للسفر، قلت:

– لقد حان وقت الرحيل على ما أعتقد.

– كلا.. صبراً يا هارما كيس، احتمل وجودي معك ساعة أخرى فقد لا نلتقي بعد ذلك أبداً، إني أرجو عفوك يا هارما كيس، إذ قد ألقي على مسامعك كلمات شديدة الوطأة قبل رحيلك.

– قولي ما تريدين، فلن يكون للكلمات عليّ بعد ذلك من تأثير، بالغة ما بلغت مرارتها!

فوقفت أمامي ويداها على صدرها، ونور المصباح يضيء محياها المشرق ثم تكلمت أخيراً بما يشبه الهمس:

– عسيرٌ على أن أدعك تذهب يا هارما كيس دون أن تعرف الحقيقة، لقد كنت أنا يا هارما كيس التي أفشيت سرك.

فقفزت واقفاً، وشرر الغضب يتطاير من عيني، وأوشكت أن أصب لعناتي على رأسها، ولكنها أمسكتني من يدي، وهتفت:

– إجلس، ريثما تستمع إلى بقية القصة وعندها لك أن تفعل بي ما تريد، أصغ إليّ، منذ أن وقع بصري عليك، وقد نفذ حبك إلى قلبي، وملك تفكيري ومشاعري، ولكنك لم تكترث بي، وأبديت نحوي بروداً وإعراضاً، بل

ما هو أشد من ذلك وأصعب، فإنك لم تعتبرني إلا كآلة في يدك تستخدمها لبلوغ مآربك، بينما كان كل اهتمامك، وإعزازك موجهاً إلى كليوباترا.

طاش صوابي واستبد بي الغضب، وتملكتني روح شريرة لا أدري كنهها، وشعرت بتلك الروح تدفعني إلى الجريمة، فذهبت -ياجلي وعاري- إلى كليوباترا، وأفشيت لها سرك، وخنت قضيتنا المقدسة وقلت لها أنني قد عثرت على ورقة مكتوبة سقطت منك، وقرأت ما بها.

أخذت ألهث، ولكني ظللت واجماً، متطلعاً إلى الفتاة بعينين ملؤهما الحزن والأسى، واستطردت:

- دعني أقص عليك جريمتي كلها يا هارماكيس، وليأخذ العدل بعد ذلك مجراه!

كانت كليوباترا قد بدأت تحبك، وفكرت جدياً في أمر اتخاذك زوجاً لها، وإكراماً لهذا الحب صفحت عمن اشتركوا معك في المؤامرة، ولقد كان في نيتها أن تبر بوعدها وأن تجعلك زوجاً لها، ولكن حدث عندما جاء دليوس لتلقي الجواب، أن طلبت مني المشورة في الأمر، هل تعلن العداء لأنطوني وتتزوج منك؟ أم تطرح هذه المسألة ظهرياً وتذهب إلى أنطوني؟

وهنا -لابد أن تدرك مبلغ شناعة جرمي- نصحتها أن تذهب إلى أنطوني لأني تكهنت أنه لابد واقع في شرك غرامها، لقد دفعتني غيرتي العمياء إلى ارتكاب هذا الجرم على شناعته، وآثرته على أن أراك بين أحضان امرأة أخرى.

والآن ليس لدي ما أقوله يا هارماكيس، سوى أن حبي القاهر لك قد دفعني إلى تحطيمك، فحطمتك وحطمت مصر وحطمت نفسي كذلك،

والموت هو الجزاء الوفاق لي على جريمتي، فاقتلني يا هارما كيس، إني أتقبل الموت بسرور من حد سيفك، وسأقبل نصل الحسام وأنت تذبحني.

ثم خرت على الأرض راكعة وكشفت عن صدرها حيث أستطيع إغماد خنجري، ولكني صحت فيها قائلا:

– أيتها الفاجرة، انهضي لن أقتلك، من أنا حتى أحاسبك على جريمتك، بينما جريمتي لا يشفع فيها تكفير.

–كلا.. أقتلني يا هارما كيس، لأن وزري فوق الإحتمال، أقتلني وإلا قتلت نفسي.

– لن أقتلك يا شارميون، ولن أسمح لك بقتل نفسك، لقد زرعتي ويجب أن تحصدي، عيشي والتقطي من عام إلى عام ثمرة جرمك المر ليقلق الأحلام في نومك، ولينتظرك غضب الآلهة في أمنتي!

– لا تتكلم هكذا يا هارما كيس، فكلماتك أقطع من السيف، ولكن أصغ إلي، لقد كنت في أوج قوتك، والسلطة كلها في يدك، فرفضتني ونبذتني، والآن ها أنت طريد منبوذ، لا حول لك ولا قوة، ولكني ما زلت جميلة، وما زلت أعبدك، فدعني أهرب معك، اتخذني شقيقة، أو خادمة، أو حتى أمة لك، امنحني الفرصة لكي أتطلع إلى وجهك وأقاسمك همك وشجنك، سأحتمل كل شيء حتى الموت ما دمت إلى جانبك.

–كلا.. أيتها المرأة، لا أستطيع أن أروض نفسي على رؤيتك ورؤية فمك الذي باح بسري وخانني، كلا، ابقي في بلاط كليوباترا، فربما احتجت يوما إلى خدماتك، ولكن أقسمي لي ألا تخونيني مرة أخرى!

–أقسم يا هارماكيس، ولتحل على لعنة أشد وقراً من التي أحتملها الآن إن أنا فكرت في خيانتك.

–هذا حسن.. والآن يا شارميون التي أحبتني وسحقني حبها، إلى الملتقى.

تمعنت الفتاة في وجهي، ومدت ذراعيها كأنما لتمسك بي، ثم غلبها الهم والشجن، فسقطت في مكانها على أرض الغرفة.. أخذت معداتي واجتزت الغرفة صوب الباب، ثم ألقيت عليها نظرة أخيرة وقد تعفر جبينها بالتراب.

القسم الثالث
انتقام هارما كيس

الفصل الأول

الفرار

غادرت القصر قبل الفجر بساعة، وقد خيمت السكينة على المدينة، فاقتربت من البوابة متجها صوب الحارس، وكان ملتفاً بعباءة ثقيلة، وقال صوت عرفت فيه صوت برينوس:

– من القادم؟

– تاجر يا سيدي، قد جاء ببعض الهدايا من الإسكندرية لإحدى وصيفات الملكة والآن يريد الرحيل.

– وهل تستقبل وصيفات الملكة ضيوفهن إلى مثل تلك الساعة المتأخرة، ولكن كان القوم في حفلة، ما هي كلمة السر يا سيدي التاجر؟

– "أنطوني" يا سيدي.

وكان الحارس يمشي جيئة وذهاباً طول الوقت الذي احتجزني فيه ثم انحرف إلى اليمين ليفسح لي سبيل المرور من البوابة، ثم همس بسرعة وهو ينحني:

–إلى الملتقى يا هارما كيس، تذكر برينوس الذي خاطر برأسه ليخلصك، إلى الملتقى أيها الصبي، لشد ما كنت أرجو أن نبحر سويا إلى الشمال.

– إلى الملتقى يا برينوس، أيها الرجل الأمين.

وقد تناهى إلى علمي بعد ذلك، أنه في اليوم الذي تلا رحيلي تصايح

القوم لأنهم لم يجدوني برغم تفتيشهم الدقيق في كل مكان، وقد أدى لي برينوس خدمة عظيمة، لأنه أقسم أنه في أثناء حراسته في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، رآني واقفاً فوق السطح وأنشر ردائي الذي سرعان ما تحول إلى أجنحة وطرت به إلى السماء، تاركا إياه مشدوهاً، وقد قابل رجال البلاط هذه القصة بآذان مفتوحة، مصدقين ما قيل نظراً لما كنت أتمتع به من فنون السحر، وقد وصلت هذه القصة إلى مصر كذلك، وكان لها الفضل في تنقية اسمي إلى حد ما لاعتقاد العامة بأنني أعمل بإرادة الآلهة، وأن الآلهة هي التي رفعتني إلى السماء، لذلك ما توقفوا عن قول: "عندما يعود هارما كيس ستحرر مصر".

صدق الجميع تلك القصة إذن، ما عدا كليوباترا التي ساورتها الشكوك وأرسلت مركباً خاصاً للبحث عن التاجر السوري.

عندما وصلت إلى السفينة وجدتها على وشك الإقلاع، أعطيت الكتاب للربان الذي نظر إليّ نظرات غريبة ولم يقل شيئاً. عبرنا النهر حتى مصبه، ودخلنا إلى البحر تساعدنا ريح مواتية..

ولكن قبل المساء هبت عاصفة شديدة، خاف البحارة سوء مغبتها، واستمرت الليل بأكمله، ومكثت أنا ساكناً، ملتفاً في عباءتي، غير مكترث لشيء، لأنه لم تظهر على علامات الخوف، أعتقد البحارة إنني ساحر، وفكروا في إلقائي إلى البحر، ولكن الربان منعهم من ذلك هدأت الريح عند الفجر، ولكنها عادت إلى شدتها عند الظهيرة ودفعت السفينة صوب صخور جزيرة قبرص، فاستولى على البحارة الذعر، واستبد بهم الفزع، وأقسم أحدهم ليرميني

قربانا لآلهة البحار، وفي غمرة الخوف المستولية على الربان، لم يقل شيئاً.

هم البحارة بإلقائي، فتحديتهم قائلاً:"ألقوني إذا أردتم.. ولكنكم ستهلكون جميعاً"

لم آبه بذلك البتة، إذ لم تعد لي في الحياة رغبة، وبرغم خوفي من الموت ومقابلة أمي المقدسة "إيزيس"، إلا أنني كنت قد عانيت مشقة ومرارة فوق كل احتمال.

أمسك بي البحارة كالوحوش وألقوني وسط الأمواج الغاضبة، فصليت لإيزيس، وتهيأت للموت.ولكن الموت لم يكن مقدراً لي بعد، لأني صعدت إلى سطح الماء ووجدت لوحاً من الخشب عائماً فتعلقت به، وتطلعت إلى الوراء فرأيت البحارة قد تجمعوا فوق السطح لرؤيتي وأنا أغرق، وحينما رأوا وجهي الطبيعي لأن الماء كان قد أزال المساحيق، صرخوا من الذعر، وارتدوا على أعقابهم وجلين.

وهبت العاصفة فجأة، واستبدت بالسفينة، ولم تزل بها حتى أغرقتها بمن فيها، كما أغرقت السفينة التي أرسلتها كليوباترا للبحث عن التاجر السوري، وبذلك فقد القوم آثاري، واعتقدوا أني من الهالكين! قدت نفسي صوب الشاطيء، وكانت العاصفة ما تزال على أشدها، ولكن الخوف لم يعرف إلى قلبي سبيلاً، ثم طغى عليّ حب العيش مرة أخرى، وظلت الأمواج تتقاذفني حتى حطمت لوح الخشب، وغصت إلى الأعماق.

وعندما فتحت عيني بعد ذلك رأيتني في غرفة في منزل ما، فسألت بصوت خافت:

–كيف أتيت إلى هنا؟

فأجابني صوت خشن بالإغريقية:

–أتي بك "بوسيدون" أيها الغريب، لقد لفظتك الأمواج والتقطك أحد الصيادين، يجب أن تستريح قليلاً، لأن ساقك اليسرى قد كسرت.

فجاهدت لتحريك قدمي، ولكني لم أستطع ثم هتف الرجل:

– من أنت وما أسمك؟

– إنني تاجر مصري، وقد تحطمت سفينتي بفعل العاصفة، واسمي أليموس.

وقد اخترت هذا الإسم صدفة، وعُرفت به فيما بعد، مكثت بين هؤلاء القوم سنة كاملة، حتى شفي كسري، ولكني وجدت نفسي في نهايتها قد صرت أعرج.

واشتغلت معهم في صيد السمك والفلاحة، وكان القوم يحترمونني ويرهبونني، لإعتقادهم أنني ساحر قذف به البحر. وذات ليلة أردت النوم بلا جدوى، واستولى على أرق لا أدري له سبباً، وإذا بي أشعر برغبة ملحة تملأ قلبي للرحيل.

وفي اليوم الثالث من رحيلي وصلت إلى "سلاميس"، ومكثت بها أياماً ثلاثة حتى وجدت سفينة ذاهبة إلى الإسكندرية، وفي اليوم الخامس وصلنا إلى تلك المدينة البغيضة!

سرت بعد ذلك في النيل، وقد سمعت من حديث القوم أن كليوباترا

عادت إلى مصر مع أنطوني وأنهما يعيشان عيشة الترف، وكان البحارة كلما أعملوا المجاذيف يرددون أغنية شائعة عن كليوباترا وأنطوني وغرامهما، مكثت واجماً، لا أشارك القوم حديثهم ولا نشيدهم، حتى باتوا أيضاً يخشونني ويرهبون جانبي، فأدركت أن اللعنة قد حلت علي لأنني صرت مبغوضاً من الجميع.

وفي اليوم السادس بلغنا "أبوثيس"، وقد سر البحارة لمغادرتي إياهم في تلك البلدة.

أخذت طريقي بين الحقول بقلب كسير، قد قابلت وجوهاً ليست غريبة عني، ولكن أحداً لم يعرفني لتنكري.. وللعرج الذي أصبت به وعند غروب الشمس وصلت إلى باب المعبد، ثم بدأت الأفكار تساورني، لو كان أبي أمينمحعت هنا لأشاح بوجهه عني، لعمري لن أجرؤ على الذهاب إلى حضرته.

جلست هنيهة مستطلعاً، فلم أجد أحداً يخرج من المكان أو يدخل إليه! ثم رأيت العشب نامياً على الحجر! ماذا؟ هل المكان مهجور؟ أو هل مات أبي؟

لم أستطع احتمال الشك أكثر من ذلك، فدخلت إلى بهو الأعمدة وتطلعت حولي، ولكن لا صوت ولا حركة، ولا شيء يدل على الحياة نفذت إلى الحجرة ذات الستة والثلاثين عمودا والتي توجت فيها أميراً على البلاد، ولم تكن بأفضل من بهو الأعمد،: سكون في سكون، وصمت أشبه بصمت القبور.

انطلقت أخيراً إلى غرفة أبي، فرأيته جالساً في ثيابه الكهوتية، وقد خلت بادئ الأمر أنه ميت، لأني لم أر في عينيه ما يدل على أنه مبصر كان وجهه قد نحل، وسرت التجاعيد والغضون إليه، وزادها الشجن والحزن عمقاً وغوراً.

وقفت بلا حراك وأنا أشعر بالعينين الكفيفتين تحومان حولى فلم أنبس ببنت شفة، بل فكرت في الإنزواء..ولم أكد أتحول قاصداً الخروج حتى هتف أبي في صوت عميق.

–تعال هنا، يا من كنت ولدي، أنت الآن خائن، تعال هنا يا هارما كيس، بل من كانت مصر تبني عليك آمالها، هل لأجل هذا أخرجتك من جوف "نوت"؟ لكي تكون على مصر لعنة وعاراً؟!

فتنهدت متوجعاً وأجبت:

– لا تكلمني هكذا يا أبي، ألا ترى أني أعاني أشد الآلام، ألم أقع أنا أيضاً في شرك الخيانة، ونبذت نبذ النواة؟ كن رحيما بي.. يا أبي!

– أيها الخائن، لتمت في أحزانك.. ليكن العار نصيبك.. وجهنم مصيرك.

ثم نهض عن مقعده وهو يترنح، وأخذ يضرب الهواء بعصاه، ثم أرسل صرخة حادة وسقط على الأرض، والدم يتدفق من فمه، فهرعت إليه وحملته، وكان يحتضر..

راح يغمغم:

– لقد كان ابني، وكان قلبي مفعماً بالآمال، والآن.. لكم وددت لو أنه مات!!

ثم غص صوته.. وأخيراً همس:

– يا هارماكيس.. هل أنت هنا؟

– نعم يا أبتي.

– استغفر يا هارماكيس.. استغفر، ما زال وقت التكفير متسعاً، هناك بعض الذهب قد خبأت، ستحدثك "أتوا"عنه، آه.. ما هذه الآلام؟ استودعتك الآلهة..

ثم اختلج جسمه بين ذراعي.. وفارق الحياة.

الفصل الثاني

مجيء "أتوا"

جثوت على أرض الغرفة، أحملق في جثمان أبي المسجي، الذي عاش ليلعنني، بينما زحفت الظلمة وتجمعت حولي، وساد على المكان سكون موحش.ما أشد ما أشعر به من بؤس وكرب! ومرة أخرى فكرت في الموت، وكنت أحمل مدية بين ثنايا ثيابي، فأردت إغمادها في صدري، لأرسل روحي حرة طليقة!! حرة! نعم حرة لتواجه غضب الآلهة وانتقامها الشديد! ولكن..

وأسفاه، لست أجرؤ على الموت! أنه لأهون على نفسي أن أحتمل المتاعب على الأرض، من أن أواجه الفزع الأبدي، الذي هو مصير كل خاطيء في أمنتي المظلمة.

تمددت على الأرض، وبكيت بدموع حارة، حتى نضب معين الدموع، ومرة أخرى أمسيت في الظلام الموحش، لا أسمع إلا صدى أحزاني، وشجني!! فكرت في الهرب من هذا المكان الشديد الوحشة، ولكن إلى أين الفرار؟ أنا الذي ليس له أن يسند رأسه!

جثوت مرة أخرى، وتصبب العرق بارداً على جبيني.. وعندما استبد بي اليأس ركعت وصليت بحرارة إلى الإلهة "إيزيس"، تلك التي لم أجرؤ على الصلاة إليها مدة طويلة!

وبعد أن فرغت من صلاتي نهضت واقفاً، ومددت ذراعي، وتجرأت على إلقاء كلمة "الخوف"، وسرعان ما حصلت على الجواب، إذ سمعت رنين

الصولجان يبدد السكون، ويعلن مجيء "ذات العظمة" ثم رأيت في زاوية الغرفة منظر القمر، بقرنين ذهبيين، وبينهما سحابة قاتمة يلتف حولها ثعبان ناري..مادت الأرض تحت قدمي، وخررت على الأرض ساجداً، وأخيراً سمعت صوتاً حلو النغم صادراً من السحاب:

– يا هارما كيس، يا من كنت خادمي، وولدي، لقد سمعت صلاتك، وسمعت دعوتك لي التي اجتذبتني من "اللانهاية"، لن يربط بيننا الحب المقدس بعد الآن يا هارما كيس، لأنك أخرجتني من حسابك، ولكني أتيت أحمل إليك الخوف، والفزع، والإنتقام!!

– اضربي ضربتك أيتها الإلهة المبجلة إذن، انتقمي مني، فلست بمستطيع بعد على تحمل ثقل الذنوب!

– وإذا كنت لا تستطيع حمل متاعبك على الأرض، فكيف تقدر على حمل العذاب الأبدي على كتفيك، عندما تأتي إلى مملكة الموت ملوثاً بالمعصية والخطيئة! كلا لن أضربك يا هارما كيس، وأيضاً لن أزيد متاعبك، ولو أنك دنست إسمي وذكراي في مصر، لقد أخطأت.. وستلقى العقاب الشديد.ولكن طريق الندم والإستغفار ما زال مفتوحاً أمامك، وقد خطوت فيه أولى خطواتك، فسر فيه، وكل من الخبز المرير.. إلى أن ينتهي أجلك.

– أليس هناك قبس من أمل، أيتها الإلهة المقدسة!

–كلا.. لا شيء ينسخ ما حدث، ولن تستعيد مصر حريتها بعد الآن، إلا إن هدمت معابدها واختلطت برمال الصحراء، وحلت بها ديانات جديدة.

– وأسفاه.. لقد قضي علي.

– نعم قضي عليك.. ولكن شاءت عدالتي أن أعطيك فرصة لهدم التي هدمتك، فعندما تعطي لك العلامة، إذهب إلى كليوباترا، ونفذ فيها عدل السماء.

والآن، كلمة أخيرة لك يا هارما كيس، لقد كان يربط بيننا رباط الحب المقدس، فتب واستغفر فربما أمكن في النهاية أن تأتي إليّ، وعندما لن يحول بيني وبين رفقتك حائل، سواء كنت في "النجوم" أو في "أمنتى" في الحياة أو في الموت! لا تدعني مرة أخرى إلا إذا كمل استغفارك، والآن، إلى اللقاء!

وما إن انطلقت آخر كلمة من كلماتها العذبة، حتى دخل الثعبان الذهبي قلب السحابة، التي بدأت تتلاشى شيئاً فشيئاً، ثم سمعت رنين الصولجان ضعيفاً خافتاً، ثم ساد السكون.

أخفيت وجهي بين طيات ثيابي، وكانت ذراعي لا تزال مبسوطة تلمس جثة أبي الذي لعنني، ولكني أحسست بالأمل يدب إلى صدري، فتنفست الصعداء، إذن فلم أفقد كل شيء بعد!

وأنهكت قواي تلك الحوادث، فاستغرقت في سبات عميق، وعندما استيقظت من نومي رأيت خيوطاً من النور تنفذ من كوة في السقف وترسل أشعتها على وجه أبي الميت. قفزت واقفاً وتذكرت كل ما حدث، ثم تناهي إلى سمعي صوت "أتوا" المربية العجوز.. وهي تغمغم:

–ما هذا الظلام الذي يخيم على المكان؟! لقد ذهب بناة هذا المعبد المقدسون، وأسفاه!

ثم دلفت إلى الغرفة، وبإحدى يديها عصا، وبالأخرى سلة، ورمقت المكان بعينيها السوداوين الحادتين، ولكنها لم تميز شيئًا بسبب الظلال التي امتدت إلى الغرفة.لم يتغير وجهها كثيراً عن ذي قبل، سوى بعض التجعدات التي سرت إلى جبينها، وبعض الشعيرات البيضاء التي وجدت على ضفائرها القصيرة، غمغمت قائلة:

– يا أوزوريس، المجد والعظمة لإسمك، ما هذا؟! لم هو ممدد على الأرض؟ هل مات؟! أيها الأمير، أيها الأب المقدس يا أمينمحعت استيقظ وانهض، يالنحس الطالع، لقد قضي.

ثم أرسلت صرخة مدوية تجاوبت أصداؤها في المكان، فانسللت من الغرفة المجاورة وهتفت:

– صه أيتها المرأة!

فصاحت قائلة:

– من أنت؟ أيها الرجل الشرير، هل قتلت هذا الرجل المقدس؟ فلتحل عليك لعنة الآلهة!

– انظري إليّ يا "أتوا".

– أنظر إليك أيها الأفاق الخائن، إنك ارتكبت أشنع جرم لقد مات أمنيمحعت، وهارماكيس الخائن لا يعلم له مقر، ولقد أمسيت ولا أهل لي ولا ولد! اقتلني أنا أيضاً.. أيها الشرير.

– اصمتي أيتها الحمقاء..ألا تعرفينني؟

– وهل لي أن أعرف كل بحار أفاق؟! ولكن ما هذه الملامح؟ أنك أنت، يا ولدي العزيز، هل أتيت لتشيع البهجة والسرور في نفسي وأنا التي ظننتك ميتاً؟! ولكن لا.. لقد نسيت، إنك خائن وقاتل، ها هو ذا أمنيمحعت المقدس يرقد على الأرض، وقد قتله هارما كيس الخائن، إذهب إليك عني!

– هدئي من روعك أيتها المرأة، إنني لم أقتله ولكنه مات، وأسفاه بين ذراعي.

– نعم، مات وهو يلعنك يا هارما كيس!! أيتها الآلهة المقدسة، لقد عشت طويلاً، وتعب عنقي من ثقل المتاعب، ولكن ما أراه الآن أثقلها وأشدها وقراً.

– أيتها العجوز، لا تزجريني، ألا ترين شقائي؟!

– نعم نعم لقد نسيت، وما هو جرمك؟ إمرأة.. دائماً المرأة.قديماً وإلى النهاية، لقد رباك الكهنة تربية دينية فقط، فتغلبت عليك المرأة، تلك سنة الطبيعة، تعال يا هارما كيس، دعني أقبلك، لا تقسو إمرأة على رجل لأنه أحب واحدة من بنات جنسها! ولكن هناك نقطة سيئة، ألا تعلم أن هذه المرأة استولت على المعابد، وطردت منها الكهنة، وأبطلت عبادة الآلهة، إنها لم تبق على غير أمنيمحعت ولكنه مات، أجدر به أن يمضي إلى أحضان أوزوريس، من أن يحمل فوق منكبيه متاعب وآلام ينوء بها أولو القوة.

والآن، أصغ إلي، إنه لم يخلفك خاوي الوفاض يا هارما كيس، بل ادخر لك مبلغاً كبيراً من الذهب، عندما علم بفشل المؤامرة، سأخبرك عن مكانه إنه حقك بالوراثة.

– لا تتكلمي عن الثروة يا "أتوا"، خبريني أين يمكنني أن أذهب وأخفي عاري وخجلي؟!

– هذا حق وصدق، لم يعد بوسعك أن تقيم هنا، لأنهم إذا عثروا عليك لن يبقوا عليك، سأخفيك في مكان ما، وعندما تنتهي مراسيم الجنازة، سنفر معًا وسنختفي، إلى أن تنسى خطيئاتك.. تعال يا هارماكيس تعال.

الفصل الثالث

مقابر طيبة

أقمت بمخبأ "أتوا" العجوز ثمانين يوماً إلى أن أنهى المحنطون عملهم، وصارت الجثة معدة للدفن، زحفت من مخبئي لأقدم قربانا على روح أبي الميت، وأضع زهر اللوتس على صدره، ثم رجعت والأسى يملأ جوانحي.

وفي اليوم التالي، رأيت من مخبئي كهنة معبد أوزوريس يتقدمون ليضعوا التابوت في قارب في البحيرة المقدسة.. وشهدت المحاكمة وإعلانهم كيف كان أبي أعدل الناس، ثم وضعوه بجوار أمي في مكان الراحة بجوار أوزوريس المقدس.وبعد أن تمت كل هذه الإجراءات، أخرجت كنوز أبي من مخبئها ووضعتها في مكان أمين، ثم فررت متنكراً مع "أتوا" إلى طيبة، حيث التجأت إلى مقابر آبائي، بين التلال المتناثرة.

وفي إحدى الليالي خرجت أجوس خلال المقابر، إلى أن عثرت في النهاية على قبر محتجب بين الصخور، دفن فيه رمسيس المقدس.

وفي الليلة التالية، رجعت مع "أتوا"، ورحنا نتفقد القبر، فأتينا إلى الغرفة العظيمة حيث يوجد تابوت الجرانيت، ورأيت النقوش على الجدران ثم طفت بالحجرات الأخرى، وقرأت ما فيها من نقوش بديعة، تتحدث عن عظمة أصحابها ومجدهم العريق.وهنا بين هذه الجدران، اتخذت لي مخبأ لمدة ثماني سنوات، قضيت تلك الفترة متعبداً، نادماً مستغفراً، وكنت أخرج عند الغسق أتجول، حتى تأخذ عيني الظلمة الدائمة.

وأخيراً شعرت أنني أقترب من الآلهة، لأن الصلاة والندم وتلك العزلة اليائسة، قد طهرتني من أدران الخطيئة.

وسرعان ما سرت شائعة في المدينة عن أن شخصاً حكيماً يدعى أوليمبوس قد اتخذ له مقاماً بين القبور في طيبة، وله قدرة على شفاء المرضى، ومخاطبة أرواح الآلهة، وسرعان ما هرع إليّ الناس جماعات ومنفردين يبغون أن يشفوا من أمراضهم، وكنت قد تعلمت شيئاً من خواص العقاقير فشفيتهم وانهالت على النقود والهدايا، حتى لم تعد "أتوا" حاجة للخروج للبحث عن طعام لنا.

طبقت شهرتي الآفاق حتى أتى الناس لزيارتي من منف إلى الإسكندرية وقد علمت منهم أن أنطوني قد هجر كليوباترا، وتزوج من أوكتافيا، وفي السنة التالية أرسلت أتوا متنكرة إلى الإسكندرية للبحث عن شارميون، وإذ وجدتها ما زالت محافظة على العهد،أخبرتها بمكان وجودي.

ولما عادت أتوا أنبأتني أنها قد تمكنت من مقابلة شارميون.، وفي معرض الحديث معها، ذكرت اسمي بلباقة فلم تتمالك شارميون من البكاء بصوت مرتفع، فأدركت ولاءها لي وأخبرتها أني مازلت على قيد الحياة، فأرسلت إليّ تحيتها وبعض الهدايا، وبعد أن كانت تبكي أسى وكمداً، بكت فرحاً وجذلاً.

وفي السنة التي تلت، أتاني الرسل من لدن كليوباترا حاملين الهدايا ومعها ملف مختوم، فضفضته وتلوت فيه ما يلي:

"من كليوباترا إلى العالم المصري أوليمبوس الساكن بوادي الموت في طيبة، لقد وصلت إليّ شهرتك، أيها العالم أوليمبوس، خبرني إذن ،وإذا كنت

ما تتصف به حقا، أغدقت عليك من الشرف والثروة ما لم يتمتع به أحد قبلك في مصر– كيف أتمكن من استعادة حب النبيل أنطوني الذي سحرته أوكتافيا الماكرة وحولته عنا؟"

رأيت في هذه الرسالة أصبع شارميون!

استوحيت الحكمة في تلك الليلة، وكتبت ردي لهلاك كليوباترا وأنطوني معاً، كما يلي:

"من أوليمبوس المصري إلى الملكة كليوباترا

"إذهبي إلى سوريا وسيرسل إليك من يقودك، هناك ستكسبين أنطوني وسيغمرك من الهدايا بما لم تحلمي به"

ثم صرفت الرسل ورددت معهم هدايا كليوباترا فعادوا والدهشة ملء أفئدتهم.

وقد جدت كليوباترا من غرامها دافعاً للعمل بما جاء في الرسالة، وهناك تحققت نبوءتي إذ خلع عليها أنطوني كثيراً من الأراضي والأملاك، وبعد أن عادت من رحلتها أرسلت إليّ الهدايا والعطايا، فلم أقبل منها شيئاً، وحينئذ أرسلت تدعوني إليها، ولكني لم ألب الدعوة، وكثيراً ما بعثت تستشيرني هي وأنطوني، فكنت أشير عليهما بما فيه هلاكهما.

مرت السنوات وتتابعت الأعوام وأنا أزداد حكمة ومعرفة وكانت شهرتي في مصر عظيمة؛ انصرمت ثماني سنوات، وقد تمكنت كليوباترا من حمل أنطوني على طرد زوجته أوكتافيا من قصره، كما لو كانت إحدى الجواري.

لقد بلغ الحمق بأنطوني مبلغه، وأخطأته الحكمة، فانتهز أكتافيوس الفرصة وأعلن الحرب عليه.

وذات يوم بينما كنت جالساً في غرفة "عازفي القيثارة" في قبر فرعون بطيبة تراءى لي شبح والدي، متكئاً على عكازه، وهتف:

– أنظر إلى الأمام.

فرأيت بعين البصيرة البحر وأسطولين متشابكين في معركة أحدهما لأكتافيوس، والثاني لكليوباترا وأنطوني، ورأيت أسطول قيصر يحمل على أسطول أنطوني حملة صادقة، وينتصر عليه!

تطلعت ثانية فرأيت كليوباترا جالسة في سفينة ذهبية تراقب المعركة بعينين قلقتين، فأرسلت عليها روحي، وجعلتها تتخيل كأنما تسمع صوتي يدوي في أذنها:

–الفرار يا كليوباترا، الفرار وإلا هلكت.

فتطلعت بأنظارها في ذهول، واستولى عليها خوف شديد، وأمرت البحارة أن ينشروا الأشرعة، ثم ولت مدبرة.وارتفعت الأصوات من الأصدقاء والأعداء صائحة: "لقد هربت كليوباترا"، ثم رأيت الدمار والهزيمة يحلان بأسطول أنطوني، وأفقت من سباتي، وتراءى لي خيال أبي مرة أخرى بعد بضعة أيام، وهتف:

– لقد حانت ساعة الإنتقام يا ولدي، لقد تحطم أسطول أنطوني في البحر،إذهب، وقم بما يوحي به إليك.

وفي الصباح، ذهبت إلى مدخل البحر، فرأيت رسل كليوباترا آتين عبر الوادي ومعهم الحرس الروماني.فسألتهم بحدة:

– ماذا تريدون مني الآن؟

فاحني الضابط رأسه وأجاب:

– هذه رسالة من الملكة كليوباترا، وأنطوني العظيم، إن الملكة تأمرك بالحضور إلى الإسكندرية، لقد أرسلت في طلبك مراراً، ولكنك لم تلب، والآن ها هي تستدعيك وتطلب إليك الحضور على جناح السرعة، لأنها بحاجة شديدة إلى مشورتك.

– وإذا رفضت؟

– سنأخذك عنوة، يا أوليبوس المقدس.

فانفجرت ضاحكاً وأجبته:

– عنوة ! أيها الأحمق لا تتحدث إلي بتلك اللهجة الحادة، وإلا قضيت عليك حيث أنت، ألا تعلم أن عندي القوة على البطش، كما عندي القوة على الشفاء.

فارتعدت فرائص الرجل وأجاب:

– أتوسل إليك أن تعفو عني، أنا لم أقل إلا ما أمرت به.

– حسنًا أيها الضابط.. لا تخف سأرافقك.

ورحلت في نفس اليوم مع أتوا العجوز، ولم تطأ قدماي قبر رمسيس

المقدس بعد ذلك اليوم، وقد حملت معي كنوز أبي أمينمحعت لأني أردت أن أظهر بالمظهر اللائق بمكانتي ومنزلتي أثناء طريقي إلى الإسكندرية، وعندما وصلت سمعت أن أنطوني قد تبع كليوباترا، وفر من موقعة أكتيوم، وأن نهايته قد باتت قريبة.

ووصلت أخيراً إلى الإسكندرية، ونزلت بالقصر المعد لي، وفي ذات الليلة جاءتني شارميون، شارميون التي لم أرها طوال التسع سنوات الماضية.

الفصل الرابع

أوليمبوس في حضرة كليوباترا

جلست في غرفة الإنتظار بثوبي الأسود، وأخذت أتطلع إلى الطنافس الغالية، ومظاهر الترف، بينما جلست أتوا بجوار الباب وقد تقدمت بها السن.

ها قد أتيت إلى الإسكندرية مرة أخرى، ولكني لن أفشل هذه المرة! لكم تغيرت الظروف، لم يعد لي دور في القصة الجديدة، سوى دور الحسام في يد العدالة، لقد فقدت الأمل في إحياء مصر أو تحريرها، وفي جلوسي على عرشي الشرعي، كلا لقد ضعت وضاعت مصر.

طلبت من أتوا المرآة لأنظر فيها إلى وجهي، لكم تغيرت، وجه مجعد فارقه الإبتسام، وعينان غارتا في محجريهما، وجسم هدته الأشجان والصلاة والإستغفار، لم أكد أعرف نفسي أنا هارماكيس الذي كنت مليئاً بالقوة والصحة والجمال.

سمعت طرقا على الباب، فنهضت "أتوا" وفتحته ودخلت إلى الغرفة فتاة في ثياب إغريقية، كانت شارميون، وكانت جميلة كعهدي بها، ولكن محياها ينطق بالألم الدفين، وجهت إليّ الكلام قائلة:

– أيها العجوز، أرجو أن ترشدني إلى العالم أولمبيوس.

فوقفت، ورفعت رأسي، وتطلعت إليها فحملقت في وجهي، ثم أرسلت صرخة خافتة، وهتفت:

– أظنك لست أنت.

– إنني هو، هارماكيس. الذي وقع قلبك الأحمق في حبه يا شارميون، ولكني لست هارماكيس الذي أحببته، أنا أولميبوس، العالم المصري الذي يضع نفسه تحت تصرفك.

– كلمة واحدة يا هارماكيس، لن أعود بعدها إلى ذكر الماضي، أنني لأتعجب كيف لا تعرف قلب المرأة، مع ما أوتيت من الحكمة؟ إذا كان الحب يتغير مع تغير الشكل الخارجي للحبيب، فكيف يتبع المحب حبيبه إلى آخر مرحلة من مراحل التغير وهي القبر؟! ألا فلتعلم أيها الطبيب العالم أنني من ذلك الفريق الذي إذا ما أحب دام غرامه ولم يتغير، وإذا لم أستطع نيل قلب الحبيب، ذهبت إلى مرقدي الأخير وأنا عذراء.

لم أحر جواباً، ولكني أحنيت رأسي، ولأقرر الحقيقة أقول أنه ولو أن هذه المرأة كانت سبباً في تحطيمي، إلا أنني كنت أشعر نحوها من أعماق قلبي بعاطفة عرفان الجميل، إذ أي رجل لا يقدر تلك الهبة النادرة، ذلك الشيء الكامل الذي لا يمكن أن يُشترى بالذهب وهو حب المرأة الثابت الوطيد؟

واستطردت شارميون:

– أشكرك لأنك لم تجب على قولي، لأن الكلمات القاسية التي كنت قد صببتها في أذني ما زالت تلذعني في قلبي، حتى لم يبق فيه متسع لسهام جديدة من سهام احتقارك.

ثم وقفت ونظرت إلى أعلى ومدت يديها كأنما لتدفع عنها شيئاً غير منظور.

وقالت:

– لن أكون مصدراً لإقلاق راحتك بحبي بعد الآن، إذ سأطرحه جانبًا ولو أني أستطيع أن أنساه، يكفيني أن جاد على الدهر مرة أخرى برؤيتك قبل أن يضرب الموت غشاوته الأبدية على عيني، هل تتذكر، عندما طلبت منك أن تقتلني، أنت أبيت ثم صببت على لعناتك، وطلبت لي الحياة لكي أقتطف ثمرة الجريمة عاماً بعد عام؟

– نعم.. أذكر ذلك جيداً يا شارميون.

– لقد طفح كأس العقاب، ألا تستطيع أن تقرأ ما سطر في قلبي من آلام احتملتها باسمة صابرة.

–ولكني يا شارميون، إذا كان ما بلغني صحيحاً فأنت الأولى بين نساء البلاط القوية المحبوبة، ألم يقل أكتافيوس أنه لم يعلن الحرب على أنطوني أو كليوباترا، ولكن على شارميون وأيراس؟

– نعم يا هارماكيس، ولكن فكر في القسم الذي أقسمته لك، وفي إرغامي على أن أخدم تلك المرأة التي أبغضها من أعماق قلبي، تلك المرأة التي سلبتك مني، والتي بتأثيرها استبدت بي الغيرة، فارتكبت ما ارتكبت وجررت العار عليك وعلى مصر، هل تستطيع الجواهر والكنوز، وتحبب الأمراء والنبلاء أن تجلب السعادة لامرأة مثلي؟ أنا البائسة والتي لا يقاس بؤس أكثر الساقطات وضاعة ببؤسي؟ آه.. هارماكيس لكم بكيت، ولكن عندما كانت تدعوني الملكة إلى خدمتها، كنت أنهض على قدمي وأمزق ثوب الحزن، وأتظاهر بالابتسام، لقد كان نصيبك شاقاً يا هارماكيس، ولكنك

كنت على الأقل حراً وكثيراً ما نفست عليك مكانك الهادئ في ذلك الكهف السحيق.

– أري يا شارميون أنك مازلت محافظة على قسمك، وهذا حسن لأن ساعة الإنتقام قد دنت.

– نعم إني عند قولي وفي كل تصرفاتي كنت أعمل لأجلك في الخفاء، لقد ذكيت الرغبة والغيرة في صدرها، وزرعت في قلبها الشر وفي قلبه الحماقة، وقد بلغ من سوء تدبيره أن هجر الجيش في موقعه أكتيوم، وكانت النتيجة أن سلم الضباط أنفسهم إلى قيصر.

– وأين أنطوني الآن إذن؟

– لقد بنى لنفسه مسكناً في جزيرة صغيرة عند "الثغر العظيم"، وهو يشكو قلة وفاء الناس الذين هجروه في وقت شدته، لقد أصابته حمى، وتريدك الملكة أن تذهب إليه لتشفيه وتعيده إليها، ولكنها تريدك أولاً أن تذهب إلى حضرتها، لإستشارتك.

فنهضت واقفا وقلت:

– إذن خذيني إليها

اخترقنا أبواب القصر، وعبرنا حجرة المرمر، ووجدت نفسي مرة أخرى أمام باب غرفة كليوباترا، ودخلت شارميون تعلن قدومي، ثم قادتني إليها وهي تهمس في أذني أن أتشجع، وإلا خدعت نفسي، فإن بصر كليوباترا ما زال حديداً.. فأجبتها:

–مهما كانت حدة بصرها، فلن تعرف أن العالم أوليمبوس هو الأمير هارما كيس، وأنت نفسك يا شارميون، ما كنت لتعرفيني لو لم أعلن لك نفسي.

دخلت إلى تلك الغرفة التي لم أنسها، وأصغيت إلى صوت مياه الناقورة، وتغريد البلبل، وهمهمة البحر .انحنيت أمام كليوباترا، ثم وقفت أمامها منتصب القامة، فوجدتها لا تزال تستمتع بجمالها وفتوتها، لم تقترب يد الزمن منهما، ولكن الزمن الذي لم يستطع أن يؤثر في ملاحتها، قد وسم محياها بميسم الحزن والضجر، انحنيت أمام تلك المرأة الملكية، التي كانت يوماً غرامي ثم دماري ولكنها لم تعرفني.

تطلعت إلى أعلى بملل ثم قالت بصوت متزن النبرات:

– ها قد أتيت أخيراً أيها الطبيب، ماذا تُدعى؟ آه.. أوليمبوس أنه اسم يبعث على الرجاء، لأن آلهة مصر قد هجرتنا، فلنلتمس العون من أوليمبوس، إن هذا لعجيب؟ إن شيئاً فيك يذكرني بما لست أدري ما هو، خبرني يا أوليمبوس ألم نتقابل قبل الآن؟

فأجبت بصوت مصطنع:

–لم تتلاقى عيوننا قبلاً أيتها الملكة حتى هذه اللحظة التي لبيت فيها طلبك، وأتيت لشفائك من أسقامك.

– هذا أعجب حتى صوتك إنها ذكريات لا أستطيع معرفة حقيقتها قلت لي أننا لم نتقابل وجهاً لوجه كما قررت، ألا يمكن أن نكون قد تعارفنا في حلم؟

– نعم أيتها الملكة، لقد تقابلنا في الأحلام.

– إنك رجل غريب، وإذا كان ما سمعته حقاً، فإن علمك غزير لقد اتبعت مشورتك عندما أشرت علي باللحاق بأنطوني في سوريا، وقد حدث كل شيء كما تنبأت، في الواقع أنك في فنون التنبؤ ضليع، لا يضارعك أحد من جهلاء الإسكندرية.

ثم تنهدت.. واستطردت:

– لقد كنت أعرف يومًا رجلاً مثلك، يدعي هارما كيس، ولكنه مات منذ زمن طويل، وقد تمنيت أن ألحق به، وإني لأشعر بالأسى من أجله أحيانًا.

ثم توقفت عن الكلام، وملت برأسي على صدري، ووقفت ساكنًا، واستطردت:

– فسر لي هذا يا أوليمبوس، لقد حدث في موقعة أكتيوم اللعينة، عندما كانت المعركة على أشدها، والنصر قد ابتدأ يبسم لنا، أن استولى على قلبي فزع مفاجىء، وأظلمت الدنيا أمام ناظري، وسمعت صوتا –هو صوت هارما كيس الذي مات منذ أمد طويل– يرن في أذني "الفرار، وإلا هلكت"، ففررت وسرعان ما ملك الخوف قلب أنطوني أيضًا، فتبعني وهكذا خسرنا المعركة، خبرني إذن، أي إله جلب تلك اللعنة علينا؟

–كلا أيتها الملكة، لم يكن هذا غضبا إلهيا، إذ متى كنت سببا في إغضاب آلهة مصر؟ هل سلبت ما في معابدهم؟ هل خنت الأمانة المعلقة في عنقك؟

–لم يحدث من هذا شيء.

– إذن فليس هناك ما يحنق الآلهة عليك، ولكنه خاطر من العقل طغى على نفسك الرقيقة، وأتعبك منظر الدماء والتقتيل، فوليت الأدبار، أما النبيل أنطوني فهو لابد تابعك حيثما ذهبت.

وبينما كنت أتكلم، كانت كليوباترا ترتجف، وقد اصفر وجهها، وهي تتطلع إلى محاولة أن تفهم معنى تفسيري، ثم قالت:

– أيها العالم أوليمبوس، إن أنطوني عليل، وقد ذهب الحزن بعقله، وتنكر لجميع الناس، حتى لي أنا التي احتملت في سبيله ما احتملت! فأرجوك أن تصحب وصيفتي شارميون غدًا، عند بزوغ النهار، وتستقلا زورقا إلى الحصن، وتنبئه أنك آت بأخبار عن الجيش، وعندما يسمح لكما بالمثول، خبريه ياشارميون بالأنباء التي حملها كانديوس، لأن كانديوس لا يجرؤ على الذهاب، ومتى ذهب عنه الحزن فحاول يا أوليمبوس أن تشفيه من الحمى بعقاقيرك القيمة، وتشفي نفسه بكلماتك المعسولة.واجتذبه إلي مرة ثانية، افعل هذا أوليمبوس، وستعطى من الهدايا ما يفوق العد إنني ملكة وقادرة على مجازاة من ينفذ إرادتي أوفي الجزاء.

– لا تخشي شيئًا أيتها الملكة، فسأفعل ما طلبت ولست أبغي منك الجزاء .

ثم انحنيت وذهبت، وطلبت من أتوا أن تجهز لي جرعة خاصة.

الفصل الخامس

مأدبة كليوباترا

جاءتني شارميون قبيل الفجر، وسرنا حتى مرفأ القصر الخاص، واستقللنا قارباً انطلقنا به إلى الجزيرة المقام عليها قصر تيمونيم، الذي يقطنه أنطوني ثم ذهب كلانا إلى باب القصر، وقرعناه فأطل من كوة بالباب خصي عجوز سألنا بخشونة عما نريد. فأجابته شارميون:

– إن عملنا مع الأمير أنطوني.

– إذا كانت مهمتكما مع سيدي أنطوني فأولى بكما أن تعودا لأنه لن يقابل رجلاً أو سيدة!

– ولكنه يجب أن يرانا لأننا نحمل له أخباراً، إذهب وأخبره أن السيدة شارميون تريد أن تخبره بأخبار عن الجيش.

فمضى الرجل، ثم عاد وقال:

– إن سيدي أنطوني يريد أن يعلم ما إذا كانت، أنباؤكما حسنة أو سيئة، فإن كانت سيئة، فليست له بها حاجة وكفى بما عنده سوءاً.

–ماذا؟ إنها حسنة وسيئة معاً، افتح أيها العبد.

ثم أسقطت كيسا من النقود من بين حواجز الكوة فالتقط كيس النقود، وتمتم:

–حسناً حسناً إن الوقت سيئ وقد يسير إلى أسوأ، وإذا مات الأسد

فمن يطعم بنات آوي؟ اذهبا وقولا أخباركما، وياليتكما تستطيعان اجتذابه إلى خارج "منزل التأوهات".

فاجتزنا الباب إلى ممر ضيق، وتقدمنا حتى وصلنا إلى ستار معلق كان باباً لغرفة باهتة الضوء، وقد تمدد في أقصى الركن الايمن على وسادة من القش شبح رجل، وقد غطى وجهه بعباءته.

فتقدمت منه شارميون وقالت:

– أيها النبيل أنطوني، إكشف عن وجهك، أصغ إليّ، لأني أحمل إليك أنباءاً.

فرفع رأسه، وكان وجهه قد أذبلته الأحزان، وعيناه قد غارتا وثوبه مشعثاً، وكان أشبه بشحاذ بائس على باب أحد المعابد، وهكذا قضى حب كليوباترا على أنطوني العظيم، الذي بلغت شهرته الآفاق، والذي كان يطلق عليه "سيد نصف العالم".. تطلع إلينا، ثم تمتم سائلاً:

– ماذا تريدين مني أيتها السيدة؟ ومن هذا الرجل الذي أتى ليرقب أنطوني الفاشل المنبوذ؟

– هذا أوليمبوس أيها النبيل أنطوني، الطبيب الحكيم، الضليع في معرفة الطالع، والذي سمعت عنه كثيرًا من قبل، وقد أرسلته كليوباترا التي لا تفكر إلا في خيرك، لكي يتولى علاجك.

– وهل يستطيع طبيبك هذا أن يتولى علاج الأشجان، هل تستطيع عقاقيره أن تعيد إلي سفني وشرفي وطمأنينتي؟ كلا بعدًا لكِ ولطبيبك، ما هي

أخبارك أسرعي هل تمكن كانديوس من هزيمة قيصر؟ قولي لي هذا أهبك إقطاعية، وإذا أنبأتني أن أكتافيوس مات، ملأت خزانتك بالمال، تكلمي.. لشد ما أخشى ما تنطق به شفتاك، أسرعي فلا طاقة لي على الإنتظار.

– أيها النبيل أنطوني، تشجع واصمد لما سوف أنبأك به، إن كانديوس بالإسكندرية، وقد انتحى مكانًا قصيًا، لقد انتظر مع جيوشه سبعة أيام يترقب عودة أنطوني لكي يقودهم إلى النصر، وقد رفض العطايا التي أرسلها إليه قيصر، ولكن أنطوني لم يأت! ثم سرت شائعة بأن أنطوني قد هرب مع كليوباترا وحينئذ هرب ضباطك، واحداً بعد واحد، وارتموا في أحضان قيصر، ثم تبعهم الجنود وحتى حلفاؤك هجروا الميدان جميعاً وذهبوا يخطبون ود قيصر.

فرفع أنطوني يده عن جبينه، وقال:

– لم تنتهي بعد من نعيبك أيتها البومة في ثوب طاووس؟ تكلمي أيضًا، قولي إن كليوباترا الفاتنة قد قضت نحبها، اجمعي أخبارك المشؤومة كلها، وصبها على رأسي.

–كلا سيدي لقد انتهيت.

– نعم وأنا أيضًا انتهيت وهأنذا أختم حياتي.

ثم أمسك سيفاً كان معلقًا في غمده، وحاول قتل نفسه لولا أن قفزت إلى الأمام وأمسكت بيده، لأنه لو مات، لأبرمت كليوباترا صلحًا مع قيصر الذي كان يبغي موت أنطوني، أكثر مما يبغي تحطيم مصر، وصرخت شارميون قائلة:

– هل جننت يا أنطوني؟ هل أنت جبان حتى تنهي حياتك على هذه الصورة وتفر من الأحزان تاركاً شريكتك تعاني الهم وحيدة؟

– ولم لا أيتها المرأة، إنها لن تكون وحيدة، هناك قيصر إن اكتافيوس يحب الجميلات من النساء، وكليوباترا ما زالت محتفظة بجمالها، تعال الآن يا أوليمبوس لقد أمسكت بيدي، ومنعتني من قتل نفسي، فقم بنصحي إذن، هل أخضع لقيصر، وأمشي وراءه في موكب النصر وسط شوارع روما؟

–كلا يا سيدي.. لا تسلم، لقد قضيت الليلة الماضية في استقراء حظك فرأيت أنه كلما اقترب نجمك من نجم أكتافيوس، بهت واختفى، وكلما ابتعد عن مدار فلكه، التمع وأشرق، إنك لم تفقد كل شيء بعد، ما زال بيدك جزء، وما دام في يدك جزء، فمن السهل استعادة الكل، إن قيصر لم يقترب بعد من أبواب الإسكندرية، ومن الميسور إيقافه، إن عقلك المحموم قد ألهب جسمك، ومرضك لا يُمَكِنك من الحكم الصحيح ولكن انظر، إن عندي لك جرعة من الدواء، تعيدك صحيحًا معافى.

– تقول جرعة دواء أيها الرجل أغلب الظن أنها سم زعاف، وأنك قاتل استأجرتك ملكة مصر للقضاء علي، لأنني لم أعد ذا نفع لها، إن رأس أنطوني لهو عربون السلام بينها وبين قيصر، سأشربها وحق باخوس حتى لو كانت أكسير الفناء.

– كلا أيها النبيل أنطوني، إنها ليست سماً، ولست أنا قاتلاً، وسأتذوقها أمامك إذا أردت.

– أعطني إياها أيها الطبيب، إن الرجل اليائس هو دائمًا الشجاع ما

هذا؟! إن جرعتك سحرية، إن أحزاني قد تبددت، وزهرة الأمل قد أينعت في قلبي القاحل، لقد عدت أنطوني مرة أخرى، ومرة أخرى أرى سيوف جندي تلمع تحت أشعة الشمس، أني أسمع صياحهم وندائهم.. أيها الأمل! أيها الأمل!

فصاحت شارميون:

– نعم ما زال هناك أمل يا سيدي، عد معنا، تعال إلى ذراعي كليوباترا المحبوبتين، إنها ترقد طول ليلها على وسادتها الذهبية، وسط الظلمة المدلهمة وتئن وتتأوه وتردد اسمك "أنطوني، أنطوني"

– سآتي.. سآتي، يا لخجلي، أنا الذي جرؤت على الشك في أمرها، أيها الخادم، أحضر لي ماء، والثوب الأرجواني، لأني سأذهب في التو واللحظة.

وهكذا اجتذبنا أنطوني إلى كليوباترا، حتى يكون هلاك الإثنين معاً أمراً محققاً.سرنا معاً عبر غرفة المرمر، ودلفنا إلى حجرة كليوباترا، حيث كانت مضطجعة وضفائرها تغطي وجهها وصدرها، والدمع ينزل مدرارا من عينيها، وصاح أنطوني:

– يا ملكة مصر، هأنذا تحت قدميك.

فهبت كليوباترا من وسادتها، وقالت:

–أهذا أنت أيها الحبيب؟ إذن فسيسير كل شيء في مجراه الحسن، اقترب ستنسيك ذراعاي همومك، وتبدل أحزانك أفراحاً، يا أنطوني ما دام

الحب لدينا، فلدينا كل شيء، ثم ارتمت على صدره وأخذت تقبله بشغف وجنون.

جاءتني شارميون في نفس اليوم وطلبت مني أن أجهز سماً من أقوى أنواع السموم، فخشيت أن تتعجل به كليوباترا نهاية أنطوني، ولكن شارميون أفهمتني أنه مطلوب لغرض آخر.

تعاونت مع أتوا على تجهيز السم، وبعد الظهر رأيت شارميون مرة أخرى تحمل باقة من الورود، وطلبت مني أن أغرسها في السم! وفي ذات الليلة أقيم حفل كبير، وأخذت مكاني بجانب أنطوني الذي كان جالسًا بجوار كليوباترا، وعلى رأسه إكليل الورود.

جرى الخمر في المأدبة بغير حساب، حتى ابتهج المحبان، وقد شاع السرور في قلبيهما، فبدأت تحدثه عن خططها، وأنهما إذا لم يتمكنا من هزيمة قيصر فسيهربان بكنوزهما إلى الخليج العربي حتى لا يستطيع أكتافيوس أن يتعقبهما بأساطيله، ثم يبحثا عن مأوى لهما في الهند، بعيدين عن متناول يد الأعداء.ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، لأن العرب أغرقوا السفن، بتحريض من يهود الإسكندرية الذين كانوا يمقتون كليوباترا، وكان ذلك بتدبير مني.

وبعد أن فرغا من بث أحلامهما، دعته لتناول كأس من الخمر، نخب نجاح مشروعهما، وقبل أن يشرب طلبت منه أن يغمس فيه أكليل الورود، حتى يمتزج عذوبة الزهر برحيق الخمر، ففعل وبينما هو على وشك شرب محتويات الكأس إذا بها تصرخ فيه فجأة لتمنعه من احتسائها، فوضع الكأس مشدوهاً متعجباً.

ثم صاحت في الرجل الواقف بجوارها:

– أوديسيوس.. اقترب هنا أيها الخادم الأمين، هل ترى هذا الرجل أيها النبيل أنطوني، لقد كان لي عوناً في أيام محنتي، فيجب إذن أن يكافأ على إخلاصه، ومن يدك أنت، أعطه الكأس الذهبية ودعه يشرب نخب نجاحنا.

فأعطاه أنطوني الكأس وهو ما زال مشدوها، وتناولها الرجل بيد مرتجفة ووجه شاحب ولكنه جرع ما فيها.حينذاك نهضت كليوباترا عن مقعدها ونظرت إلى الرجل بعينين ناريتين وصاحت:

– اشرب أيها العبد! حسنا لقد شربت أخيراً ماذا بك يا أوديسيوس الطيب، هل أنت مريض؟ لا ريب أن تلك الخمر مثل ماء الغيرة عند اليهود، التي تقتل الخائن، وتقوي الأمين ليأت بعضكم ويفتش غرفة هذا الرجل إني موقنة أنه خائن.

كان الرجل واقفًا ويداه على رأسه، وقد بدأ يرتجف، ثم هوى على الأرض وهو يئن من الألم. أخذت يداه تتحسسان صدره، كأنما ليخفف عنه تأثير النيران المتأججة ثم انقلبت سحنته، وظهر الزبد على فمه، ثم تطلع إلى كليوباترا بإبتسامة قاسية.

فقالت له:

– أيها الخائن، هل الموت لذيذ؟

– أيتها الفاجرة، لقد سممتني، ولكنك ستهلكين بنفس الكأس.

ثم صاح وألقى بنفسه عليها، ولكنها انحرفت عن طريقه بخفة النمر، فلم

يتمكن إلا من إمساك معطفها فسقط على الأرض، وأخذ يتدحرج إلى أن سكنت حركته، وبعد أن سحب الحراس جثته إلى الخارج، قال أنطوني:

– ماذا تعنين بذلك يا كليوباترا، إن الرجل قد شرب كأسي، فما معنى تلك اللعبة؟

– إنها تخدم غرضين أيها النبيل أنطوني، لقد كان في زعم الرجل أن يهرب الليلة إلى أكتافيوس، حاملاً معه كنوزنا فأعرته جناحين ليطير بهما وشيكاً، وأما الغرض الثاني فهو أنك كنت تخشاني وتخاف أن أدس لك السم أجل لقد كان هذا ما تعتقده، وإني به عالمة فانظر الآن أيها النبيل أنطوني، أما كان من السهل أن تشرب كأسك فتمسي في عداد الأموات لو كان بي في ذلك رغبة؟ إذن يا أنطوني يجب أن تثق بي من الآن فصاعدًا، وإنه لأهون على نفسي أن أوردها موارد الهلكة، من أن أمس شعرة من رأسك، تعالوا أيها الرسل، ماذا وجدتم؟

– أيتها الملكة المبجلة، لقد وجدنا كل شيء مجهزاً للفرار، ووجدنا الكنز مخبأ في المتاع.

فابتسمت الملكة ابتسامة حزينة وقالت:

– هل سمعت؟ وأنتم أيها الخدم الأمناء، ليكن لكم مما حدث عظة وعبرة، ولتعلموا أن كليوباترا شديدة البطش والعقاب.

فساد على القوم وجوم، حتى أنطوني، فإنه لم ينبس ببنت شفة.

الفصل السادس

سموم كليوباترا

منذ عاد أنطوني من قصر تيمونيم، ساد ذلك السكون الذي يسبق هبوب العاصفة، إذ عاد أنطوني وكليوباترا لسيرتهما الأولى، فانغمسا في الترف والملذات، حتى فقدا قوتهما المعنوية، وقد أرسلا الرسل إلى قيصر ابتغاء الصلح، ولكنهم عادوا مخذولين وأخيراً قررا رأيهما أن يدافعا عن الإسكندرية، فجهزت الجيوش وبنيت السفن، واجتمعت قوة كبيرة لصد قيصر.

حينئذ تكاتفت مع شارميون لإتمام إنتقامي، وقد أوحيت إلى كليوباترا أن تبقي على أنطوني وسروره، فأخذا يغترفان من الخمر، حتى قضت على روحه ونشاطه، وكنت اتبعها بجرعاتي التي تجعل روحه تسبح في عالم الأحلام والسعادة والقوة، ثم يستيقظ على ما يحيط به من ضر وبؤس، أصبحت جرعاتي لازمه لأنطوني فأمسى لا يستطيع النوم بدونها، وهكذا قيدت إرادته الضعيفة بإرادتي، واستمررت ملازماً له ولكليوباترا التي كانت لا تفتأ تسألني النصح، وكنت أتنبأ لها النبوءات الكاذبة وفضلاً عن ذلك فقد نسجت شباكاً أخرى، فإن شهرتي طبقت آفاق مصر، فاستدعاني الناس لشفائهم من أسقامهم، ولإعطائهم النصح فيما يختص بالحالة السياسية، لعلمهم أني مشير أنطوني وكليوباترا، فأخذت أفرغ في آذان القوم كلمات الشك، ففقدوا نحو سيدتهم كل إخلاص وولاء.

وكانت كليوباترا كذلك قد أرسلتني إلى منف لاستمالة الكهنة والحكام في مصر العليا إلى جانبها للدفاع عن الإسكندرية، فخاطبتهم بحكمة وبأسرار عميقة، وحدثتهم بكلمات تحتمل معنيين فتعجبوا من أمري واستفسروا عني سرًا، فأريتهم علامة الأخوة ورجوتهم ألا يسألوا أكثر من ذلك، ونصحتهم بأن يسعوا إلى مسالمة قيصر.. إذ بذلك تعود عبادة الآلهة المقدسة في أرض مصر، فاستمدوا النصح كذلك من أبيس المقدس، ثم اتفقوا على أن يعلنوا مساعدة كليوباترا جهرًا، ويرسلوا السفراء إلى قيصر سرًا، أخذ الوقت يمر وكل يوم كانت كليوباترا تجد أن عدد أصدقاءها قد تناقص عن ذي قبل، ولكنها ما زالت مستمسكة بأنطوني لشغفها الشديد به، ولو أنه قد وصل إلى علمي أن أكتافيوس قد وعدها بملك مصر لها ولأولادها من بعدها،على شريطة أن تقتل أنطوني أو تخون سره، ولكن قلبها –إذا كانت ذات قلب– لم يطاوعها، وعلاوة على ذلك فإن مشورتي كانت ضد نصيحة أكتافيوس، خيفة أن ترتمي كليوباترا في أحضانه بعد موت أنطوني، فتتغلب على العاصفة وتبقى في مكانها.

لشد ما ضايقني ذلك لأن أنطوني –برغم ضعفه– ما زال شجاعًا وعظيمًا، وكنت أشعر في أعماق نفسي بما يعتمل في قلبه من شجن وبؤس، ولا يدري بمدى حزن البائس إلا بائس مثله، ألم تسلبنا نفس المرأة الملك والأصدقاء والشرف؟

ولكن الشفقة لا محل لها في السياسة، ولن تتحول قدماي عن طريق الإنتقام المرسوم.

لقد أصبحت النهاية وشيكة، إذ سقطت بلوزيوم في يد قيصر، فذهبت مع شارميون لإبلاغ النبأ إلى أنطوني وكليوباترا، وكانا قد اضطجعا بغية الراحة، والهرب من حر الظهر، فصاحت بهم شارميون:

– أفيقا فليس هذا وقت النوم، لقد سلم سلوكيوس بلوزيوم إلى قيصر، وهو الآن في طريقه إلى الإسكندرية.

فقفز أنطوني واقفًا.. وهو يسب ويلعن، وأمسك بكليوباترا من ذراعها وصاح:

– أقسم بحق الآلهة أنك خنتني، ولكنك ستدفعين الثمن.

ثم استل سيفه واقترب منها. فصاحت:

– أمسك يدك يا أنطوني، هذا كذب إني لا أعلم شيئًا.

ثم قفزت نحوه وتعلقت بعنقه باكية منتحبة، ابتسمت شارميون، لأنها هي التي كانت قد أشارت على سلوكيوس سرًا بالتسليم، زاعمة أنه لن تقوم حرب بالإسكندرية.

أما كليوباترا فقد جمعت كل كنوزها من الجواهر والزمرد، الذي تبقى لها مما أخذ من قبر منقرع وأخفته في قبر الجرانيت المقام بجوار معبد إيزيس، ووضعته على فراش من كتان، حتى إذا حان الحين أحرقته، حتى لا يقع بين يدي أكتافيوس الشره المحب للمال.

وعندما أتى قيصر بخيله ورجله إلى الإسكندرية، ذهبت إلى القصر حيث استدعني كليوباترا، فوجدتها في حجرة المرمر، مرتدية لباسها الملكي بعينين

متقدتين، وبجوارها إيراس وشارميون، وأمامها حراسها ممددون على الأرض، بعضهم يتلوى من الألم، والبعض قد فارق الحياة. وصاحت قائلة:

– التحية لأوليمبوس، هو ذا منظر محبب إلى قلب الطبيب، هؤلاء رجال بعضهم قد استقبل الموت، والبعض الآخر يعاني سكراته.

– ماذا فعلت أيتها الملكة؟

– إنني أجرب العدالة في هؤلاء المجرمين الخونة، حتى أعلم طرائق الموت، لقد جربت ست أنواع مختلفة من السموم في هؤلاء العبيد أنظر البعض يتلوى، والبعض جن، والبعض يستقبل الظلمة، والبعض يتحشرج ويبكي طالبًا الرحمة.

ثم اقتربت مني وهتفت:

– يا أوليمبوس، إنه برغم كل نبوءاتك، فإن المنتهى وشيك، يجب ألا يتغلب علينا قيصر، وإلا ضاعت مكانتنا أنا وسيدي أنطوني، لذا استقرت عزمي على أنه ما دامت اللعبة قد انتهت، فلأغادر العالم كما يليق بملكة، ولهذا السبب جربت هاته السموم في عبيدي، لأري أيها الأصلح، ولكني لم أر واحدًا منها يروق لي، لأن بعضها يسبب آلاما مبرحة، والبعض الآخر لا يعجل بالمنية فيجب إذن أن تجهز لي جرعة موافقة، تسلب روحي سريعًا، وبدون ألم.

أحسست بشعور النصر يملأ شغاف قلبي، لأنني بيدي سأحطم هذه المرأة. وأنفذ فيها عدالة الآلهة، وأخيرًا هتفت قائلاً:

– صحيح ما فهمت به يا كليوباترا، فالموت يشفيك من أسقامك، وستغوصين في بحر من النوم لا تستيقظين منه على هذه الأرض، لا تخشي الموت يا سيدتي، فالموت أملك وستذهبين ولا ريب نقية طاهرة، وتمثلين أمام مجلس الآلهة الرهيب بلا عيب ولا دنس.

فارتجفت أوصالها وقالت:

– ولكني خبرني، أيها الرجل الغامض، ماذا يحدث إذا لم يكن القلب نقيا؟ ولكن لا.. إنني لا أخشى الآلهة، لأنه إذا كانت آلهة الجحيم من الرجال، فسأكون بينهم ملكة أيضًا؟

وبينما هي تتكلم، إذ تناهى إلى أسماعنا ضجة عظيمة وصياح الفرح آتية من بوابات القصر.

فنهضت واقفة عن وسادتها، وقالت:

– ما هذا؟

فارتفعت الصيحات:

– أنطوني أنطوني لقد كان النصر حليفه.

فاستدارت بسرعة، وجرت وشعرها يتماوج في الهواء، وتبعتها عن كثب حتى بوابات القصر الخارجية، حيث قابلت أنطوني، وكان مشرق الوجه زاهيًا في حلته الرومانية، وما إن رآها حتى قفز عن الجواد، واحتواها بين ذراعيه، وضمها إلى صدره فصاحت:

– ماذا حدث، هل سقط قيصر؟

– كلا يا عزيزتي، لم تك السقطة حاسمة، ولكننا حملنا على الفرسان، ورددناهم على أعقابهم، وكما كانت البداية فهكذا ستكون النهاية، لقد تحديت قيصر، وإذا قبل التحدي، فسيري العالم أينا الفارس المغوار.

وفي وسط تلك الضجة، صاح الناس قائلين:

–رسول من قيصر.

دخل الرسول، وانحني أمام أنطوني، وأعطاه كتاب قيصر، ثم أدى التحية وانصرف.

فض أنطوني الخطاب، وقرأ ما يلي بصوت مرتفع:

"من قيصر إلى أنطوني تحية وبعد، فهاك جوابي على تحديك، ألم يجد أنطوني وسيلة للموت أفضل من حد حسام قيصر! إلى الملتقى" وهنا كف الناس عن الصياح والتحية.

عم الظلام، وقبيل منتصف الليل أقام أنطوني مأدبه لقواده، حضرها الكثيرون وكنت بين الحاضرين، ولما اكتمل الجمع وقف أنطوني حاسر الرأس، وقال:

"أيها الأصدقاء الذين مازلتم على ولائي وكثيرًا ما قدتكم إلى النصر، إصغوا إليّ سنخوض غمار الحرب وقد نلقى الفوز، أو تحيق بنا الهزيمة، وما أريده منكم هو أن تخلصوا لي، وتحافظوا على شرفكم أنتم يا فخر الرجال.

سنكتوي بنار المعركة غدًا، وسيكون حظنا معلقا في الميزان، ولكن كم من معركة خضناها كانت أشد هلاكا وأروع! وقد خرجنا منها لنحصي

خسائر الأعداء؟ هل هناك ما نخشاه؟ إذا تخلى عنا حلفاؤنا فما زالت جيوشنا في مثل قوة جيش قيصر.

نعم صيحوا واهتفوا، فإني أحب تلك الموسيقى العسكرية، إذا أخطأنا الحظ أيها الشجعان فسيموت أنطوني كما يموت الجندي، ويخلفكم لتبكوا على جثتة، ويخلف لكم أيضًا كنوزه التي تعرفون مخبأها خذوها أيها الأصدقاء الأوفياء لذكرى أنطوني، واقتسموها بينكم بالعدل والميزان!

كلا.. لا تبكوا، لأنه لا يليق بالرجال البكاء، وكلنا إلى الموت صائر، ولكني إذا لقيت حتفي فإني أعهد إليكم بأولادي، ارعوهم بعنايتكم الرفيقة، وربما كفيتموهم شر العوز.

كفى الآن أيها الجنود، غدًا سنأخذ خناق قيصر، في البر والبحر اقسموا الآن على الإخلاص لي إلى النهاية."

فصاحوا جميعًا في صوت واحد:

– نقسم، أيها النبيل أنطوني، نقسم.

– هذا حسن.. إن نجمي آخذ في التألق، وغدًا سيتلألأ في كبد السماء، وربما أطفأ نجم قيصر، إلى الملتقى.

ثم تحول ليخرج، فتدافع الرجال عليه.. وأخذوا يديه يقبلونها، لقد أثرت فيهم كلماته أيما تأثير، حتى راح بعضهم يبكي كالأطفال، حتى أنطوني لم يتمالك أشجانه، فرأيت الدموع تجري على وجنتيه وتسيل على صدره.

اشتد بي الحرج لما رأيت ذلك، لأني أيقنت أنه إذا استمسك هؤلاء

الرجال بالعروة الوثقى والتفوا حول أنطوني، فستكون النهاية فوز كليوباترا، ولو أنني لا أحمل ضغينة لأنطون.. إلا أنه يجب أن يسقط، لأنه بسقوطه يجذب معه تلك المرأة التي التفت حوله كالنبات السام.

وقفت في الظلال، أرقب وجوه هؤلاء القواد حين يتكلمون قال قائد الأسطول:

– لقد اتفقنا، ولنقسم جميعًا على الإخلاص لأنطوني إلى النهاية المرسومة له.

فصاحوا جميعًا:

– نعم.. نعم.

فهتفت من وراء الظلال:

– نعم.. نعم، تمسكوا به، وموتوا.

فالتفتوا إلي بوحشية، وأمسكوا بي، وقال أحدهم:

– من هذا؟

وصاح آخر:

– أنه أولميبوس، الكلب ذو الوجه الداكن، أولميبوس الساحر.

وصاح آخر:

– أولميبوس الخائن، سأضع حدا له ولسحره!

ثم استل سيفه، فقلت بنبرات وزينة بطيئة:

–اصمتوا لحظة، وحاذروا أن تمسوا خادم الآلهة بسوء، إني لست خائنًا، ولكني أقول لكم اهربوا.. اهربوا إلى قيصر، إنني أخدم أنطوني وكليوباترا، وأخدمهما بصدق وإخلاص، ولكني فوق كل شيء أخدم الآلهة المقدسة، وقد أخبرتني الآلهة أن أنطوني وكليوباترا مقضي عليهما بالهلاك، وأن قيصر سينتصر، إذن ولأني أجلكم أيها السادة النبلاء، أفكر بخوف وخشية في زوجاتكم وقد ترملن، وأولادكم وقد تيتموا، فإذا تمسكتم بأنطوني فستصيرون عبيداً، لهذا أقول لكم، اهربوا إلى قيصر، وانقذوا أنفسكم. أني أتكلم بما أمرتني به الآلهة.

فصاح أحدهم:

– الآلهة! أية آلهة؟ اذبحوا هذا الخائن، وضعوا حدا لكلامه المنحوس!

وصاح آخر:

– فليرنا علامة من الآلهة، أو ليموت، إنني لا أثق به.

فصحت قائلاً:

– ابتعدوا أيها الحمقى، اتركوا ذراعي، وسأريكم العلامة.

ولا بد أن يكونوا قد رأوا في وجهي ما يخيفهم لأنهم سرعان ما تركوا ذراعي وانتحوا ناحية. رفعت يدي إلى أعلى، واستجمعت قوة روحي في أعماق الفضاء حتى اتصلت روحي بروح أمي إيزيس، ولكني لم أجرؤ على إلقاء كلمة القوة، وسرعان ما ساد سكون رهيب، وأخيرًا سمعت رنين الصولجان المقدس على مبعدة، وكان قبل ضعيفًا، ولكنه ازداد قوة حتى شق

الفضاء وملأ الكون رهبة! ثم رأينا شبحاً مقنعاً سابحاً في السماء، ثم تلاشى الرنين، وابتلعت الظلمة الشبح الرهيب.

فصاح أحدهم:

– إنه باخوس، الذي كتب على أنطوني الضياع.

ولكني كنت أعلم أنه لم يكن باخوس الإله الكاذب، ولكنها ايزيس المقدسة التي هجرت مصر، ذاهبة إلى أطراف المعمورة، أخفيت وجهي في راحتي، وتمتمت بالصلاة، وعندما رفعت رأسي، وجدت أن الجمع قد مضى، وخلفوني وحيدًا.

الفصل السابع

نهاية أنطوني

عند فجر الغد، أتى أنطوني وأصدر أمره لأسطوله بالتقدم وملاقاة أسطول قيصر، وأمر الفرسان بالإشتباك مع خيالة قيصر، فتقدم الأسطول في خط مثلث، ورفعت سفن أنطوني مجاذيفها بالتحية، ثم انضمت إلى سفن قيصر، وأبحرت معها!

وذهب فرسانه قدماً لملاقاة جيش قيصر وحين تقابلا أغمدوا السيوف ومروا إلى معسكر قيصر، وخلفوا أنطوني يكاد يجن من فرط الأسى! صرخ أنطوني في جنوده أن يثبتوا، وانتظروا الهجوم، ولكنهم لم يقفوا سوى هنيهة يسيره، ثم أمعنوا في الهرب. ولكن أنطوني تمكن من القبض على أحدهم – وهو عين الرجل الذي حاول قتلي في الليلة الماضية– ثم طرحه أرضاً، وترجل عن جواده وشهر سيفه محاولاً قتل الرجل.

رفع أنطوني سيفه فوق هامته، بينا غطى الرجل وجهه بيديه، منتظراً الموت، ولكن أنطوني أسقط الحسام، وأمر الرجل بالنهوض وقال:

– إذهب.. إذهب إلى قيصر، واسع وراء النجاح، لقد أحببتك من قبل، فلماذا أوردك موارد الهلكة أنت وحدك بين جموع الخونة؟

فنهض الرجل، وتطلع حوله في يأس، ثم طغى عليه العار، فمزق الدرع عن صدره، وبادر نفسه بطعنة، فغاص الحسام في قلبه وخر على الأرض صريعا يتخبط.. حملق أنطوني في الرجل، ولكنه لم ينطق بكلمة.. وكانت

جموع قيصر تتقدم في تلك الأثناء، بدون أن تجد أدنى مقاومة من جيش أنطوني، وأخيرًا صرخ ايروس، خادم أنطوني الوفي وهو الوحيد الذي بقي بجانبه:

– إهرب يا سيدي أنطوني، قبل أن يأخذك قيصر أسيرًا!

فاستدار أنطوني وقرر الفرار، وهو يئن أنين الموجع، وقد رافقته في طريقه، فخاطبني قائلاً:

– إذهب يا أوليمبوس، إذهب إلى الملكة، وقل لها: "أنطوني يرسل تحياته إلى كليوباترا التي خانته".

فذهبت إلى المقبرة التي اتخذتها كليوباترا مقامًا مع كنوزها، بينما هرع انطوني إلى القصر.

وعندما بلغت المقبرة طرقت بابها، فاطلت شارميون من النافذة، ثم فتحت الباب.وسألتني هامسة:

– ما وراءك يا هارما كيس؟

– إن النهاية تقترب وشيكة يا شارميون، إن أنطوني قد فر..

وعندما مثلت بين يدي كليوباترا.. صاحت قائلة:

– تكلم أيها الرجل؟

– إن انطوني قد فر، وقد هربت قواته كذلك، وقيصر على الأبواب، وأنطوني العظيم يرسل تحياته إلى كليوباترا، التي خانته ونكثت عهده.

– هذا افتراء، إنني لم أخنه، إذهب إليه يا أوليمبوس على جناح السرعة، واحمل إليه ردي:

"إلى أنطوني، كليوباترا التي لم تنكث لك عهدًا، ترسل إليك تحياتها الأخيرة وهي على حافة القبر."

وذهبت فوجدت أنطوني في حجرة المرمر، وهو يذرعها جيئة وذهاباً رافعًا رأسه نحو السماء، ولم يكن معه غير خادمه ايروس، فقلت:

– أيها السيد أنطوني، إن كليوباترا تقرئك التحية، وقد قتلت نفسها بيديها.

فغمغم قائلاً:

– ماتت؟ ماتت.. هل مات هيكل العظمة والجمال وأصبح طعامًا للدود؟ أية إمرأة كانت؟ إنني ما زلت أشعر بالحنين إليها، هل ستفوقني المرأة قوة فتنطلق إلى حيث أخشى الذهاب لقد كنت لي محباً يا إيروس منذ الصغر، هل تذكر كيف التقطتك من الصحراء جائعًا، فأبدلت ببؤسك نعيما وبفقرك ثراء؟ تعال الآن وسدد دينك، استل سيفك وأنه به متاعب أنطوني وأشجانه.

– كلا ياسيدي.. لا أستطيع كيف أجرؤ على قتل أنطوني المقدس؟

– لا تعترض يا إيروس، إفعل ما أمرتك به، وإلا فاذهب واتركني وحيدًا ولا تدعني أرى وجهك مرة أخرى، أيها الخادم الذي يعوزه الإخلاص.

فلم يسع إيروس غير أن يشهر سيفه، وركع أنطوني أمامه، عاري الصدر، وعيناه تتطلعان إلى السماء.ولكن إيروس لم يلبث أن صاح قائلاً:

–لا أجرؤ، هذا أكثر مما أستطيع احتماله.

ثم أغمد السيف في قلبه هو، فخر على الأرض صريعاً، وحينئذ نهض أنطوني، وحملق فيه ثم هتف:

– يا أيروس لقد تصرفت بنبل أنك لأعظم مني، وقد لقنتني درسًا.

ثم انحني وقبله ونهض واقفًا، وجذب السيف من قلب أيروس وأغمده في أحشائه، فسقط على الأرض يتلوى ويتألم. ثم صاح:

– يا أوليبوس إن هذا الألم يفوق الإحتمال، ضع حدًا لألمي المبرح يا أوليبوس.

تحركت في نفسي عوامل الشفقة، فاقتربت واستللت السيف من أحشائه، وأوقفت النزيف، ثم ناديت أحد هؤلاء الذين تجمعوا لرؤية أنطوني وهو يموت، وطلبت منه أن يدعو أتوا، وسرعان ما أتت العجوز، ومعها الجرعات والعقاقير، فأعطيت منها لأنطوني، وطلبت من أتوا أن تسرع بأقصى ما تستطيع إلى المقبرة، وتنبئ كليوباترا بحقيقة الخبر.

فمضت وعادت بعد هنيهة تقول أن الملكة لم تمت بعد.، وهي تدعو أنطوني لكي يلفظ أنفاسه الأخيرة، بين ذراعيها، عادت إلى أنطوني بعض القوة،عند سماعه هذا الكلام وتحامل على نفسه ولكنه لم يستطع السير، فحمله بعض الرجال بمشقة إلى حيث كانت حبيبته ولكن كليوباترا التي كانت تخشى الخيانة لم تفتح الباب لدخولنا ولكنها أنزلت حبلاً من النافذة، ربطناه تحت إبطيّ أنطوني، ثم سحبت كليوباترا الحبل، بمعاونة شارميون وإيراس، وهي تبكي أحر بكاء.

أخذ جسم أنطوني يتأرجح في الهواء، وهو يئن أنينا موجعًا، والدم يقطر من جرحه الكبير، وقد أوشك أن يسقط على الأرض مرتين، ولكن الحب واليأس قد أوليا كليوباترا قوة، حتى استطاعت في النهاية أن تدخله من النافذة، بينا كانت الجموع المحتشدة –ما عداي وشارميون– تبكي بدمع غزيرة.

ولما أدخل أنطوني، تدلى الحبل مرة أخرى فتسلقت إلى المقبرة بمعاونة شارميون، وهناك وجدت أنطوني، ملقى على وسادة كليوباترا الذهبية وصدره عار. ووجهه مبلل بالدموع، بينا ركعت كليوباترا بجانبه وأخذت تقبله، وتمسح جروحه بردائها، وشعرها.

ولأقرر الحقيقة –ولا أخفي شيئًا من عاري– أقول أن عقارب الغيرة قد تحركت في قلبي ناهشة لاذعة.

تأوهت كليوباترا، ثم غمغمت:

– يا أنطوني يا حبيبي وزوجي وإلهي، يا أنطوني القاسي، هل يطاوعك قلبك على أن تموت وتخلفني وحيدة أعاني ذل العار؟ سألحق بك إلى القبر وشيكا، أفق يا حبيبي أفق.

رفع أنطوني رأسه وطلب قليلاً من النبيذ فأعطيته جرعة مزجتها بشيء من عقاقيري لتخفف من ألمه الشديد، ولما جرع ما في الكأس، دعا كليوباترا إلى الإضطجاع بجانبه وإحاطة عنقه بذراعيها. نسى أنطوني آلامه ومصائبه وأظهر رجولته، فأخذ يقول لكليوباترا خطة نجاتها وأمنها، ولكنها لم تشأ أن تسمع إليه، وهتفت:

– إن الوقت قصير، فلنتكلم عن حبنا، ألا تذكر تلك الليلة طوقتني بذراعيك ودعوتني "أيها الجميلة"؟ ألا ما أسعدها من ليلة.

– نعم أذكرها جيدًا أيتها الجميلة وقد عشت على ذكراها، وهل تذكرين ليلة تجرعت الجوهرة في النبيذ، وعندما صاح المنجم "لقد حلت لعنة منقرع"، لقد أتعبتني الكلمات، وما زالت تطن في أذني.

– لقد مات هذا الرجل منذ أمد طويل أيها الحبيب.

– إذا كان قد مات، فأنا قريب منه ماذا كان يعني بذلك؟

– لقد مات هذا الرجل اللعين، وانقضي.. هيا قبلني فإن وجهك قد شحب، ونهايتك تقترب وشيكاً.

فتعانقا.. وتلاقت شفاههما في قبلة طويلة كعروسين حديثي عهد بالزواج.

وهنا ارتسمت على وجهه سطور الموت، فهتف:

– الوداع ياحبيبتي.. الوداع، إني أموت.

ثم سقط رأسه إلى الخلف فرفعت كليوباترا نفسها عن المقعد، وتطلعت إليه مشدوهة، ثم أرسلت صرخة داوية، وسقطت على الأرض، فاقدة الوعي.

لم يكن أنطوني قد مات بعد، ولكنه فقد القدرة على الكلام، فاقتربت منه وركعت، متظاهرا بمعالجته، وهمست في أذنه:

– يا أنطوني، إن كليوباترا كانت لي كل شيء! قبل أن تتحول إليك، أنا هارماكيس المنجم، الذي كان واقفًا على الوسادة في طرسوس، وقد كنت أكبر عامل على هلاكك.

"مت يا أنطوني، فقد حلت لعنة منقرع"

فرفع نفسه قليلاً، وحملق في وجهي، ولكنه لم يستطع أن يتفوه بكلمة ثم أسلم الروح، عملت على إعادة كليوباترا إلى وعيها، لأنني لم أرد أن تموت في تلك اللحظة، ونقلت جثمان أنطوني، بعد استئذان قيصر، وأخذت في تحنيطه بمساعدة أتوا ثم حمل بأمر كليوباترا في موكب فخم إلى الضريح الذي أعدته لذلك، وقد كان واسعاً بحيث يسع تابوتا آخر إلى جانب تابوت أنطوني، وذلك تحقيقاً لرغبة كليوباترا، التي أرادت ألا تفارقه حتى بعد الموت، وبعد وقت قصير جاءني نبيل روماني يدعى كورنيليوس دولايلا، وكان يخدم قيصر، وكان قد تأثر بجمال من أسرت بجمالها القلوب، ورثى لأشجانها وأنبأني أن اكتافيوس قد اعتزم أن يأخذ معه كليوباترا وأولادها إلى روما، وطلب مني بوصفي طبيبها، ولي حق الدخول عليها، أن أبلغها تحذيره؛ ذهبت فوجدتها جالسة، شبه ذاهلة، وأمامها الرداء الذي مسحت به جروح أنطوني، وهي لا تتحول عنه بعينيها وإذ دخلت عليها رفعت عينيها وأشارت إلى البقع الباهتة وهتفت:

– أنظر كيف بهت لونها يا أوليبوس، ومع أنه لم يمت إلا من وقت قريب، والآن ما وراءك؟ إنني اقرأ في عينيك أنباء سيئة.

– إنها كذلك.. في الواقع أيتها الملكة، فقد تناهى إلى علمي أن قيصر سيبعث بك في اليوم الثالث أنت وأولادك إلى روما، لكي تسيري في ركابه في موكب النصر إلى الكابيتول.

فوثبت واقفة وصاحت:

– لن يكون هذا أبدا، هل أسير مكبلة بالأغلال في موكب النصر؟ ماذا أفعل؟ خبريني يا شارميون، ماذا أستطيع أن أفعل؟

فأجابت شارميون بهدوء:

– في استطاعتك الموت يا سيدتي.

– نعم، لقد نطقت بالصواب، إنني نسيت هل لديك جرعة لي يا أوليمبوس؟

– كلا، ولكن إذا كانت الملكة تريد، جهزتها لها في صباح الغد، جرعة قوية، سريعة التأثير.

– جهزها لي في صباح الغد إذن، يا سيد الموت.

فأحنيت رأسي. وانسحبت، ومكثت طوال تلك الليلة مع أتوا نعمل في إعداد الجرعة المميتة، وكانت بيضاء، كأكثر الماء نقاوة!

وهتفت أتوا بصوتها المرتعش:

– جرعة لأجل ملكة، عندما تستقر خمسون نقطة من هذا العقار في جوفها تكون قد انتقمت لنفسك من كليوباترا يا هارما كيس، لشد ما يبتهج قلبي عندما أرى محطمتك قد تحطمت.

فأجبتها وقد تذكرت قول شارميون:

– إن الإنتقام سهم طالما أصاب راميه.

الفصل الثامن

موت كليوباترا

وفي اليوم التالي، أذن قيصر لكليوباترا بزيارة قبر أنطوني، فذهبت وقبلت التابوت، ووضعت عليه زهر اللوتس، ثم رجعت واغتسلت، وتعطرت ولبست أفخر ما عندها من ثياب، وتناولنا العشاء معها، أنا وشارميون وإيراس وبينما نتناول العشاء، انتعشت روحها وراحت تضحك وتطرب كأن لم يحدث شيء، وتروي لنا القصص عن المآدب التي كانت تشترك فيها مع أنطوني، لم أرها في حياتي بمثل ذلك الجمال الذي رأيته في تلك الليلة المشؤومة، ليلة الانتقام.

ولقد جرها الحديث عن المآدب إلى تلك المأدبة التي أقيمت في طرسوس والتي شربت فيها اللؤلؤ، ثم قالت:

– إنه لمن العجب حقًا أن يفكر أنطوني في آخر لحظاته في تلك الليلة، وفي قول هارما كيس! أتذكرين هارما كيس المصري يا شارميون؟

فأجابت شارميون ببطء:

– بالتأكيد أذكره يا سيدتي الملكة.

فأردت أن أعرف ما إذا كانت تتألم لذكراي، فسألتها:

– ومن يكون هارما كيس هذا؟

– سأحدثك بأمره، إنها لقصة عجيبة، والآن قد انتهي كل شيء فلا بأس من سردها عليكم.

ثم بدأت في إلقاء قصتي من أولها، ولم تترك فيها شاردة أو واردة، فذكرت أصلي ونسبي والمؤامرة التي كان يراد منها تنصيبي ملكًا. وكيف وقعت في شرك غرامها، وكيف بحت لها بسر الكنز الدفين في قلب الأهرام، وتلك الليلة الليلاء التي قضيناها في قبر منقرع، واللآلئ التي استحوذت عليها، ثم رغبتها في الزواج، وكيف عارضت شارميون الفكرة بتأثير غيرتها القاسية، وكيف دفعت بها في أحضان أنطوني، وهنا توقفت عن الكلام لحظة، رأيت فيها شارميون، وقد غطت وجهها بيديها، وجرت الدموع على وجنتيها، وسألت كليوباترا:

– وأين هارماكيس الآن أيتها الملكة؟

– لابد أن يكون في أمان، ينشد السلام مع إيزيس.

ثم استطردت في سرد قصتها، حتى أتت على ليلة العشاء في طرسوس، وكيف وقعت في غرام أنطوني، وكيف أرادت قتلي في تلك الليلةلولا فراري، ثم ذكرت قصة الضابط برينوس، وعدم تصديقها إياها، وأنها ترجح أنني قضيت عند صخور شاطيء قبرص، ولا تعلم كيف مت، ثم قالت:

– قد تستطيع شارميون أن تحدثنا كيف مات.

– لا أستطيع أن أحدثك بشيء أيتها الملكة، لقد مات هارماكيس وانتهى.

– إنه أحسن بموته، بحسبي أنه كان رجلاً شريرًا، ومن الخطر الإشتراك معه في عمل لقد خدم أغراضي ولكني لم أحبه إنما كنت أخافه وحتى الآن فإنني أخشاه لقد خيل إلي أنني سمعت صوته يدعوني إلى الهرب من موقعه أكتيوم، شكرًا للآلهة على أنه مات وعلى أني لن أراه بعد الآن.

ولكني استجمعت قواي وبأساليبي السحرية التي أحذقها أرسلت ظلاً من روحي على روح كليوباترا، وجعلتها تشعر بوجود هارماكيس، فقالت:

– ما هذا؟ وحق سرابيس إني خائفة، إنني أشعر بوجود هارماكيس هنا، إن ذكراه تطغى عليّ.

فأجبتها:

– نعم أيتها الملكة، إذا كان قد مات فإن روحه لم تمت وهي تتبعك أينما حللت، لا سيما في مثل هذا الوقت وقد قربت نهايتك، ولابد أنها تحوم حولك لترحب بروحك عند ذهابها.

– لا تتكلم هكذا يا أولمبيوس فإنني راغبة عن رؤية هارماكيس، فإن الحساب بيننا عسير.. لقد ساعدت قصة هذا الأحمق على تمضية الوقت، والآن غني لي يا شارميون بعض أغانيك العذبة.

فأجابت شارميون:

– ليس الوقت وقت غناء يا سيدتي.

على أنها مع هذا تناولت قيثارتها، وأنشدت أغنية عذبة حزينة، أثارت الشجون وجعلت دموع إيراس تنهال على خديها، ودموع كليوباترا تترقرق

في عينيها المتقدتين، ولكني لم أبك فإن دموعي قد جفت ونضب معينها.

وقالت كليوباترا:

– إنها لأغنية ثقيلة يا شارميون، ولكن الظرف كما قلت ليس مناسبًا للغناء، ردديها مرة أخرى بعد مماتي ياشارميون، والآن بعدًا للموسيقى إلى الأبد، خذ هذه الورقة يا أوليبوس واكتب ما سوف أقول :

"من كليوباترا إلى اكتافيوس "تحية وبعد، فتلك هي حال الحياة لقد حلت أخيرًا الساعة التي لا نستطيع فيها تحمل الأعباء والأجدر إرسال الروح إلى عالم النسيان لقد انتصرت يا قيصر فأنعم بالأشلاء، ولكن لا تظن أن كليوباترا تسير في ركابك في موكب النصر، ولكنها ذاهبة للحاق بمن سبقوها إلى النهاية.

إن العبيد هم الذين يعيشون ليتحملوا نتيجة أخطائهم، ولكن الأمراء يجتازون الأبواب، ويذهبون إلى مساكن الموت الملكية، وما ترجوه كليوباترا من قيصر، هو أن يسمح بدفن جثتها بجوار جثة أنطوني، إلى الملتقى".

وبعد أن فرغت من رسالتها، ختمتها وطلبت مني أن أبحث عن رسول ليحملها إلى قيصر فأرسلتها مع أحد الجنود الذين كانوا يتولون الحراسة عند المقبرة.

ولما عدت وجدت بالغرفة ثلاث نساء واقفات في سكون، كليوباترا وقد تعلقت بذراع أيراس وشارميون واقفة عن كثب ترقبهما فقلت:

– إذا كنت حقًا تريدين وضع حدا لحياتك أيتها الملكة فقد حان الحين لأن قيصر لن يبطئ في إرسال رده على رسالتك.

ثم أخرجت القارورة التي تحتوي الجرعة المجهزة، ووضعتها على المنضدة فأمسكت بها، وتطلعت إليها.. وهتفت:

– إنها تبدو كالماء العذب لا شائبة فيها، ومع ذلك ففيها هلاكي ألا ما أعجب هذا؟

– أيتها الملكة، إن هذه الجرعة تكفي لقتل عشرة أشخاص، فلا حاجة بك إلى تناولها كلها.

فغمغت:

– إنني خائفة.. هل أنت واثقة بأنها ستقضي علي في التو واللحظة؟ لقد رأيت كثيرين يموتون بالسم.. ولكني لم أر أحدا يموت بغير ألم.

– لا تخافي يا سيدتي.. لقد أفرغت فيها كل ما أعلم من أنواع السموم القتالة، وإن كنت خائفة فما عليك إلا أن تلقي بها لتعيشي، وهناك في روما قد تجدين السعادة حيث تسيرين في موكب قيصر وحيث تختلط ضحكات النساء برنين السلاسل الذهبية.

–كلا.. سأموت يا أولمبوس ألا يوجد من يدلني على الطريق؟

فتقدمت ايراس وقالت:

– أعطني جرعة أيها الطبيب.. سأمهد الطريق لمليكتي.

– حسناً، وعلى رأسك تقع التبعة.

ثم صببت شيئًا من المزيج في كأس ذهبية فانبعثت ايراس واقفة. ثم انحنت أمام كليوباترا، وتقدمت إلى الأمام وقبلتها في جبينها ثم قبلت شارميون

كذلك، وتناولت الكأس وتجرعت ما فيها دفعة واحدة، ثم سقطت في الحال ميتة!

وساد سكون عميق، سرعان ما قطعت حبله قائلاً:

– ها قد رأيت أيتها الملكة مدى مفعوله وسرعته.

– نعم يا أوليمبوس، إنك لسيد العقاقير، هيا، إنني عطشى إملأ الكأس، إذ لا يليق أن تنتظرني إيراس طويلاً.

سكبت من جديد كمية منه في الكأس ولكني مزجته في هذه المرة بقليل من الماء حتى يتأخر تأثيره ولكي تعرفني قبل أن تموت.

تناولت كليوباترا الكأس، ورفعت عينيها الجميلتين إلى السماء، وصاحت بصوت مرتفع:

– يا آلهة مصر، يا من هجرتموني وتخليتم عني، لن أردد لكم صلاة فقد صمت آذانكم عن سماع صوتي، وعميت عيونكم عن رؤية أحزاني وأشجاني، ولذا فإني أتوسل إلى الصديق الباقي لي، وهو الموت، اقترب مني أيها الموت، يا ملك الملوك، يا من تسوي بين الأمير والعبد، خذني حيث لا أسمع حفيف الريح. ولا هدير الأمواج، وحيث لا حروب ولا جيوش قيصر، خذني إلى مملكة جديدة، وتوجني ملكة للسلام، أنك سيدي أيها الموت، اذهبي أيتها الحياة، تعال يا أنطوني!

ثم نظرت إلى السماء، وشربت الكأس، ثم ألقت بها على الأرض لقد حلت أخيرًا ساعة إنتقامي، وإنتقام آلهة مصر الغضبى، وحاول لعنة منقرع!

وصرخت كليوباترا قائلة:

– ما هذا إنني أشعر ببرودة أوصالى، ولكني لا أموت أيها الطبيب الشرير لقد خدعتني.

– مهلا يا كليوباترا فستموتين في التو واللحظة، وتواجهين غضب الآلهة، لقد حلت لعنة منقرع، انظري إليّ أيتها المرأة، انظري إلى الوجه المجعد، وإلى الأحزان التي تدب على قدمين، انظري.. انظري من أنا؟

فتطلعت إليّ بوحشية وطوحت ذراعيها وقالت:

– لقد عرفتك أخيرًا، وحق الآلهة أنك هارما كيس، هارما كيس قام من بين الأموات.

– نعم هارما كيس الذي قام من قبره، ليجتذبك إلى الموت، والحزن الدائم، أنظري يا كليوباترا لقد حطمتك كما حطمتني إنني كنت مصدر فزعك الدائم فملأت قلبك بالخوف في النوم، وكففت يد المصريين عن مساعدتك، وبيدي أخيرًا تموتين، إنني آلة للإنتقام منك، تعالي يا شارميون، يا من شاركتني في مؤامراتي، ثم خنتني، وندمت، إنك شريكتي في النصر، تعالي وانظري إلى تلك الباغية حيث تموت!

فتأوهت كليوباترا من قلب يتمزق أسى، وارتمت على الوسادة الذهبية وقالت:

– حتى أنت أيضًا يا شارميون!

ثم جلست لحظة، وقد أتقدت روحها، وبدت في جلالها وعظمتها، قبل أن

تموت، ثم ترنحت على الفراش، ومدت ذراعيها، وصبت علي لعناتها، وصاحت:

– آه.. من لي بساعة واحدة وأنا أدبر لك ولشريكتك التي لم ترع الجميل، أو تحفظ الود، ميتة لا تدور بخلدكما.

ثم مزقت الثوب عن صدرها، وقالت:

– أنظر إلى ذلك الصدر الفاتن، الذي كنت تتوسده في الليالي الماضية، وإلى هاتين الذراعين اللتين كانتا تلتفان حولك، أطرد عن نفسك ذكراهما، إن كنت تستطيع، إنني أقرأ في عينيك أنك لن تقدر، إنني مهما احتملت من تعذيب فلن يعدل الحنق الذي يعتمل في قلبك، يا هارما كيس، أيها العبد الحقير، إنني في هزيمتي منتصرة، إنني أبصق عليك وأتحداك إنني أموت ولكن حبي الذي ملك شغاف قلبك لن يموت.

يا أنطوني تعال إلي تعال إلى ذراعي العزيزتين، سنلتقي وشيكاً يا عزيزي وسنسبح معًا في اللانهاية تعال يا أنطوني وامنحني السلام.

خارت قواي تحت تأثير احتقارها وأسفاه لقد سقط سيف الإنتقام على رأسي أيضًا، إنني لم أحبها كما أحببتها في تلك اللحظة، لقد تعذب قلبي بالغيرة اللاذعة ولكني وددت لو أنها لا تموت.. ثم صحت:

– تقولين السلام، أي سلام تبغين، يا أوزوريس المقدس، فك قيود الجحيم عمن سأدعوهم من عالم الموت، تعال با بطليموس يا من سممتك أختك كليوباترا، تعال يا أرسنوى يا من قتلتك اختك كليوباترا داخل الهيكل، تعال يا سيبا يا من لاقيت من ضروب التعذيب والإيلام على يدي كليوباترا ما أوردك موارد الهلكة، تعال يا منقرع المقدس تعالوا جميعًا وحيوا القاتلة.

وبينا كنت أتكلم كانت شارميون متعلقة بثيابي وهي جد خائفة، بينما أخذت كليوباترا تترنح وهي تنظر إلي بعينين غائرتين منطفئتين، وأخيرًا جاء الجواب على صوت ندائي إذ سرعان ما فتح باب القاعة، ونفذ منه الخفاش الأبيض الذي رأيناه ممسكا بذقن الخصي في جوف الهرم، فدار في الغرفة ثلاثاً ثم حام حول جثة إيراس الميتة، وطار حيث المرأة التي تموت وجثم على صدرها، وأمسك بالزمردة التي كانت قد اجتذبتها من قلب منقرع ثم صرخ ثلاثاً، ورفرف بأجنحته ثم حلق في الغرفة واندفع إلى الخارج.

ثم ما لبث أن احتل الغرفة أشباح الموتى الذين دعوتهم، فهتفت:

– أنظري يا كليوباترا، هذا هو السلام الذين تنشدين، والآن موتي.

فصاحت شارميون:

– نعم.. انظري ثم موتي يا من سلبت مني الشرف، ومن مصر ملكها.

تطلعت كليوباترا إلى الاشباح برهة، ثم تقلص وجهها بتأثير الفزع، واصفرت عيناها وتحشرج صوتها، ثم سقطت جثة هامدة.

ها قد أكملت انتقامي منفذاً رغبة الآلهة، ولكني كنت منقبض الصدر محزون الفؤاد بسبب ذلك الحب الضائع الذي سكبت دم قلبي على مذبحه.

الفصل التاسع

موت شارميون

أرخت شارميون قبضة يدها عن ذراعي التي كانت متعلقة بها بتأثير الرعب، ثم هتف بصوت أجش:

–إن انتقامك –يا هارما كيس الغامض– شنيع مؤلم، يا كليوباترا الضائعة، لقد كنت ملكة حقًا، برغم كل شرورك وآثامك، تعال أيها الأمير وعاوني على نقل هذا الجثمان الملكي، لكي يعطي جوابا صامتًا إلى رسل قيصر، بما يناسب عظمة آخر ملكة تربعت على عرش مصر.

لم أحر جوابًا، لأن قلبي كان مثقلا بالهم والضجر، ولكني مددت يدي في سكون وعاونت شارميون على نقل الجثة إلى الفراش الذهبي، ووضعت شارميون التاج ذا الثعبان الذهبي، على الجبين العاجي، ومشطت شعرها الأسود الفاحم. الذي لم يكن قد ظهر فيه بعد أي خيط من خيوط الفضة وأغمضت العينين الجميلتين، ولآخر مرة تغلق تلكما العينان، ولا يشع منهما الجلال، والحياة الحارة الدافقة، ثم وضعت يديها على صدرها وقومت الركبتين المثنبتين تحت ثوبها الموشى، ولم تكن كليوباترا في يوم من أيام حياتها، وجمالها لتتمتع بمثل ذلك الجلال والهيبة، وقد حف بها جلال الموت وهيبته.

انسحبت من الغرفة، بعد أن ألقينا نظرة أخيرة عليها، وعلى إيراس الراقدة تحت قدميها.

قالت شارميون:

– لقد انتهى كل شيء يا هارماكيس، وقد أكملنا انتقامنا، والآن هل في نيتك أن نتبعهم في الطريق التي سلكوها؟

قالت ذلك وأشارت إلى القارورة الموضوعة على المنضدة فأجبتها:

–كلا إنني سأهرب إلى نهاية أثقل وأشد وطأة.

– فليكن يا هارماكيس، وسأهرب أنا أيضًا، سأطير ولكن بأجنحة أسرع من أجنحتك، لقد انتهى دوري، أي حظ أشق وأسوأ من حظي؟ لقد جلبت التعاسة على كل من أحببتهم وهأنذا أموت أخيرًا غير محبوبة، لقد كفرت عن ذنبي لك وذنوبي للآلهة الغضبي وهأنذاك أذهب في الطريق التي أستطيع أن أكفر فيها عن ذنبي لكليوباترا في الجحيم حيث هي، وحيث يجب أن أقاسمها المأوى لذا سأشرب من نفس الكأس التي شربت منها هي وأيراس.

ثم أمسكت بالقارورة وسكبت ما فيها من سم في الكأس الذهبية بيد ثابتة لا ترتعد فأجبتها:

– من رأيي يا شارميون أنك تستطيعين العيش عدة سنوات أخر تنسين فيها آلامك.

– نعم أستطيع.. ولكني لن أفعل هل أقضي أيامي هكذا فريسة لمثل هذه الذكريات المتعبة؟ هل أستمر مصدراً للعار الحي المتجدد ليلة بعد ليلة أقضيها ساهرة، يكتنفني الأسى من كل جانب؟ هل أعيش ممزقة القلب من الحب الذي لا أستطيع نسيانه؟ هل أحيا وحيدة، منبوذة كالشجرة التي كسرت أغصانها العاصفة؟ كلا لن أفعل هذا يا هارماكيس، إنني مت في الواقع منذ زمن طويل، وما عشت إلا لخدمتك، والآن وقد انتهت حاجتك

إليّ، فسأذهب، الوداع يا هارماكيس، لن تكتحل عيناي بمرأى وجهك مرة أخرى، لأنك لن تذهب حيث أذهب، إذ أنك لا تحبني، ولكنك تحب تلك المرأة الملكية، التي قيدتك برباط غرامها حتى إبان موتها! إنك لن تكتسبها، كما أني لن أكتسبك! فما أقسى تصاريف القدر! أسمع يا هارماكيس، إنني أسألك منة واحدة، أنا التي سأبقى ذكرى عار لك، قل لي أنك قد عفوت عني، وأثبت لي تسامحك بقبلة، لا قبلة عاشق ولكن قبلني في جبيني، ثم دعني أذهب بسلام!

ثم اقتربت مني، ويداها ممدودتان، وشفتاها ترتعشان، وحملقت في وجهي فقلت:

– إنني أعفو يا شارميون كما أتمنى أن يُعفى عني كذلك، وبهذه القبلة الأولى والأخيرة أؤكد بيننا السلام.

لم تجب بكلمة ولكنها وقفت هنيهة تحملق في بعينين حزينتين، ثم رفعت الكأس وهتفت:

– أيها الأمير الملكي هارماكيس، إنني بهذه الكأس المميتة أشرب نخبك، لشد ما وددت لو أني شربتها قبل أن أعرفك! أي فرعون يا من ستحكم في عوالم أخرى من السلام، وتقبض بيدك على صولجان أعظم من ذاك الذي سلبته منك وداعًا وإلى الأبد.

ثم جرعت محتويات الكأس وألقت بها على الأرض، ووقفت لحظة تنظر بعينين واسعتين إلى الموت القريب، ثم خرت على الأرض صريعة.

وقفت لحظة وحيدًا بين جموع الموتى، واقتربت من كليوباترا وانتهزت

الفرصة حيث لا يرانا أحد، وجلست على الفراش ووضعت رأس كليوباترا على ركبتي كما فعلت ليلة إخراج الكنز تحت ظلال الهرم ثم قبلتها في جبينها البارد وخرجت من منزل الموت.

لقد انتقمت ولكن قلبي كان كسيرًا من اليأس.

وعندما اجتزت البوابة الخارجية، وذهبت أضرب في أحشاء الظلام سمعت وقع أقدام رسل قيصر، ذاهبين بالجواب انطلقت مسرعا إلى منزلي حيث وجدت أتوا العجوز بانتظاري عند البوابة فاقتادتني إلى غرفة هادئة، ثم سألت:

– هل انتهى كل شيء؟ نعم.. ولم أسأل؟ وأنا على علم بكل شيء.

– نعم لقد سارت الأمور في مجراها الممهد، فمات الجميع. كليوباترا وإيراس وشارميون ولم يبق سواي.

فرفعت المرأة العجوز قامتها، ثم هتفت:

– دعني أنا أيضًا أذهب بسلام، لقد تمت رغبتي على أعدائك، وأعداء مصر، لم تكن حياتي الطويلة عبثاً لقد جمعت قطرات الموت وأسقيت منها أعداءك فسقطت "المتعجرفة" وذهبت "عار مصر" إلى التراب.

– اصمتي أيتها المرأة، اصمتي لقد كتب على شفاههم السكون الأبدي ولا يجدر بنا أن نتبع الموتى باللعنات هيا بنا إلى ابوثيس حيث يتم كل شيء.

– إذهب أنت يا هارما كيس، وأما أنا فلن أذهب. لقد عشت حتى أتممت غايتي، والآن إني أحل عقده الحياة وأترك الروح طليقة، الوداع يا

هارما كيس.. لقد أحببتك طفلاً، ويافعاً وما زالت نفسي تنطوي على حبك، ولكني لن أعيش بعد الآن في هذا العالم لأقاسمك الهموم، يا أوزوريس، خذ روحي.

وارتجفت ركبتاها وسقطت على الأرض جسدًا هامدًا، لقد مضت وذهب الجميع وخلفوني وحيدًا على الأرض، بلا صديق يأسو جراح قلبي.

ورحلت عن الإسكندرية وفي اليوم الثامن وصلت إلى مذبح ابوثيس المقدس وكان اليوم يوم عيد إيزيس، وقد اجتمع جميع كبار الكهنة ليحيوا رجوع الآلهة إلى مكانها المقدس وصلت إلى المدينة في اليوم السابع من أيام العيد، ألقيت بنفسي وسط الجموع الزاخرة، واشتركت مع القوم في ترتيل الأغنية المقدسة التي تلقى في مثل تلك المناسبات.

وما إن كفت الموسيقي عن العزف، حتى أتى كاهن رع الأكبر ورفع تمثال الإله الحي بين يديه أمام الجمع الحاشد، فردد القوم صياح الفرح: "أوزوريس، يا مبعث الآمال: أوزوريس أوزوريس" ثم مزقوا الثياب السوداء من فوق أرديتهم وأظهروا الأردية البيضاء علامة الفرح، ثم انطلقوا جميعًا في طريقهم بينما مكثت في مكاني وحدي في فناء المعبد.

اقترب مني الكاهن وسألني عن حاجتي فأجبته بأنني آت من الإسكندرية لأمثل أمام مجمع الكهنة، لأنني علمت أنهم سيجتمعون لتلقي أنباء الإسكندرية.

أمر الكهنة فمثلت في حضرتهم في قاعة الأعمدة، حيث الظلام ما زال مخيماً، فتذكرت تلك الليلة التي توجت فيها، في نفس القاعة، فرعونا على

مصر العليا والسفلى، لقد كان كل شيء حيث تركته، وكان بين المجتمعين خمسة ممن اشتركوا في المؤامرة الكبرى.،وهم الذين أبقت كليوباترا على حياتهم، ولم تمتد إليهم بعد يد الزمن. وقفت في نفس البقعة التي كنت قد توجت فيها، والعار يكسوني والخجل يملأ نفسي.

وقال أحدهم:

– ماذا؟ هذا هو الطبيب أوليمبوس الذي عاش في مقابر طيبة، والذي لازم كليوباترا في المدة الأخيرة، هل حقًا أيها الطبيب أن الملكة قتلت نفسها؟

– نعم أيها المقدسون، لقد ماتت كليوباترا ولكن بيدي!

– بيدك كيف حدث ذلك؟ مهما يكن، فقد ماتت البغي الشريرة!

– عفوًا أيها السادة سأحدثكم عن كل شيء لأنني ما جئت هنا إلا لهذا.. قد يذكر بعضكم أنهم منذ أحد عشر عامًا اجتمعوا سرًا لتنصيب هارما كيس فرعون على مصر.

– هذا صحيح، ولكن هل تعرف هذه الأشياء أنت يا أوليمبوس؟

فلم أجب على سؤالهم، ولكني استطردت:

– من بين السبعة والثلاثين سيدًا الذين اجتمعوا في حفلة التتويج، قضى اثنان وثلاثون البعض مات كأمينمحعت والبعض ذبح مثل سيبا، والباقي يعملون كعبيد في المناجم، أو يعيشون في بقعة قصية خشية الإنتقام.

– إنه لكذلك ويا للأسف، لقد أفشى هارما كيس اللعين سر المؤامرة وباع نفسه إلى كليوباترا البغي.

– نعم أيها السادة لقد با ع هارما كيس الخائن نفسه لكليوباترا وأفضى الخطة كلها، أيها السادة المقدسون أنا هارما كيس.

فحملق في الكهنة مشدوهين، ووقف بعضهم وهم يرمقونني غير مصدقين ويتمتمون بكلمات مبهمة بينما جلس البعض الآخر ساكناً ثم استطردت قائلاً:

– أنا هو هارما كيس، أنا ذلك الخائن، الذي انغمس في حمأة الجريمة، لقد خنت الآلهة وخنت الوطن وحنثت بأيماني لقد نفذت إنتقام الآلهة فيمن حطمتني وسلمت مصر للرومان.وهأنذاك قد أتيت متسربلاً برداء العار، لأعلن أنني ذلك الخائن الجبان.

فأجاب أحد الكهنة:

– هل تدري مصير من ينكث العهد، وينقض الأيمان؟

– إنني به عليم، وأنا أطلب ذلك الجزاء الرهيب!

– حدثنا بالمزيد من قصتك يا من كنت هارما كيس.

فسردت عليهم قصتي بحذافيرها، بصوت هادئ بارد ولم أترك صغير ولا كبيرة، وأظهرت لهم عاري سافرًا، بغيضًا وكلما استطردت في قصتي عبست وجوههم وبدت فيها علامات الشدة، فأيقنت أن لا رحمة ترجى، وألا أبغي الرحمة، ولم أكن لأطلبها.. لو كان من الميسور أن أمنحها.تشاوروا في الأمر فيما بينهم، ثم قام أكبرهم سنا، وهو الشيخ الوقور كاهن معبد حتشبسوت المقدس، وقال:

– يا هارما كيس، لقد أثمت وارتكبت خطايا متشعبة، فعلى رأسك يقع وزر ضياع مصر، ووقوعها في أيدي الرومان، لقد أهنت إيزيس إهانة ما بعدها إهانة، وحنثت بأقسامك، ولا يوجد لكل هذه الخطايا غير جزاء واحد معروف، ولن يخفف من شدة حكمنا أنك قتلتها وانتقمت منها، أو إعترافك بأنك أحط من وقف بين هذه الجدران أو أكثرهم وضاعة وعاراً فلتنزل على رأسك لعنة منقرع، أيها الكاهن المزيف، والوطني الكاذب، يا فرعون الذي أضاع عقله، وارتدي رداء العار. إذهب وانتظر النهاية المريرة لأمثالك إذهب ولتقضي عليك الذكريات تذكر ما كنت يجب أن تكونه وما أنت عليه الآن.

إذهب واطلب الرحمة من الآلهة التي كنت سبباً في إبطال عبادتها، إذهب فقد تمنحك الآلهة الرحمة التي نأباها نحن عليك، وأخذوني إلى الخارج مطرق الرأس، ولم أجرؤ على التطلع إليهم، لقد كان هذا العار الجديد أكثر ألماً من سابقيه وأشد وقراً!

الخاتمة

آخر ما كتبه الأمير المصري هارما كيس قادوني إلى غرفة سجني في البرج، حيث جلست أنتظر تنفيذ الحكم لست أعلم متى يسقط سيف القدر على رأسي لقد مر الأسبوع في أثر أسبوع والشهر بعد الشهر وما زلت في الإنتظار أني عليم أنه سوف يسقط على رأسي ولكن متى؟ لست أدرى ربما استيقظت في ساعة هادئة في منتصف إحدى الليالي على صوت خطوات القتلة أو ربما كان الموت أقرب إلى من حبل الوريد! وهنالك أحمل الصومعة السرية، كل الفزع، ومن ثم ينتهي كل شيء ألا أيها الموت رفقًا بي وعجل! لقد سطرت كل شيء لم أترك شاردة أو واردة أنني أثمت ثم أنتقمت وهانذا أعد نفسي لمواجهة الفزع، والعذاب في العالم الآخر سأذهب ولكن ليس بلا أمل إنني أحس بوجود إيزيس المقدسة بجانبي ولو أني لن أراها ولن تستمع لصلاتي.

قد أظفر أخيرا بالعفو والمغفرة، فإذا تحقق هذا الأمل فسيرتفع عن عاتقي حمل الخطيئة، وأغدو مرة أخرى طاهراً نقياً.. ثم أُحمل إلى حيث تهدأ روحي في أرض السلام!

يا أرض مصر العزيزة، إنني أراك في أحلامي، أرى أمة بعد أمة، ترفع رايتها على شواطئك، وتلقي النيران على أهلك، أرى ديانات عديدة وعبادات جديدة.. أرى معابدك وهياكلك المقدسة قد دكت في التراب!

وأرى أناسا –لم يولدوا بعد– يتطلعون إلى المقابر ويمتعون أنظارهم بما

حوت من عظمة، نرى الجهال يهزأون بأسرارك، وأرى حكمتك تضيع كما يضيع الماء في رمال الصحراء.

وأخيراً.. أراك مرة أخرى –يا مصر العزيزة المقدسة– حرة قوية وقد عدت إلى معرفة آلهتك المقدسة، تعرفينهم بأشكال أخرى وبأسماء أخر، ولكنهم ما زالوا الآلهة المحبوبة.

لقد غربت الشمس فوق أبوثيس، وأرسل رع خيوطه الحمراء فوق المعابد والهياكل والحقول الخضراء.. والماء النمير.. كل شيء كما هو، ولم يتغير، أنا الذي تغيرت، ومع ذلك فما زلت كما أنا!

يا كليوباترا، يا من حطمتني ودمرتني، لشد ما أرغب في أن أنزع صورتك من قلبي.. وذكراك من نفسي! إن أشجاني لا تقاس بهذا الأسى المرهق، وهو أني ما زلت أحبك!

أراني مضطراً أن أضم الثعبان إلى صدري، وأغذيه من دماء قلبي، وما زالت تدوي في أذني، ضحكات النصر.. والفشل.

أسمع شدو البلبل..

(هنا انقطعت الكتابة فجأة في الملف الثالث من أوراق البردي، وأنه ليبدو أن الكاتب قد أزعجه من أقبلوا ليقودوه إلى حيث يلقى مصيره الأخير)

الفهرس